جان أشينوز

إنّي ذاهب

رواية

ترجمة بسام حجّار

دار الآداب

إنّي ذاهب، قال فيرّي، سأهجُرُكِ. أتركُ لكِ كلّ شيء، لكنّني سأرحل. ولمّا أغضت سوزان لفرطِ حيرتها، شاخصة البصرِ إلى منشبٍ كهربائي، ترك فليكس فيرّي مفاتيحه على كونسول المدخل. ثمّ زرّر معطفه قبل أن يغادر مغلقًا وراءه باب المقصورة برفق.

جان اشينوز، من مواليد أورانج (فرنسا) عام ١٩٤٧. من أعماله: شيروكي والحملة الماليزية وبحيرة ونحن الثلاثة وشقراوات (الصادرة عن دار الآداب) وإنّي ذاهب التي حازت على جائزة «غونكور»، أبرز الجوائز الأدبيّة الفرنسيّة.

دار الآداب
هاتف ٨٦١٦٣٣-٨٠٣٧٧٨
ص ب ٤١٢٣ - ١١ بيروت
تصميم الغلاف رسم الخلني

إنِّي ذاهب

جان أشينوز

إنِّي ذاهب

رواية

ترجمة: بسّام حجّار

دار الآداب - بيروت

Je m'en vais
Jean Echenoz

© 1999 by les Editions de Minuit S.A.

إنّي ذاهب
جان أشينوز/روائيّ فرنسيّ
ترجمة: بسام حجّار
الطبعة الأولى عام 2005
حقوق الطبع محفوظة

All rights reserved in Arabic. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة في اللغة العربية. لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أيّ جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطّيّ مسبق من الناشر.

دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير ـ بناية بيهم
ص.ب. 4123-11
بيروت ـ لبنان
هاتف: 861633 (01) - 861632(03)
فاكس: 009611861633
e-mail: d_aladab@cyberia.net.lb

١

إنّي ذاهبٌ، قال فيرّي، سأهجُرُكِ. أتركُ لكِ كلّ شيء، لكنّني سأرحل. ولمّا أغضت سوزان لفرطِ حيرتها، شاخصة البصرِ إلى منشبٍ كهربائي، ترك فليكس فيرّي مفاتيحه على كونسول المدخل. ثمّ زرّر معطفه قبل أن يغادر مغلقًا وراءه باب المقصورة برفق.

في الخارج، لم يلقِ فيري ولو نظرةً واحدة على سيّارة سوزان التي أعتم زجاجها المغشّى بالبخار تحت أنوار المصابيح البلديّة، وراح يسير باتجاه محطّة كورنتان ــ سلتون التي تبعد نحو ستمئة متر. نحو التاسعة، ليلةَ الأحد الأوّل من شهر كانون الثاني، كانت عربات المترو شبه شاغرة. ليس فيها أكثر من عشرة أنفار، وحيدين، على غرار فيرّي الذي صار وحيدًا منذ خمسٍ وعشرين دقيقة. كان في الأحوال المعتادة ليَغتَبِطَ إذا وجدَ ركنًا شاغرًا من مقعدين متقابلين، أشبه بمقصورة صغيرة له وحده، لأنّ هذا هو الشكل الأمثل لركوب المترو في نظره. غير أنّه في تلك اللّيلة لم يكن حتّى ليفكّر في الأمر؛ كان ساهيًا ولم

يكن سبب انشغاله، كالمتوقّع، هو فقط ما جرى بينه وبين سوزان التي يعلم أنّها امرأة يصعبُ إرضاؤها. ولأنّه توقّع ردّ فعلٍ أشدّ عنفًا، وصراخًا يتخلّله الوعيد والشتائم المقذعة، شعرَ بارتياحٍ، غير أنّ شعورَه بالارتياح هذا، هو ما كان يقلقه بالذات.

كان قد وضع بجانبه حقيبة يد تحتوي خاصّة على أدواتِ زينته وملابس داخليّة، ولبثَ في البداية شاخصَ البصر أمامه، محدّقًا في لوحاتٍ إعلانيّة صغيرة لكسوة الأرضيّات، ووكالات سفرٍ للأزواج ولنشراتٍ عقاريّة. فيما بعد، بين محلّتي فوجيرار وفولونتير، فتح فيرّي حقيبته ليستخرجَ منها قائمةً لتحفٍ فنّيّة فارسيّة ستعرض للبيع في مزاد علني، وراح يقلّب صفحاتها حتّى وصوله إلى محطة «المادلين» حيث نزل.

في نواحي كنيسة المادلين، شرائط زينة كهربائيّة تدلّت منها نجومٌ مطفأة فوق شوارعٍ أكثر شغورًا من المترو. كانت واجهات المحالّ الفاخرة المزيّنة تذكّر العابرين الغائبين بأنّ النجاة ممكنة إثرَ ملذّاتِ نهاية العام. وحيدًا، ملتحفًا بمعطفه، دار فيرّي حول الكنيسة قاصدًا رقمًا زوجيًّا في شارع دولاركاد.

لكي يتذكّر رمزَ الدخول إلى العمارة دسّ يديه داخل ملابسه، فامتدّت يده اليسرى إلى مفكّرة كان يحملها في جيبِ سترته الداخلي، بينما مدّ يده اليمنى بحثًا عن نظّارته الغارقة في جيبٍ آخر. ثمّ بعد أن تجاوز عتبة الباب، غافلاً عن المصعد، راح يتسلّق بعزم سلّم الخدمة. بلغ الطبقة السادسة دون أن يبدو لي متعبًا، ووصل إلى أمام باب أعيد طلاؤه على نحو رديء بلونٍ خمريّ، ويظهر على مفصّلاته بوضوح أثر محاولتين لخلعِه

بالقوّة، على الأقلّ. لا اسم على هذا الباب، فقط صورة مثبّتة بمسمار، مثنيّة عند زواياها وتمثّل الجسدَ الهامدَ لمانويل مونتوليو، مصارع الثيران سابقًا والعامل الكادح حاليًّا، بعد أن شقّ ثورٌ يدعى غوباتيستو صدره وفتحه مثل كتاب، في الأوّل من أيّار عام ١٩٩٢: نَقَرَ فيرّي الصورةَ نقرًا خفيفًا مرّتين.

بينما كان ينتظر، غرز أظافر يده اليمنى برفقٍ في باطنِ ساعده الأيسر، مباشرةً فوق المعصم، حيث يتقاطعُ عددٌ من الألياف العضليّة والعروق الزرقِ تحتَ الجلدِ الأنصع بياضًا. سمراء، شديدة السمرة، طويلة الشعر، لا تتجاوز الثلاثين عامًا ولا يقلّ طول قامتها عن المتر وخمسةٍ وسبعين سنتمترًا، كانت المرأة الشابّة، المدعوّة لورانس، التي فتحت له الباب واستقبلته بابتسامةٍ صامتة قبل أن تغلق الباب وراءهما. وفي اليوم التالي، نحو العاشرة صباحًا، غادر فيرّي مجدّدًا قاصدًا مُحْتَرَفَه.

٢

بمضيّ ستّة أشهر، نحو الساعة العاشرة أيضًا، ترجّل المدعو فليكس فيرّي، نفسه، من سيّارة أجرة أمام مدخل المسافرين B، في مطار رواسي ـ شارل ـ ديغول، تحت شمس حزيرانيّة خَفِرَة، محتجبةٍ لجهةِ الشمال الغربي. لمّا كان فيرّي قد جاء قبل الموعد،لم تكن قد بدأت بعدُ إجراءات تسجيل الركّاب والحقائب لرحلته: وكان على الرجل أن يجولَ لثلاثة أرباع الساعة بين ردهات المسافرين الفسيحة دافعًا عربةً حمّلها حافظة أوراقه وحقيبته ومعطفه الذي زادَ سَمْكُه تماشيًا مع تقلّبات الطقسِ. وبعد أن احتسى فنجان قهوة آخر، واشترى مناديل ورقيّة وأقراص أسبيرين فوّارة، بحث عن ركنٍ هادئ كي ينتظر فيه بسلام.

وإذا كان فيرّي قد لاقى مشقّة في العثور على ركن هادئ، فذلك لأنّ المطار، كأيّ مطار آخر، غير موجودٍ في حدّ ذاته. فهو ليس سوى مكان للعبور، ليس سوى ممرّ انتقال، فاصلٍ وهميّ وسط امتداد سهليّ، مَنْظَرةٍ مطوّقة بمدرّجاتٍ حيث تتقافز

أرانب ذات أنفاسٍ مشبعةٍ بالكيروسين، منطلقٍ تعصفُ به مجاري هواءٍ تجرفُ في مسارها أنواعًا لا تحصى من أجرام ذاتِ مصادر لا تحصى ــ حبّات رملٍ من كلّ الصحارى، شذرات ذهبٍ أو طَلْق من كلّ الأنهر، غبارٌ بركانيّ أو مُشعّ، طَلعٌ أو فيروسات، رماد سيجار ومسحوق أرز. إنّ إيجاد ركن هادئ ليس بالأمر اليسير لكنّ فيرّي يهتدي إليه في النهاية، في طبقةٍ تحت الأرضِ؛ كان عبارة عن قاعة مسكونيّة للتأمّل يستطيع المرء أن يسترخي على مقاعدها غافلاً عن أيّ شيء آخر. قضى فيها بعض الوقت قبل أن يسجّل حقائبه ويتسكّع قليلاً بين محال المنطقة الحرّة من دون أن يشتري منها لا مشروبات روحيّة ولا سجائر ولا عطورات، ولا شيء على الإطلاق. لم يكن ذاهبًا في إجازة. فلا حاجة لإرباك نفسه بأيّ حِمْلٍ زائد.

قبيل الواحدة ظهرًا صعد إلى متن طائرة الدي سي تن ، حيث كانت موسيقى فلكيّة، خفيضة الوقع، لتهدئة أعصاب الزبون، ترافقه حتّى جلوسه مسترخيًا في مقعده. طوى فيرّي معطفه ودسّه مع حافظة أوراقه داخل خزانة الحقائب العالية، ثمّ جلسَ متربّعًا على مساحة المتر المربّع المخصّصة له لجهة النافذة، وشرعَ في ترتيب أوضاعه بحسب المقتضى: رَبطُ الحزام؛ صحف ومجلات أمامه؛ نظارة وأقراص منوّمة بمتناول يده. ولأنّ المصادفة شاءت أن يكون المقعد الملاصق لمقعده شاغرًا، أمكن استخدامه كمجالٍ ملحقٍ ومتمّم لمجاله الخاص.

ثمّ تجري الأمور كالمعتاد؛ تنتظر، وبشرودٍ تصغي إلى النداءات المسجّلة، وبعينٍ ساهية تتابع إرشادات السلامة. في

آخر الأمر تتحرّك الطائرة؛ في البداية لا تشعر بحركتها، غير أنّها سرعان ما تنطلقُ بقوّة ثمّ تقلعُ في اتّجاهٍ شماليّ غربيٍّ نحو غيومٍ تخترقها. خَلَلَ هذه الغيوم، منحنيًا على زجاج النافذة، سوفَ يرى فيرّي، فيما بعد، مُتّسَعًا من بحرٍ مزدانٍ بجزيرة لن يتمكّن من التعرّف عليها، ثمّ مُنبسَطًا من اليابسة في وسطه بحيرة، هذه المرّة، لن يتمكّن من معرفة اسمها. ينعسُ ويكبو قليلاً، متابعًا بلامبالاة على شاشةٍ أمامه شارةَ الأفلام التي يشقّ عليه مشاهدتها حتّى النهاية، مُشتّتَ الذهنِ، غير مكترثٍ لحركة المضيفات اللواتي ربّما ما عُدنَ كسابقِ عهدهنّ؛ إنّه وحيدٌ تمامًا.

كيف له ألاّ يشعر بالعزلة المطلقة عندما يكون فردًا من بين مئتين محشورين داخل هيكلٍ معدني. قد تكون هذه العزلة السلبيّة، كما يظنّ البعض، مناسبةً للتمعّن في حصيلة حياته، والتفكير في معنى الأمور التي تولّدها. تحاول لبعض الوقت، تبذل بعض الجهد غير أنّك لا تصرّ طويلاً حيالَ المناجاة المتهافتة الناجمة عن محاولتك، ولذا سرعان ما تكفّ عن المحاولة، تنكفىء على نفسك وتستسلم لخدَر النعاس، وتودّ فعلاً أن تنام، تطلب كأسًا من المضيفة لأنّ الكأس تُعينك على النوم، ثمّ تطلب كأسًا أخرى لكي تبتلع القرص المنوّم : تغفو.

في مونتريال، لدى نزوله من الدي سي تن، بدا له أنّ موظّفي المطار مشتّتون، على نحو غير عادي، تحت سماء أرحب من السماوات الأخرى؛ ثمّ لمّا جاءت حافلة الغرايهاوند كانت أطول من الحافلات جميعًا، غير أنّ الطريق السريعة كانت عادّية كسواها من الطرق السريعة. لدى

وصوله إلى كيبيك، استقلّ فيرّي سيّارة أجرة من نوع سوبارو باتّجاه المرفأ، قسم خفر السواحل، الرصيف ١١. أنزله السائق أمام لافتة دُوّن عليها بالطبشور الوجهة: **القطب الشمالي**، وبمضيّ ساعتين،كانت كاسحة الجليد NGCC ديغروزييه، تبحرُ باتجاه الشمالِ العظيم.

٣

منذ خمسة أعوام وحتّى ذلك المساء من شهر كانون الثاني الذي هَجَرَ فيه مقصورةَ إيسّي، كانت أيّام فليكس فيرّي، ما عدا أيّام الأحد، تنقضي متشابهة. كان يستيقظ عند السابعة والنصف، ويقضي، أوّلاً، عشر دقائق في المرحاض برفقةِ مطبوعةٍ ما قد يتراوح نوعها من بحثٍ رصين في علم الجمال إلى نشرةٍ إعلانيّة متواضعة؛ بعد ذلك يعدّ لنفسه ولسوزان فطورًا مدروسًا بدقّة علميّة من حيث مكوّناته من الڤيتامينات والأملاح المعدنيّة. وعندئذٍ ينصرف إلى مزاولة التمارين الرياضيّة لمدّة عشرين دقيقة وهو يستمع إلى أقوال الصحف عبر الراديو. وبعد فراغه من التمارين يوقظ سوزان ويعمد إلى تهوية البيت.

بعد ذلك كان ينظّف أسنانه في حجرة الاستحمام، حتّى تنزف لثّته دمًا من دون أن ينظر ولو مرّةً واحدة في المرآة، هادرًا في الأثناء عشرة لترات من المياه الأميريّة الباردة. كان يغتسل على الدوام وفقَ ترتيبٍ لا يحيد عنه: من اليسار إلى اليمين ومن الأسفل إلى الأعلى. ويحلق على الدوام وفقَ الترتيب نفسه:

الخدّ الأيمن فالأيسر، ثمّ الذقن، والشفة السفلى فالعليا، ثمّ الرقبة. ولمّا كان فيرّي، الراضخ لهذا الترتيب الثابت، يتساءل، في قرارة نفسه، كلّ صباح، كيفَ السبيل إلى الانعتاق من هذا الطقسِ المتكرّر، غدا السؤال نفسه جزءًا من الطقسِ إيّاه. ومن دون أن يعثر على حلّ للمشكلة، كان يغادر في تمام التاسعة من كلّ صباح قاصدًا مُحْتَرَفَه.

ما يسمّيه مُحْتَرَفًا لم يعد محترفًا. كان كذلك، على نحوٍ ما، عندما كان فيرّي يزعم أنّه رسّام ويظنّ أنّه نحّات، غير أنّه ليس سوى خلفيّة دكّان ملحقةٍ بصالة العرض خاصّته، قد يستَخدمُها كشقّةٍ صغيرة للسكن منذ أن انتقل إلى العمل في تجارة فنّ الآخرين. تقع صالة العرض في الطبقة الأولى من بناءٍ صغير في الدائرة الحادية عشرة، في شارعٍ ليس فيه ما يؤهّله لأن يشتمل على صالة عرض للأعمال الفنّيّة: شريان تجاريّ مزدحم، يغلب عليه الطابع الشعبيّ بعكسِ ما توحي به الناحية بالإجمال. قُبالة الصالة بالضبط أقيمت ورشة بناء ما زالت في بدايات أعمالها: إذ يجري في الأثناء حفرُ أساساتٍ عميقة. يصل فيرّي ويعدّ لنفسه قهوة، يبتلع قرصي أفيراغلان، ويقلّب بريده الذي يرمي أغلبَه، ويدقّق هنا وهناك بأوراقٍ مبعثرة في كلّ مكان ويتريّث حتّى العاشرة مُكافحًا ببسالة للامتناع عن تدخين سيجارة أولى. ثمّ يفتح أبواب الصالة ويجري عددًا من الاتصالات الهاتفيّة. نحو الثانية عشرة وعشر دقائق ظهرًا، يبحث، بواسطة الهاتف أيضًا، عن شخصٍ ما يتناول طعام الغداء معه: ودائمًا يوفّقُ في مسعاه.

منذ الساعة الثالثة ولبقية فترة ما بعد الظهر، كان فيرّي

يواظب على الدوام في الصالة حتّى السابعة والنصف مساءً حيث يتصل بسوزان ليقول لها، مستخدمًا العبارات نفسها في كلّ مرّة، لا تنتظريني على العشاء إذا كنت جائعة. كانت دائمًا تنتظره وعند العاشرة والنصف، يكون فيرّي بجانبها على السرير، حيث ينشب شجارٌ زوجيّ بينهما ليلة كلّ ليلتين ثمّ تُطفأ الأضواء عند الحادية عشرة. طوال خمس سنوات، بلى، جرت الأمور على هذا النحو قبل أن تتغيّر فجأة في ٣ كانون الثاني المنصرم. ومع ذلك لم يطاول التغيير كلّ الأمور في حياته: إذ ينبغي له الإقرار مثلاً، ولو ببعض الخيبة، أنّه في حجرة الاستحمام الضيّقة في شقّة لورانس، سيواصل فيرّي اغتساله من اليسار إلى اليمين ومن أسفل إلى أعلى. غير أنّه لن يطيل إقامته عندها، وذات يوم سيعود للإقامة في محترفه.

هذا المحترف الذي لا تعرف أرضيّته النظافة مهما وطأتْها المكانس الكهربائيّة، كان أشبه بجحرٍ عازب، أشبه بملاذ فارّ من وجه العدالة، تركة مهجورة فيما الوَرَثَة يتخاصمون. خمس قطع من الأثاث كانت توفّر الحدّ الأدنى من الراحة فيه، بالإضافة إلى خزنة صغيرة كان فيرّي قد نسيَ رموز أقفالها منذ زمن بعيد، وكان المطبخ الذي لا تتجاوز مساحته المتر الواحد بثلاثة أمتار، يحتوي على فرنٍ مُرقّشٍ بالبُقَع، وثلاّجة فارغة إلاّ من بعض الخضار الذابلة، وأرففٍ محمّلة فوق طاقتها بالمعلّبات. ولأنّه قلّما يستخدم الثلاّجة، لم يكن مستغربًا أن يغزو الفريزر لدى فيرّي جبلٌ من الجليد الطبيعي، وعندما يتحوّل الجبل إلى طوف جليدي، كان يعالجه، مرّة كلّ العام، بواسطة مجفّف الشعر الكهربائي وسكين الخبز. أثر الكُلاّس

وملح البارود والجصّ الصديدي كان قد استوطنَ عتمة الحمّام، لكنّ خزانةً هناك ما زالت تحتوي ستّ بِذَلٍ غامقة ومجموعة من القمصان البيض ومجموعة من أربطة العنق. ذلك أنّ فيرّي يتبع قاعدةً لا يحيد عنها ومفادها أنّه خلال وجوده في الصالة ينبغي أن يكون أنيق الهندام وعلى أحسن طرز: زيّ رصين، شبه متقشّف، قد يليق بشخصيّة سياسيّة أو بمدير مصرف.

في ما يقوم مقامَ ردهة الجلوس، لا شيء سوى ملصقين أحدهما لمعرض هايدلبرغ والثاني لمعرض مونبيلييه، ولا ما يذكّر بالأنشطة الفنّيّة التي شهدتها الصالة من قبل. أيضًا، ما عدا كتلتين من الرخام، دميمتين ومحفورتين، جُعلتا منضدةً أو طاولةً صغيرة لجهاز التلفزيون، ما زالتا تحتفظان، في قرارة نفسيهما، بالأشكال التي كان ينبغي أن تخرج ذات يوم من لَدنها إلى العيان. ربّما كانتا تمثّلان جمجمةً، أو نافورة مياه، أو عريًا، لكنّ فيرّي تخلّى عن الأمر قبل اكتماله.

٤

كانت سفينة كاسحة للجليد يبلغ طولها مئة متر وعرضها عشرين مترًا: ثمانية محرّكات قاطرة مُقرنة بقوة ١٣٦٠٠ حصان، وسرعة قصوى تبلغ ٢٠،١٦ عقدة، و١٦،٧ أمتار من مسحوب الماء. كان فيرّي قد أعطي مقصورة خاصّة به: أثاثٌ مثبتٌ بالقواطع، ومأخذُ ماء مزوّد بصنبورٍ ذي دوّاسة، وجهاز فيديو مثبّت على اللّوح الممتدّ من السرير الصغير الذي يتّسع لشخص واحد، ونسخة من الكتاب المقدّس في درج منضدةٍ ملحقة به. بالإضافة إلى مروحة تهوية صغيرة لا يبدو وجودها منسجمًا مع طبيعة المكان خصوصًا أنّ جهاز التدفئة كان يعمل بأقصى طاقته مُشيعًا أجواء قيظ تقارب الثلاثين درجة مئويّة كما هي الحال في كافّة التجهيزات القطبيّة سواء أكانت سفينة أو كابينة جرّار أو مبنى. رتّب فيرّي ملابسه وحاجيّاته داخل الخزانة، واضعًا بمتناول يده، على المنضدة بقرب السرير، مؤلّفًا حول فنّ النحت لدى شعب الإينويت.

كان طاقم السفينة ديغروزييه مؤلّفًا من خمسين رجلاً بالإضافة

إلى ثلاث نساء لاحظ فيرّي وجودهنّ على الفور: شابّة رَبعةٌ نَضرة مولجة بربط القلس والحبال، وقارضة أظافر مولجة بالحسابات، وممرّضة ذات قوام مثالي لممرّضة، مكياج خفيف على وجهها، وشُبهة اسمرار على بشرتها، خفيفة الملابس تحت مئزرها، ومكلّفة أيضًا بالإشراف على المكتبة التي تشمل الكتب وأفلام الڤيديو، وتدعى بريجيت. بما أنّ فيرّي لن يلبث أن يعتاد الذهاب إلى المكتبة لكي يستعير الكتب والأفلام، فلن يطول به الأمر حتّى يكتشف أنّ بريجيت هذه، اعتادت أن تلتقي كلّ مساء عاملِ لاسلكي وتلغراف، عريض الفكّين، أفطس الأنف، وذا شاربين بارزين كمقود درّاجة. لا شيء يؤمّلُ إذًا من هذه الناحية، غير أنّنا سنرى، سوف نرى، فلكلّ أمر أوانه.

في اليوم الأوّل تعرّف فيرّي، في الطبقة العليا من السفينة، على القادة. كان القبطان أشبه بممثّلٍ ومعاونه أشبه بمذيع، غير أنّ أوجه التشبيه تتوقّف عند هذا الحدّ: ذلك أنّ الضبّاط الآخرين، من ذوي الرتب العالية أو المتدنّية، ما كانوا ليشبهوا شيئًا بعينه. وبعد أن تمّ التعارف ولم يبقَ ما يُقال، اضْطُجِبَ فيرّي إلى جوفِ الهيكل الدافئ لكاسحة الجليد، تستدرجه الروائح المنبعثة منه. للوهلة الأولى بدا نظيفًا لا تنبعث منه الروائح، ولكن بعد التشمُّم قليلاً تطالعكَ، على التالي، أطياف روائح الوقود والشّياط والتبغ والقيء والقمامة المرصوصة، ثمّ، بعد إمعان، أثرٌ عائم وغائمٌ لرطوبةٍ غير صحيّة أو عفونة، برازٌ أجاج، ومصارف مياه.

كانت مكبّرات صوت تَدنُّ بتعليماتٍ، أشخاص ينصرفون

إلى اللهو خلف أبواب مفتوحة. وفي الممرّات كان فيرّي يصادفُ، من دون أن يخاطبهم، أفراد الطاقم، من مضيفين وميكانيكيين غير معتادين على رؤية أحدٍ من غير العاملين في ذلك المكان، ومنهمكين، بأيّة حال، بأداء وظائفهم: فإلى كونهم مولجين بعمليّات التشغيل، كان معظمهم منهمكًا طيلة النهار في مشاغل واسعة الأرجاء لأعمال الميكانيك أو الكهرباء تقع في الطبقة السفلى من الهيكل، ومزدحمة بالآلات والأدوات الضخمة وببعض الأجهزة الدقيقة. لم يتسنّ له التحدّث قليلاً إلاّ إلى ملاّح شابٍ، خجول، مرهفِ الحسّ، مفتول العضلات، لَفَتَه إلى بعض الطيور العابرة. كطائر التُّرْمجان، مثلاً، والعَيْدر الذي من زغبه يُنجَّد لحاف الريش، والقُلمار وطائر النَّوء، وأحسب أنّ ذلك كان كلّ شيءٍ تقريبًا.

كان ذلك كلّ شيء تقريبًا، الوجبات الغنيّة بالشحوم تُقدّم في ساعات محدّدة، ولا نحظى بأكثر من نصف ساعة نقضيها في البار، كلّ مساء، لاحتساء كوب أو كوبين من البيرة. بمضيّ اليوم الأوّل المخصّص للتعارف وفضول الاستكشاف، بدت الأجواء مائلةً إلى بعض الانقشاع منذ صبيحة اليوم التالي الضبابيّة. من كوّة مقصورته شاهد فيرّي «الأرض الجديدة» وهي تعبر أمام ناظريه لجهة اليمين قبل أن تبحر السفينة بمحاذاة سواحل اللابرادور وصولاً إلى خليج دايفس ثمّ مضيق هدسون، من دون أن يُسمع هدير المحرّكات ولو لمرّة واحدة.

مكتنفًا أجْرُفَ عاليةً بلون الصلصال الضارب إلى البنفسجي، كان الهواء الراكد مجمّدًا، أي ثقيلاً، رازحًا بثقلِه على بحرٍ

راكدٍ، هو أيضًا، ضاربٍ إلى الرمادي الباهت أشبه بالرمليّ: لا أثر لهبوب، لا أثر لمركب، وعمّا قليل لن يعود هناك أثر لطير يحيي هذا الركود بحركة، لا أثرَ لصوت. مقفرةً، مكسوّةً، هنا وهناك، بالطحلبِ والحزاز كخدودٍ لم تُحلَق جيّدًا، كانت الشطوطُ تنحدر عموديًّا صوبَ المياه. وخلَل الضباب الكثيف كانت تلوحُ، بما يشبه التخمين لا الرؤية، منحدرات جبال الجليد هابطةً، من أعلى القمم، بسرعتها التي لا تدركها العين المجرّدة. لبثَ السكون مطبقًا حتّى بلغنا طوف الجليد.

لمّا كان الجليد رقيقًا في البداية، راحت السفينة تشقّ طريقها قُدُمًا عبرَه. ولكن سرعان ما ازداد سمكه فاستحال أن تتابع طريقها على هذا النحو: وإذ ذاك شرعت بالاصطدام به لتسحقه بكامل ثقلها: وهكذا انفلق الجليد متصدّعًا من كلّ جهة على مدى الأنظار. كان فيرّي الذي لاذ بجوفِ السفينة، متحصّنًا من الصدمة بستّين مليمترًا من المعدن، يصغي عن كثب إلى الجلبة الهائلة التي نجمت عن المناورة: شريط صوتيّ لِقَاعٍ مسكون بأصداء انجراف، وأزيز وزمجرة، وتردّدات جهيرة وشَتّى أنواع الصرير. لكن ما أن يُعاود الصعود إلى الطبقة العليا لن يسمع إلاّ صدى طقطقةٍ خفيفة متصلة، أشبه بنسيج يتمزّق من دون مقاومة فوق غوّاصات نوويّة كامنة، ساكنة، جاثمةً بِدَعةٍ عندَ القاع، وبداخلها يغشّ الملاّحون بلعبِ الورق في انتظار الأوامر المضادّة التي لن تصلهم.

كانت السفينة تتابع إبحارها، الأيّام تنقضي. لم نصادفَ أحدًا، اللهمّ إلاّ مرّةً، كاسحةَ جليد أخرى من الطراز نفسه.

توقفنا لساعة على مقربة منها، ثمّ تابعنا إبحارنا بعد أن تبادل القباطنة الخرائط والجداول، لا أكثر ولا أقلّ. إنّها مناطق ملاحيّة لا يجوبها أحد وإن كان عدد لا بأس به من البلدان يزعم أنّها تابعة له: اسكندينافيا تزعم أنّها تابعة لأراضيها لأنّ منها قَدِمَ المستكشفون الأوائل لهذه الأصقاع، وكذلك روسيا بحجّة أنّها ليست بعيدة، وكندا لأنّها قريبة منها، والولايات المتحدة لأنّها الولايات المتحدة. لمرّتين أو ثلاث تراءت قرى مهجورة على ضفاف اللابرادور، كانت الحكومة المركزيّة قد شيّدتها ليقيم فيها السكّان الأصليّون وجهّزتها على أكمل وجه من المولّد المركزي للكهرباء إلى مبنى الكنيسة. غير أنّها لم تكن مكيّفة لتلبية احتياجات السكان الأصليين فعمد هؤلاء إلى تخريبها قبل هجرها والمضيّ إلى حيث ينتحرون. بجانب المساكن المهدّمة الجدران، كانت تلوحُ، هنا وهناك، بقايا هياكل الفقمة المتيبّسة، متدلّية من أنشوطات عالية، كأنّها تذكارات للمخزون الغذائي الذي كان يُحفظ بهذه الطريقة من غزواتِ الدب الأبيض.

كان الأمر مثيرًا للاهتمام؛ كان خلاءً شاسعًا، ولكن بمضيّ أيّام بات مملاً بعض الشيء. في تلك الفترة بدأ فيرّي يكثر من ارتياده المكتبة، مستعيرًا منها مؤلّفات كلاسيكيّة عن رحلات الاستكشاف القطبيّة غريلي، نانسن، بارنتز، نوردنسكيولد ــ وأفلام ڤيديو من كافّة الأنواع ــ Rio Bravo، Kiss me deadly، طبعًا، ولكن أيضًا «عاملات الصندوق الشاذّات» أو «المتدرّبة النهمة». ولم يستعر هذين الفيلمين الأخيرين إلاّ بعد تثبّته من وجود علاقة بين بريجيت وعامل التلغراف: إذ بعد أن فقد الأمل

في ارتباطه بعلاقة مع الممرّضة، لم يعد حريصًا على تجميل صورته في عينيها. ولكن تبيّن أن هواجسه تلك لم تكن مبرّرة: فقد كانت الممرّضة تعمد، في كلّ مرّة، إلى تسجيل عناوين الأفلام بابتسامة لا تفارق شفتيها، وبتغافل أمومي، سيّان عندها إذا كان عنوان الفيلم «فرسان القيامة الأربعة» أو «املأ فُروجَنا». كانت ابتسامتها صافية ومُطمئِنة بحيث أنّ فيري سيكفّ عمّا قريب عن التظاهر بأمراضٍ يسهل التظاهر بها ـ كالصداع، وتيبّس الأطراف ـ طلبًا للرعاية ـ ضمّادات، وتدليك وما شابه. أوّل الأمر، جرت الأمور على أحسن ما يرام.

٥

ما لم يكن على خير ما يُرام، قبل ستّة أشهر، هي أحوال الصالة وأعمالها. ذلك أنّ السوق الفنّية، في الفترة التي أتحدّث عنها، لم تكن مزدهرة، كما أنّ آخر تخطيطٍ لقلبِ فيرّي، إذا جاز القول، لم يكن ممتازًا هو أيضًا. إذ سبق له أن عانى من بعض المشكلات الصحيّة، كما أصيب بنوبة قلبيّة اقتصرت عواقبها على اضطراره إلى الإقلاع عن التدخين، وهو الأمر الذي أصرّ عليه الطبيب المختصّ فلدمان. وإذا كانت حياته المُتَخَلِّلة بسجائر المارلبورو، حتّى ذلك الحين، أشبه بتسلّقِ حبلٍ ذي عقَدٍ، فإنّها أصبحت، بعد إقلاعه عن التدخين، أشبه بتسلّقٍ متواصلٍ للحبلِ نفسِه من دون عُقَد.

خلال الأعوام القليلة المنصرمة كان فيرّي قد أقام صلات مع عددٍ من الفنّانين الذين ثابر على زيارتهم، وعلى بذلِ النصحِ لهم على الأرجح، وعلى إزعاجهم في الأغلب. نظرًا لتجربته السابقة لم يقم صلاتٍ بنحّاتين بل اقتصر الأمر على الرسّامين، أمثال بوكلي وسبونتيني وغورديل، وخاصّة مارتينوف الذي

يسطع نجمه هذه الآونة ولا يستخدم إلاّ إيقاعات اللون الأصفر، بالإضافة إلى بعض الفنّانين التشكيليين الآخرين. أمثال إليزيو شوارتز، المختصّ بدرجات الحرارة القصوى، الذي كان يصمِّم أكياراً بحلقةٍ مقفلة (لِمَ لا تضيف صمّامات، كان فيرّي يقترح، صمّامًا أو اثنين؟)، ثمّ شارل أستيريلاّ الذي كان يجهّز، هنا وهناك، تلالاً من سكّر النبات والطَلْق (ألا يحتاج الأمر إلى بعض التلوين، كان فيرّي يسأل من دون إلحاح، أليس بلى؟)، وماري نيكول غيمار التي كانت تلجأ إلى تكبير لسعاتِ الحشراتِ (ألا تجدين أنّ استخدام الأساريع قد يؤدّي إلى النتيجة نفسها كان فيرّي يقول مُطلقًا العنان لخياله، أو حتّى الثعابين؟)، ورايبوتيك فراكناتز الذي كان عمله مقتصرًا على النوم (خفّف قليلاً من المنوّمات وإلاّ، كان فيرّي يقول معبّرًا عن قلقه). ولكن، أوّلاً، لم يعد الطلب كبيرًا على مثل هذه الأعمال، في هذه الآونة، وثانيًا، عمد الفنّانون هؤلاء، وخاصّة رايبوتيك فراكناتز الذي استيقظ ذات يوم مجفلاً، إلى إفهامِ فيرّي بأن زياراته لم تعد مُستحبّة.

بأيّة حال، كان سوق هذه الأعمال في حال ركود. وانتهى عهد رنين الهواتف المتواصل، وزحمة الفاكسات الواردة بطلبيّات، لمّا كانت صالات العالم بأسره تسعى وراء فنّانين جددٍ، ووجهات نظر فنّانين، وسير ذاتيّة وصور لفنّانين، وكتيّبات ومشاريع معارض لفنّانين. لقد شهد هذا الحقل بضع سنوات من الحمّى الحقيقيّة حيث لم يكن الاهتمام بهؤلاء الفنّانين جميعًا ليشكّل عقبة، ولا تدبير منح لهم للذهاب إلى برلين، أو إلى معاهد فلوريدا أو تدبّر مناصب تعليميّة لهم في

معاهد الفنون في ستراسبور أو نانسي. لكنّ هذا كلّه صار موضة باطلة، ونضبَ معين تمويله.

نظرًا لعجزه عن إقناع جامعي الأعمال الفنّيّة والتحف باقتناء هذه الأعمال، ولما تبيّنه من طلبٍ متزايد على الفنون الإتنيّة، عَمَد فيرّي، في آخر الأمر، إلى تغيير حقل نشاطه منذ بعض الوقت. وإذ تخلّى، منْ دون تردّد، عن فنّانيه التشكيليين، حريصًا، مع ذلك، على استمرار اهتمامه برسّاميه، وخاصّة غورديل ومارتينوف ــ وأعمال الأخير في ذروة ازدهارها، فيما أعمال الأوّل في عزّ أفولها ــ غير أنّه كان عازمًا، من الآن فصاعدًا، على حصر جهوده في إطار الإنجازات الفنّيّة الأكثر تقليديّة. فنّ بانبارا، فنّ بانتو، الفنّ الهندي الخاصّ بالسهوب وأمور أخرى من هذا القبيل. ولكي يحظى بالاستشارة الخبيرة في هذا المجال الاستثماري، استعان بخدمات مخبرٍ يُشهَد له بالكفاءة، يدعى دولاهاي، كان يواظب أيضًا على الدوام في الصالة ثلاثة أيّام في الأسبوع، لفترات ما بعد الظهر.

على الرّغم من كفاءات دولاهاي المهنيّة، فإنّ مظهره لم يكن يسعفه كثيرًا. ذلك أنّ دولاهاي رجل الانحناءات جميعها. ظهرٌ منحنٍ، وجه هزيل وشاربان أشعثان غير متوازيين يحجبان، على تنافر، شفته العليا بأكملها حتّى تندسّ شُعيرات منهما في فمه، بينما تندسّ شعيراتٌ أخرى، مشعّثة في الاتجاه الآخر، في منخريه: كانا مفرطين في طولهما، كأنّهما مزيّفان، من شعرٍ مستعار. كانت إيماءات دولاهاي مائجةً، مكوّرةً، ومشيته متعرّجة كما أفكاره، حتّى نظّارته لم تكن عُوَيْنَتاها متوازيتين

بسبب اعوجاج ساعديها؛ بالاختصار لم يكن في مظهره تفصيلٌ مستقيم. وكان فيرّي غالبًا ما يقول له حانقًا، قف مستقيمًا بعض الشيء يا دولاهاي. غير أنّ الآخر لا يستجيب، فلا بأس.

خلال الأشهر الأولى التي أعقبت رحيله عن مقصورة إيسي، كان فيرّي قد أفاد كثيرًا من نمط حياته الجديد. كان مبيته كلّ ليلة، أوّل الأمر، في بيت لورانس، القائم في شارع دولاركاد حيث يمتلك منشفة وكوبًا ونصفَ خزانة. ثمّ ساءت الأمور تدريجًا: إذ لم يعد مبيته عندها إلاّ ليلة كلّ ليلتين، ثمّ ليلة كلّ ثلاث، ثمّ كلّ أربع، مؤثرًا قضاء لياليه في الصالة، وحيدًا في البداية، ثمّ مصحوبًا بين الفينة والفينة، إلى أن جاء اليوم الذي خاطبته فيه لورانس قائلةً: اذهب الآن، هيّا اغرب عن وجهي، خذ حاجياتك واغرب.

حسنًا، سأفعل، قال فيرّي (ثمّ إنّني في الحقيقة لا أبالي). ولكن على أثر ليلةٍ باردة قضاها وحيدًا في الحجرة الملحقة بالصالة، ها هو منذ الصباح الباكر يدفع باب أقرب وكيل عقاري. فلن يحتمل بعد اليوم قضاء لياليه في ذلك المحترف الحقير. يقترح عليه الوكيل شقّة مختلفة جدًّا في شارع أمستردام. إنّها نموذج الهندسة الهاوسمانيّة، يوضح الوكيل قائلاً: نقوشٌ على السقف، وأرضيّة ذات أشكال شاريّة، حجرة معيشة رحبة، وبهو فسيح؛ مرايا عالية مثبتة على حوافّ من الرخام، أروقة فسيحة، وغرفة للخدمة وبدل ثلاثة أشهر تأمين. حسنًا، قال فيرّي (سأستأجرها).

ينتقل إليها، ولا يستغرق شراء بعض الأثاث وصيانة الأدوات

الصحّيّة والإمدادات أكثر من أسبوع. وإذ يشعر ذات مساء بأنّه حظي أخيرًا ببيت له مستلقيًا على إحدى كنباته التي ما زالت قيد التدشين، حاملاً كأسه بيده، رامقًا بعينين شاردتين شاشة التلفزيون، يُقرع الباب وإذا بدولاهاي يزوره على نحوٍ مباغت. لن أطيل البقاء، يقول دولاهاي، إنّما أردت أن أطلعك على أمر ما، أرجو ألاّ أكون قد أزعجتك! قامة دولاهاي وحجمه الضئيلان لا يتيحان له، مبدئيًا، حجبَ شيء ما أو شخصٍ ما وراءه، ومع ذلك يبدو، هذه المرّة، أنّ شخصًا ما يقف وراءه في عتمة المدخل. يحاول فيرّي أن يتبيّن حقيقة الأمر واقفًا، بخفّة، على رؤوس أصابع قدميه. أجل، يقول دولاهاي ملتفتًا إلى الوراء، أرجو المعذرة. جئتُ برفقة صديقة، إنّها خجولة بعض الشيء. هل تأذن لنا بالدخول؟

لا يخفى على أحد، بالتأكيد، أنّ ثمّة من بين الناس من يمتلك مظهرًا نباتيًا، ثمّة من بين الناس من يوحي مظهره بأوراق الشجر، أو بالشجر، أو بالزهور: عبّاد الشمس، أسَلٌ، بأوباب. أمّا دولاهاي بهندامه البائس على الدوام فيذكّر بتلك النباتات المُغْفَلَة والمكفهرّة التي تنبت في المدن بين بلاطات أرضيّة خَرِبة لمستودعٍ مهجور، أو طيّ صَدعٍ في واجهة مبنى متداعٍ. سقيمة، واهنةً، حَيِيةٌ ولكن عنيدة، تعلم أنّها لن تحظى إلاّ بدَورٍ مقتضبٍ في الحياة، لكنّها تبرع في تأديته.

إذا كانت بنية دولاهاي الجسمانيّة وسلوكه ونُطقه المبهم تذكّر، على هذا النحو، بالنبتة البرّيّة الشَموس، فإنّ الصديقة التي ترافقه تنتمي إلى رتبةٍ نباتيّة أخرى. إنّها تُدعى ڤيكتوار، وهي، وإن

بدت نبتةً جميلةً ساكنةً للوهلة الأولى، برّيّة أكثر منها للزينة أو للزخرفة، داتورة أكثر منها ميموزا، شائكة أكثر منها متفتّحة، أي، بالاختصار، ذات مظهرٍ لا يدعو إلى الارتياح. وبأيّة حال، سرعان ما أدرك فيرّي أنّه لن يغفل عنها لحظة واحدة: طبعًا، قال، ادخلا. ثمّ مُستَمعًا بأذنين ساهيتين إلى حديث دولاهاي المشوّش، سيبذل المُستطاعَ، خلسةً، لكي يثير اهتمامها ويلفت نظرها إليه. بدا للوهلة الأولى أنّ جهوده لم تُثمر، وأنّ سعيَه مستحيل، ولكن مَنْ يدري! ومع ذلك فإنّ ما يرويه دولاهاي، في هذه اللّيلة، من شأنه أن يستأثر باهتمام السامعين لو أتيح له أن يُروى بأسلوبٍ أفضل.

في الحادي عشر من أيلول عام ١٩٥٧، يقول ساردًا، في أقصى شمال كندا، جنحت سفينة تجاريّة صغيرة تدعى «ناشيليك» عند ساحل مقاطعة ماكنزي، في موضع ما زال إلى اليوم غير محدّد بالضبط. فبينما كانت تبحر بين كَمبريدج باي وتوكتوياكتوك، احتجزت الناشيليك وسط طوف جليدي وعلى متنها حمولة من فراء الثعالب والدببة والفقمات، بالإضافة إلى حمولةٍ من التحف المحليّة يُقالُ إنّها نادرة. إذ جنحت بعد اصطدامها بحشفةٍ لم تلبث السفينة أن حشرت بين كتل الجليد. سارع أفراد طاقمها إلى هجر السفينة المحتجزة مبتعدين سيرًا على الأقدام حتّى بلغوا، بعد أن تجمّدت أطرافهم، أقرب قاعدة حيث بُترت أطراف بعضهم إنقاذًا لحياته. خلال الأسابيع التالية، وبرغم حمولتها الثمينة، لم تجرؤ شركة خليج هدسون، نظرًا لوعورة المنطقة وعزلتها، على بذل أيّ محاولة لإنقاذ السفينة المنكوبة.

أطلعهم دولاهاي على الوقائع التي كان قد تبلّغها للتوّ. حتّى أنّه سمع تلميحات إلى أنّ العثور على معلومات أكثر دقّة حول موقع جنوح الناشيليك أمرٌ ممكن إذا أجريت أبحاث جادّة بهذا الشأن. يبقى أنّ كلّ ما سبق غير محقّق، ولكن إذا اتّضحت بعض الأمور، فمن شأن هذه العمليّة أن تكون مجزية. الواقع أنّ الخطوات التي يتطلّبها اكتشاف أثر فنّي أو تحفة لا تتعدّى الأربع أو الخمس. وغالبًا ما يكتشف الأثر أحد المحليين البائسين؛ ثمّ يأتي دور زعيم المحلّة الذي يشرف على هذا الضربِ من التجارة في القطاع بأكمله؛ بعد ذلك يأتي دور الوسيط المتخصّص بهذا النوع من الآثار أو التحف؛ وأخيرًا يتكفّل صاحب صالة العرض وجامع التحف بالحلقتين الأخيرتين من السلسلة. ممّا لا شكّ فيه أنّ هذا الوسط الضيّق يزداد ثراءً على ثراء، باعتبار أنّ الأثر تزداد قيمته أضعافًا في كلّ حلقة من الحلقات المذكورة. غير أنّ الأمر يختلف تمامًا في حالة الناشيليك؛ فإذا تبيّن أنّ ثمّة طريقة ممكنة للتصرّف على هذا الصعيد، فقد يكون من الأفضل تجنّب هؤلاء الوسطاء جميعًا والانتقال مباشرة إلى الموقع المعني: وبذلك يُقتَصَدُ الكثير من الوقت والمال.

بيد أنّ فيرّي، والحقّ يُقال، لم يصغ جيّدًا هذه اللّيلة إلى حديث دولاهاي لانشغاله بڤيكتوار، تلك، التي لم يكن ليتخيّل أنّها قد تأتي لتشاركه مسكنه في غضون أسبوع. حتّى لو جاء من ينبئه بذلك لشعر حتمًا بالغبطة وإن خالطت غبطته مشاعر القلق بالتأكيد. والحقيقة أنّه لو جاء أيضًا من ينبئه بأنّ كلاً من الأشخاص الثلاثة المجتمعين هذا المساء في شقّته، سيختفي على طريقته، قبل نهاية الشهر، وهو من بينهم، لانتابه قلقٌ يفوق معتادَ القلقِ في روعه.

٦

عند اجتياز الدائرة القطبيّة يُحتَفَلُ عادةً بعبور هذا الخط. كان فيرّي قد أُخطِرَ بالأمر تلميحًا وبنبرةٍ مداعبة، متوعّدةٍ على نحوٍ ما، ومشوبةٍ بما يشبه الحتميّة الشعائريّة. ومع ذلك تغافل عن الخطر الماثل ظنًّا منه بأنّ هذه الشَعيرة تقتصر على خطّ المدار أو خطّ الاستواء. الحقيقة، لا: إذ يُحتَفَلُ بمثل هذه الأمور في بلاد الصقيع أيضًا.

في ذلك الصباح، دلف إلى مقصورته ثلاثة بحّارة متنكّرين في زيّ سقوباتٍ، صائحين، وعصبوا عينيه، ثمّ اقتادوه مهرولين عبر متاهةٍ من الممرّات حتّى بلغوا قاعة الرياضة المكسوّة بالأسود للمناسبة. وهناك نزعوا عصابة عينيه: على منصّة في وسط القاعة جلس نبتون بحضور القبطان وبعض الضبّاط من رتب أدنى. تاج، وثوب روماني فضفاض، وشوكة ثلاثيّة. ومنتعلاً مِسباحَيْ الغطّاسِين، كان نبتون، الذي شَخَّصَه كبيرُ المضيفين، مصحوبًا بقارضة الأظافر في دور أمفيتريت. جاثلاً بنظره، أمر إلهُ المياهِ فيرّي بأن ينحني، وبأن يردّد من بَعدِه

ترهاتٍ شتّى، وأن يكيلَ أرضيّة القاعة بعُشري المتر، وأن يلتقط بأسنانه علاّقة مفاتيح من قعر حوضٍ ملآن بربٍّ الطماطم، وبعضِ المعاكسات البريئة الأخرى. فيما كان فيرّي ينفّذ ما يُطلب منه بدا له أنّ نبتون يكيل الشتائمَ، خلسةً، لأمفيتريت. وعلى الأثر ألقى الربّان خطبةً قصيرة وسلّم فيرّي شهادةَ التبريز.

بعد الحفلِ واجتياز الدائرة القطبيّة، بدأت تلوح أمام أعيننا بعض جبال الجليد. ولكن، فقط من بعيد: السفن تؤثر عادةً اجتناب جبال الجليد. متفرّقةً جانحةً أحيانًا، ومجتمعةً في أحيان أخرى، ثابتة في مكانها، كأنها أسطولٌ كبيرٌ راسٍ، كان بعضها أملس لامعًا، كتلة من الجليد الناصع، وبعضها الآخر متّسخًا، مسوّدًا، أو مصفرًّا بفعل الجُرافة. كانت أشكالها ترتسمُ بهيئة حيوانات أو أجسام هندسيّة، أمّا حجمها فيتراوح بين اتّساع ساحة ڤاندوم أو ساحة شان ــ دو ــ مارس. ومع ذلك كانت تبدو أشدّ خفرًا، وأكثر ابتذالاً من مثيلاتها القطبيّة الجنوبيّة التي تتنقلُ بأناةٍ في كتلٍ مسطّحةٍ ضخمة. كما أنّها كانت أشدّ وعورة، غير متوازية الأسطح، مُرتضّة، كأنّها تقلّبت مرارًا وتكرارًا في نومٍ مؤرّق.

آناء اللّيل، عندما يشعر فيرّي بالأرق، كان ينهض من فراشه قاصدًا سطحَ السفينة للعبَثِ قليلاً بصحبة ملاّحي المناوبة. فسيحٌ ومقفر، كردهةٍ للخطواتِ الضالّة يكونُ، عند الفجر، سطح السفينة المزجّجة من الجنبات كافّة. تحت إشراف ضابطٍ يُغالبُه النعاسُ، كان ملاّحان يتناوبان كلّ أربع ساعات أمام منصّة القيادة، وأجهزة السبر والرادار، وعينهما على مؤشّر

الاتجاهات. كان فيرّي ينتحي ركنًا، جالسًا على الموكيت السميكة. يستغرق في تأمّل المنظر المضاء بكشّافاتٍ مبهرة وإن كان ليس في المنظرِ ما يستحقّ التأمّل، حقًّا، إذ لا شيء سوى امتداد لا ينتهي من الأبيض المكتنَف بالعتمة، لا شيء يُذكَر حتّى يضيق به أحيانًا. لكي يلهي نفسه، كان يدقّق في الخرائط المفرودة على الطاولات، ويلهو بجهاز اللاسلكي والنشرات الجويّة. وإذ درّبه ملاحو المناوبة على استخدام جهاز الاستقبال اللاسلكي، راح يعبث به مبدّلاً محطّات بثّه: كلّ هذا كان متاحًا له في غضون ربع ساعة، فلا يدري ماذا يفعل في أرباع الساعات المتبقية.

لم يشهد سوى حدث واحد، وكان ذلك عندما توقّفت السفينة، لأسباب تقنيّة، وسط الطوف الجليدي. لمّا أُنزلَ سلّمٌ سرعان ما كوّنَ الجليدُ على قضبانه أشكالاً مصغّرة لتضاريس جبليّة، نزل فيرّي ليقوم بجولةٍ في الأرجاء. سكونٌ، دائمًا السكون إيّاه، لا صوتَ إلاّ خفق خطواته المكتوم فوق الثلج، ونشيج الهواء، ولمرّةٍ أو مرّتين على الأكثر صياح طير الغاق. إذ ابتعد قليلاً على الرّغم من كلّ التحذيرات، شاهدَ فيرّي عائلة من أفيال البحر راقدةً، وقد تلاصق أفرادها فوق قطعة جليد عائمة. كانت مؤلّفة، إلى عددٍ من الإناث، من ذكورٍ قانعين بأحاديّة الزواج، متقدّمين في السنّ، صُلع، مسبلي الشوارب، وقد أثخنت أبدانَهم جراح التقاتل. بين الفَينة والفينة تفتح أنثى عينًا متكاسلة مُتَرَوِّحةً بأطراف زعانفها قبل أن تعود إلى سباتها. عاد فيرّي إلى متن السفينة.

ثمّ عادت الأمور إلى مجراها السابق، متشابهةً، متصلةً، لا تنتهي. ومع ذلك كانت هناك وسيلة لمكافحة السأم: تقطيع الوقت كما تقطّع إصبع النقانق. تقسيمها إلى أيّام (ي ناقص ٧؛ ي ناقص ٦؛ ي ناقص ٥ قبل الوصول) ولكن أيضًا تقسيمها إلى ساعات (أشعر بشيء من الجوع: س ناقص ٢ قبل وجبة الغداء) وإلى دقائق (احتسيت قهوتي: عادة ما يكون ذلك عند ق ناقص ٧ أو ٨ قبل أن أدخل المرحاض) وحتّى إلى ثوانٍ (أدور دورةً كاملة حول سطح المركب: م ناقص ٣٠ تقريبًا؛ وبين لحظة اتخاذ القرار حول القيام بهذه الدورة واللحظة التي أفكّر فيها بعد فراغي منها، أقتصد دقيقة). بالاختصار، يكفي، كما بين جدران سجن، أن تعدّ، أن تجعل من وقت كلّ شيء كمًّا محسوبًا ــ وجبات الطعام، مشاهدة أفلام الڤيديو، حلّ الكلمات المتقاطعة أو قراءة كتب الشرائط المصوّرة ــ لقتلِ السأمِ في بذرته. وإن كان بمقدورك أيضًا ألاّ تفعل شيئًا، كأن تقضي ساعات الصباح وأنت تقرأ، مستلقيًا على فراشك، مرتديًا التيشرت وسروالك الداخلي الذي كنت ترتديه أمسِ، مؤجّلاً إلى وقتٍ لاحق اغتسالك وارتداء ملابسك. ولمّا كان الطوف الجليدي يعكس عبر الكوّة بياضًا باهرًا ونفّاذًا يتنشر في أرجاء الكابينة كلّها، فلا يبقي على ظلٍّ بما يشبه أثر المصباح الكتوم، تعمد إلى تغطية الكوّة بفوطة حمّامٍ وتنتظر.

مع ذلك يبقى هناك بعض التسالي: التفتيش الدوري على الكابينات من قبل المولج بأمور السلامة العامة، التمرّس بتمارين الإخلاء وارتداء بذلة النجاة العائمة والحراريّة في زمن قياسي. كما يمكنك، مثلما يحدث كلّما سنحت لك الفرصة،

أن تقوم بزيارة للممرّضة بريجيت، والتجرّؤ، أحيانًا، على التودّد إليها عندما يكون عامل التلغراف مناوبًا، بوسعكَ أن تمتدح مهاراتها، وطلعتها البهيّة، ولون بشرتها البرونزي الذي لا يتناسب مع مناخ هذا المقلب من العالم. فتعلم إذ ذاك أنّ ميثاقًا عامًّا قد نصّ في أحد بنوده الملزمة على أنّ الإناث من أفراد الطاقم العامل في مناطق محرومة من الشمس، لهنّ الحقّ، تجنّبًا لأعراض الانهيار العصبي أو ما هو أسوأ من ذلك، في تعريض أجسامهنّ للأشعّة ما فوق البنفسجيّة لأربع ساعات في الأسبوع.

باقي الأوقات يوم أحد، أحد متواصل يقيم سكونه المخمليّ مسافةً ما بين الأصوات وما بين الأشياء، وحتّى ما بين اللحظات: البياض يقلّص المكان والبرد يجعل الزمن بطيئًا. ثمّة ما يشيع الخدر في الأجواء الفاترة لكاسحة الجليد، فلا تراودك الرغبة في أن تحرّك ساكنًا لتبدّد هذا الخدر؛ فمنذ اجتيازنا الخطّ لم يطأ أحدنا قاعة الرياضة، والحقّ أنّنا لا نفكّر جدّيًا إلاّ في مواقيت الطعام.

٧

حدقةٌ دقيقة على قزحيّة خضراء كهربيّة كعين أجهزة الراديو القديمة، وبسمةٌ باردة، لكنّها بسمةٌ على كلّ حال؛ هكذا انتقلت ڤيكتوار إذًا للإقامة في شارع أمستردام.

لم تحمل معها أمتعةً كثيرة، فقط حقيبة صغيرة الحجم وحقيبة يد وضعتهما عند المدخل، كأنّها تُوْدعها، لساعة من الزمن، في خزانة آليّة في محطّة قطارات. وفي الحمّام لم تضع، إضافةً إلى فرشاة أسنانها، سوى علبة صغيرة كانت تحتوي على بعض اللوازم القابلة للثني وثلاث عيّنات تجاريّة لمساحيق زينة.

كانت تقضي معظم أوقاتها هناك، وهي تقرأ مستلقيةً على الكنبة، أمام التلڤزيون الذي خُفّض صوته. الحاصلُ أنّها كانت قليلة الكلام، أو أنّها لا تنطق، بأيّة حال، إلاّ أقلّ الممكن منه، مجيبةً عن الأسئلة بسؤالٍ آخر. وكانت تبدو متوفّزةً على الدوام، حتّى لو لم يكن هناك ما يدعو إلى ذلك، وإن كان هذا الحذر مولّدًا، في بعض الأحيان، للأفكار العدوانيّة. عندما

يستقبل فيرّي ضيوفًا تتصرّف على الدوام كأنّها ضيفٌ مثلهم، ويتوقّع أن يراها مغادرة معهم، عند منتصف اللّيل، غير أنّها كانت تبقى.. تبقى.

من عواقب سكنى ڤيكتوار في شقّة فيرّي، كان تردّد دولاهاي الدائم لزيارتهما بهندامه ومظهره المهملين. ولمّا عرّج ذات مساء على شارع أمستردام بملابس أسوأ من المعتاد ــ سترة باركا بلا شكل متهدّلة الأذيال فوق سروالٍ للعَدْو أخضر ــ، ارتأى فيرّي أنّ لحظة مغادرته هي الوقت المناسب لمصارحته بالأمر. هكذا أمسك يده لهنيهات عند صحن الدرج قائلاً له أرجو ألاّ تفهم كلامي على محمل السوء يا دولاهاي، وشرح له أنّه من المستحسن أن يكون هندامه أفضل حالاً عندما يأتي إلى الصالة، لأنّ تاجر التحف والآثار الفنيّة ينبغي أن يكون حسن المظهر، فيما دولاهاي يرمقه بنظرات المستهجِنِ الذي لا يفهم مغزى ما يُقال.

لو كنتَ في حالة جامع الآثار الفنّيّة، تابع فيرّي قائلاً بصوتٍ خفيض ضاغطًا مرّة أخرى على زرّ الإنارة الأوتوماتيكي. يأتي جامع اللّوحات الفنّيّة لشراء لوحة منك. تراه حائرًا. وأنت تعلم جيّدًا ماذا يعني بالنسبة له أن يشتري لوحة، وتعلم كم يخشى أن يخسر ماله، يخشى أن يفوّت الفرص السانحة، أن يسبقه أحد على شراء لوحة لڤان غوغ مثلاً، يخشى ردّ فعل زوجته، وأشياء من هذا القبيل. وتبلغ به الخشية مبلغًا لا يعود معه قادرًا على رؤية اللوحة، أليس كذلك؟ في تلك اللحظة لا يرى جامع الآثار الفنّيّة من العالم سوى أنت، التاجر، أنت في مظهر التاجر

وهندامه. لذا فإنّ مظهرك أنتَ هو ما سيلصقه الزبون على اللّوحة، أصغِ إليّ جيّدًا. فإذا كان هندامك بائسًا، سوف يلصق البؤس كلّه باللّوحة. أمّا إذا كان هندامك حسنًا متقنًا فسيحدث العكس، وهذا أمرٌ جيّد لتسويق اللّوحة، وبالتالي، إنّه أمر جيّد للجميع، وخاصّة نحن، لا بدّ أنّك تفهمني جيّدًا.

أجل، قال دولاهاي، أعتقد أنّني فهمت. حسنًا إذًا، قال فيرّي، إلى الغد. هل تعتقدين أنّه فهم؟ سأل فيما بعد غير مؤمّلٍ في الحصول على إجابة، لكنّ ڤيكتوار كانت قد أوت إلى فراشها. بعد أن أطفأ الأضواء واحدًا تلو الآخر، دخلَ فيرّي إلى الغرفة المظلمة، وبعد ظهر اليوم التالي عرّج على الصالة مرتديًا بذلة من المخمل الكستنائي، وقميصًا مزيّحًا أزرق سماويًّا، وربطة عنق من الصوف البنيّ مذهّبة الحواشي. كان دولاهاي قد أبكر في المجيء، وبدا نابت اللحية قليلاً مرتديًا الملابس المدعوكة نفسها كأنّه ينام بها؛ أنظر بربّكَ هذا القميص.

أعتقد أنّنا نحرز تقدمًا بشأن الناشيليك، قال دولاهاي. لماذا؟ سأل فيرّي. السفينة، هناك، قال دولاهاي، أنتَ تعلم جيّدًا، سفينة التحف القديمة. أعتقد أنّني اهتديت إلى مخبرين. آه، بلى، بلى، قال فيرّي ساهيًا وقد شتّت انتباهه جُلجُل باب المدخل. انتبه، قال هامسًا، بالباب أحد ما. إنّه ريباراز.

ريباراز يعرفه الجميع، إنّه زبون دائم. يجني أموالاً طائلة من الأعمال التي يزاولها والتي تُضجره إلى أقصى الحدود، ذلك أنّه من غير المسلّي إطلاقًا، كلّ ساعة وكلّ يوم، أن تكون المحتكر العالمي الوحيد للسمارتكس. والأوقات القليلة التي

توفّر له بعض السلوى هي تلك التي يأتي خلالها لشراء أثرٍ فنّي. كما أنّه يستحسن النصحَ وأن تفسّر له التيّارات الفنيّة السائدة، وأن يُصطحب للتعرف إلى الفنّانين. ذات يوم، وكان يوم أحد، اصطحبه فيرّي معه لزيارة نقّاش في ناحية «بورت دو مونتروي»، فأبدى ريباراز الذي لا يغادر حدود الدائرة السابعة، حيث يقيم، إلاّ لعبور الأطلسي على متن طائرته النفّاثة الخاصّة، حماسةً مفرطة أثناء اجتيازه الدائرة الحادية عشرة. يا لروعة هذه الهندسة، يا لغرابة هؤلاء السكّان، أمر لا يُصدّق حقًّا، لن أتوانى عن المجيء بصحبتك كل يوم أحد. مذهل. لم يذهب نهارك سُدى يا ريباراز. ومع ذلك ينتمي ريباراز إلى طينة الرّجال المتردّدين. فهو، في هذه الآونة، يسعى لاقتناء لوحة أكريليك لمارتينوف مُكلِفة بعض الشيء، فيحور ويدور حولها، مقتربًا منها، مبتعدًا عنها، ثمّ مقتربًا مجدّدًا، وهكذا. انتظر قليلاً، قال فيرّي هامسًا في أذن دولاهاي، وسوف ترى. سأحاول معه أسلوب الاستنكار، إنّه يعشق هذا الأسلوب.

إذًا، قال له مقتربًا من لوحة مارتينوف، هل تعجبك؟ ثمّة شيء فيها، قال ريباراز، هناك شيء فيها حقًّا. أوافقك الرأي، صدّقني. كيف أعبّر لك؟ أرى جيّدًا ما تعنيه، أرى ذلك بوضوح، قال فيرّي. ولكن إنْ أردتَ الصدقَ فأنا أرى، بصراحة، أنّها ليست جيّدة جدًّا، وليست بالتأكيد أفضل لوحات السلسلة (إنّها سلسلة، أليس كذلك)، ثمّ إنّها ليست منجزة كلّيًّا. ناهيك، والكلام في سرّك، عن أنّ أسعار مارتينوف مرتفعة بعض الشيء. أتعتقد حقًّا، قال الآخر، أمّا أنا فأرى أنّ ثمّة ما يحدث فعلاً مع هذا الأصفر. طبعًا، قال فيري راضخًا،

لا بأس، إنّها ليست رديئة، لا أقول إنّها سيّئة. ولكنّها، مع ذلك، لا تستحقّ ثمنها. لو كنتُ في حالتك لألقيت نظرةً على هذه، تابع قائلاً وهو يشير إلى عملٍ فنّي مؤلّف من أربعة مربّعات من الألمنيوم مطلية بالأخضر الفاتح متلاصقة ومنصوبة في ركنٍ عند طرف الصالة. هذا عمل مثير للاهتمام. سوف يزداد سعره مع مرور الوقت، ولكنّه سعر مقبول في الوقت الحاضر. ثمّ لاحظ قليلاً هذا الصفاء الذي يسوده، أليس كذلك؟ بديهي جدًّا. عمل مُشعّ حقًّا.

غير أنّ ما تراه لا يُعتدّ به، قال مالك الشركة. أقصد، لا يرى الناظرُ إلاّ القليل. للوهلة الأولى، قال فيرّي، قد ترى إليه على هذا النحو. ولكنّك على الأقلّ تعود إلى منزلك وترى العملَ معلّقًا على الجدار، فلا تشعرُ بأنّ ثمّةَ ما يباغت عينيك. وهذا أمر ينبغي أن يكون في الحسبان. سأفكّر في الأمر، قال ريباراز مغادرًا، سأعود مرّة ثانية بصحبة زوجتي. حسنًا، قال فيرّي مخاطبًا دولاهاي، سوف ترى. من المؤكّد أنّه سيشتري لوحة مارتينوف. إذ ينبغي أحيانًا أن تغالطهم. ينبغي أن توحي إليهم بأنّهم يفكّرون ويقرّرون بأنفسهم. أنظر، ها قد أقْبَل الآخر.

هو في الثمانية والأربعين، عَنْفَقة تحت شفته السفليّة وسترة مخمل، متبسّمًا ويُدعى غوردِل، حاملاً تحتَ ذراعه إطارًا ملفوفًا بورق ملوّن؛ كان الآخر رسّامًا يحظى برعاية فيرّي منذ عشر سنوات. وقد جاء حاملاً إحدى لوحاته للاطمئنان إلى حسنِ سير الأعمال.

الأعمال تعاني بعض الركود، أجاب فيرّي بنبرة متثاقلة. هل

تذكر بايان الذي اشترى إحدى لوحاتك. لقد أعادها إليّ، لوحتك، ما عاد يريدها، فوجدتني مرغمًا على استردادها. ثمّ هناك أيضًا كوردجيان، إذا كنت تذكر، ذاك الذي كان راغبًا في الشراء. في النهاية قرّر ألاّ يشتري، وبات يفضّل شراء لوحة لفنّان أميركي. ثمّ لديك لوحتان من القياس الكبير كنّا نقلناهما إلى صالة المبيعات، وقد بيعتا بسعرٍ زهيد، ما يعني أنّ الأمور أقلّ من وسط. حسنًا، قال غوردِل الذي بهتت ابتسامته وهو يزيل الورقة التي تغلّف الإطار، لقد جئتكَ بهذه.

ينبغي القول أيضًا إنّك، على نحوٍ ما، تتحمّل بعض المسؤوليّة في ما يجري، أردف فيرّي قائلاً من دون حتّى أن يلتفت إلى اللّوحة الجديدة. لقد أفسدتَ الأمور كلّها بانتقالك من التجريدي إلى التصويريّ، ما اضطرّني إلى تغيير خطّتي بالكامل في تسويق أعمالك. أنت تدرك جيّدًا أنّ الفنّان الذي يغيّر أسلوبه باستمرار لا بدّ أن يواجه مشكلة، إذ يتوقّع الناس منه عملاً ما ثمّ يخيّب ظنّهم. كما تعلم جيّدًا أنّ كل شيء بات مرتبطًا اليوم بالعلامة التجاريّة، وأنا أجد سهولة أكبر في تسويق الأشياء التي لا تتغيّر باستمرار، وإلاّ لكانت كارثة حقًّا. أنت تعلم أنّ عملنا على قدرٍ كبير من الهشاشة. واعذرني إذا كنت أقول هذا كلّه، فأنت أدرى بما يجري. وبأيّة حال لن أتمكّن من الاحتفاظ بهذه التي جئت بها، أفضّل أوّلاً أن أصرّف ما تراكم لديّ.

يلبث صامتًا لهنيهاتٍ ثمّ يُعيد غوردل لفّ الإطار كيفما اتفق، مستأذنًا فيرّي بإيماءة من رأسه قبل أن يغادر. على الرصيف يصادف مارتينوف المُقبل لتوّه. مارتينوف هذا رجل

فتيّ ذو نظرات بريئةً معابثة، فيتبادلان بعض العبارات. هذا الوغد يحاول أن يضعني على الرفّ، يقول غوردِل. لا أعتقد ذلك، يقول مارتينوف مؤاسيًا. إنّه يدرك جيّدًا قيمة أعمالك، ويثق بك. فهو، برغم كلّ شيء، يمتلك حسًّا فنّيًّا. لا، يقول غوردِل قبل أن يبتعد في ضوء النهار الكابي، لم يعد هناكَ من يمتلك حسًّا فنّيًّا حقيقيًّا. الوحيدون الذين امتلكوا بعضًا منه، هم الأحبار والملوك. ومنذ زوال عصور هؤلاء، لم يبقَ أحد.

إذًا التقيتَ غوردِل، قال فيرّي. لقد صادفته للتوّ، قال مارتينوف، لم يبدُ على ما يرام. إنّه منهار تمامًا، قال فيرّي، أحواله سيّئة جدًّا ماليًّا، إذ باتت أعماله أشبه بالنفايات الرمزيّة. أمّا أنتَ فأحوالك، في هذه الآونة، على أحسن ما يرام. لقد عرّج علينا أحدهم ومن المؤكّد أنّه سيشتري لوحتك الصفراء الكبيرة. وسوى ذلك على مَ تعمل الآن؟ أعتقد أنّني سأنجز مجموعتي الأفقيّة، وسأعرض عملين أو ثلاثة منها ضمن معرض جماعي. مهلاً، مهلاً، قال فيرّي، ما الحكاية؟ لا شيء على الإطلاق، قال مارتينوف، إنّه معرض لصالح صندوق الودائع والرهنيّات. ماذا تقول، سأل فيرّي، سوف تشارك في معرض جماعي في صندوق الودائع والرهنيّات؟ وما الضير، قال مارتينوف، فصندوق الودائع والرهنيّات مكان ممتاز. أنا شخصيًا أرى أنّه من السخف أن تعرض أعمالك في صندوق الودائع والرهنيّات. والأسوأ أنّك تعرض ضمن معرض جماعيّ. أنت بذلك تنتقص من قيمة أعمالك ونفسك. لقد حذّرتك. وفي آخر الأمر افعل ما يحلو لك.

كان فيرّي عكِر المزاج إذًا عندما راح يصغي بعد ذلك إلى المعلومات العامّة التي زوّده بها دولاهاي حول الفنّ الشمالي: مدارس إيبيوتاك وتوليه وكوريس وبيرنيك ودنبيغ، والثقافات البالية القديمة التي تعاقبت بين أواسط الألف الثالث والألف الأخير قبل عصرنا الحالي. وعندما يستغرق دولاهاي في عقد المقارنات بين الأدوات والتأثيرات والأساليب، كان انتباه فيرّي يتراخى قليلاً على الضدّ ممّا يبديه من انتباه لدى استغراق الآخر في حديثه بالأرقام: لقد بات مُرجّحًا بالفعل، إذا ثبُتت صحّة الرواية عن التحف العالقة في بلاد الصقيع، أنّها مغامرة تستحقّ كلّ الجهود التي تبذلُ من أجل الحصول عليها. غير أنّها، إلى الآن، لم تثبت صحّتها لعدم توافر معلومات أكثر دقّة. لكنّنا، بأيّة حال، قد أصبحنا في أواخر شهر كانون الثاني، قال دولاهاي مذكّرًا، وحتّى لو توافرت المعلومات المؤكّدة فإنّ الظروف المناخيّة لا تسمح لنا بالانطلاق قبل حلول الربيع، وهو الفصل الذي يطلع فيه النهار في تلك المناطق النائية.

٨

كان النهار سيطلع بالفعل عندما فتح فيرّي عينًا واحدة: كانت الكوّة تعكس مستطيلاً أزرق مكفهرًّا على إحدى جنبات المقصورة. لم يكن يسيرًا عليه، نظرًا لضيقِ السرير، أن ينقلب إلى الجنبة المقابلة، ثمّ، لمّا أتيح له ذلك بمشقّة، لم يبقَ له سوى ثلاثين سنتمترًا من الفراش لكي يستلقي على جنبه، لكن، على الأقلّ، كان الجوّ دافئًا على غير المعتاد من قبل. حاول أن يثبّت وضعته، إذا كان ذلك متاحًا، بحركاتٍ جانبيّة خفيفة من جسمه: لكن عبثًا. ثمّ لمّا حاول أن يوسّع من مجال حركاته تلك لكي يحتلّ المزيد من تلك الزاوية الدافئة، قذفت به دفعة مباغتة إلى الخلف: فتدحرج فيرّي من أعلى سريره إلى الأرضيّة.

وقع بثقلِه على كتفه اليمنى، فشعر بأنّها خُلِعَت وارتعد: إذ زاد من برودة الأرضيّة كون فيرّي عاريًا إلاّ من ساعة يده. عاود النهوض مستعينًا بأطرافه كلّها، وأمعن النظر في السرير وهو يحكّ فروة رأسه.

الحالُ أنّ الأمور اختلفت، على ما يبدو. لقد حدثَ ما لم

يكن مرتقبًا. إذ بقيت بمفردها متأوّهةً فرحًا لاستئثارها بالمطرح أخيرًا، متقلّبةً على سريره قبل أن تعاود غطيطها الرقيق، واصلتِ الممرّضة بريجيت نومها الهانئ. لفحُ الشمس على بشرتها أشدّ وطأة واسمرارًا من المعتاد؛ اسمرارٌ داكن ضاربٌ إلى البرتقالي الباهت. ذلك أنّها كانت قد أفرطت، أمسِ، في تعريض جسمها للأشعّة ما فوق البنفسجيّة. يهزّ فيرّي كتفيه، يرتعد مجدّدًا ويلقي نظرةً إلى ساعته، إنّها السادسة وعشرون دقيقة، قبل أن يرتدي سترة من الصوف.

الحقيقة أنّه لا يشعر بارتياح، بل يساوره القلق. ذلك أنّه خلال المعاينة الأخيرة التي أجراها لدى فلدمان، نبّهه الاختصاصي في أمراض القلب والشرايين، من التعرّض إلى درجاتِ الحرارة القاسية: الحرّ الشديد والبرد الشديد، والتقلّبات الشديدة في درجات الحرارة، فمثل هذه الأمور بالغة الضرر بمرضى القلب. أنتَ لا تراعي حالتك الصحيّة في نمط الحياة الذي تعيشه، قال فلدمان. فالأمر لا يقتصر على الامتناع عن التدخين، بل يتطلّب برنامجًا صحّيًّا كاملاً ينبغي التقيّد به منذ الآن. لذا حرص فيرّي على إغفال أيّ ذكرٍ لرحلته المزمعة إلى القطب الشمالي. واكتفى بالتلميح إلى انتقال لأسباب مهنيّة. حسنًا، ثمّ تعود للمعاينة في غضون ثلاثة أسابيع أو شهر على أبعد تقدير، قال فلدمان، وعندها نجري لك صورة صوتيّة لظاهرة دوبلر، وسأجد لك ما يقنعك بالكفّ عن الحماقات التي ترتكبها. وإذ يتذكّر فيرّي أقوال فلدمان هذه يضع يده تلقائيًّا على قلبه للتثبّت ممّا إذا كان خفقانه سريعًا جدًّا أو بطيئًا جدًّا أو غير منتظم جدًّا، ولكن لا.. يبدو على ما يرام.

تضاءل إحساسه بالبرد الآن، ويبدو نحيلاً في سترته الصوف، وأعضاؤه التناسليّة المنكمشة بالكاد تبدو متدليةً من تحتها. لفرطِ حيرته فيما ينبغي له أن يفعل، يلقي نظرةً عبر الكوّة. لمعان بعيد يوحي بفكرة شمسٍ طالعة لا يعكسه، إلى الآن، سوى طيور الخُطّاف ذات الأجنحة الناصعة في تحليقها الدائري في الأعالي. يحسب فيرّي في كنفِ هذا النور الشحيح أنّ السفينة تبتعدُ إلى الميسرة عن الكتلة المتآكلة لجزيرة ساوثامبتون، الضاربة إلى الرماديّ مثل كومة من الحصى، وأنّها ستسلك الممرّ المائي الذي يفضي إلى «واغر باي»: فيخلع فيرّي سترته ويخلد إلى النوم مجدّدًا.

القولُ أهون من الفعل. فالممرّضة بريجيت ذات القوام المتناسق بروعة تحتلّ المطرحَ كلّه: ولم تبقِ ما يتّسع لذراعٍ واحدة. لا سبيل إلى بلوغ السرير من طريق جانبي. لذا يستجمع شجاعته كلّها لكي يرتمي بطوله على الممرّضة بكلّ ما يتّصف به من لباقة. غير أنّ بريجيت تصدر أنينًا يوحي بتمنّعها. فتتمنّع وتتمطّى حتّى خُيّل لفيرّي، لهنيهاتٍ، أنّ محاولته ستمنى بالفشل، ولكن، لحسن الطالع، لا تلبث الممرّضة أن تسترخي تدريجًا. يتدبّران أمرهما ولا يتدبّرانه إلاّ في حدود الهامش الضيّق المتاح للمناورة، إذ لا يتيح لهما ضيقُ المجال إلاّ ما يتيحه: فلا يستطيع أحدهما إلاّ أن يستلقي فوق الآخر، وإنْ مُداورةً وفي الاتجاهين، الأمر الذي لا يُعتبرُ سيّئًا على الإطلاق. بتمهّل وأناة، فاليوم يوم أحد، ينصرفان إلى فعلتهما بجوارحهما، يتريّثان، ولا يغادران المقصورة قبل العاشرة صباحاً.

كان يوم أحد، يوم أحدٍ بحقّ، يُشتَمُّ ذلك من الأجواء حيث أسرابٌ متفرّقة من طيور الغاق تحلّق متباريةً بالحُسنى على غير عادتها. لدى صعوده إلى سطح السفينة، التقى عددًا من أفراد الطاقم خارجين من المصلّى، ومن بينهم عامل التلغراف الذي يجهد في مداراة غيظه. غير أنّ المسافة لم تعد بعيدة ولن يلبث فيرّي أن يصل إلى غايته، فليس أمام عامل التلغراف هذا سوى بضع ساعات على الأكثر لكي يتخلّص نهائيًّا من هذا الغريم، الذي ما إنْ بلغ مقصده حتّى ودّع الربّان وأفراد الطاقم على سطح السفينة، ثمّ عاد أدراجه إلى مقصورته لكي يحزم حقائبه.

أنزلت كاسحةُ الجليد فيرّي عند «واغر باي» ثمّ تابعت إبحارها على الفور. كان ذلك اليوم مُكْتَنَفًا بضبابٍ شامل، مُتمادٍ، كثيف وخفيض مثل سقف، حاجبًا القمم المحيطة وحتّى أعالي السفينة، ولكن، في الوقت نفسه، مشيعًا في الأرجاء ضياءً ساطعًا. نزل فيرّي إلى اليابسة، وشاهد الديغروزييه وهي تتخلّع في ذلك الضباب، إذ تضمحلّ كتلها لتبرز منها الحواف، ثمّ لا تلبث هذه أن تتلاشى لترتسم زواياها فحسب، قبل أن تتبدّد هذه الأخيرة بدورها.

كان فيرّي يؤثر ألاّ يطيل البقاء في «واغر باي»: إذ لم تكن هذه سوى مجموعة من الأكواخ الجاهزة ذات الجدران الصفيحيّة الصدئة المجهّزة بفجواتٍ هي بمثابة كوى ضيّقة مضاءة بأنوارٍ صمغيّة مغبرة. بين هذه الأكواخ المجتمعة حول سارية عَلَم، طُرقات ضيّقة أشبه بممرّات متعرّجة منتفخة، هنا وهناك، بجليدٍ متّسخ، مسدودة بركامِ الثلوج، وقد انتثرت عند

مُنعطفاتها كُتَلٌ داكنة من المعدن أو الإسمنت ومزقٌ من البلاستيك المتحجّر. علمٌ منشورٌ أفقيًا، كقطعة غسيل مجمّدة، يلوحُ جامدًا في أعلى السارية التي يمتدّ ظلّها الرفيع حتّى علامة مهبطِ الحوّامات.

كان ذلك المهبط الضيّق محاذيًا لمحطّة طيران صغيرة حيث استقلّ فيرّي Saab 340 Cityliner متجهة إلى بورت راديوم، ومجهّزة لستّة ركاب، غير أنّ الراكب الوحيد الذي كان معه على متنها هو مهندس يعمل في قاعدة أوريكا للأرصاد الجوّيّة. بمضيّ خمسين دقيقة وصل فيرّي إلى بورت راديوم التي تشبه واغر باي كتوأم مرذولٍ، حيث التقى دليليه. كان الدليلان رجلين من السكّان المحليين يُدعيان أنغوتريتوك وناباسيكادلاك، مُلتحفين بفروٍ مبطّن، وألياف قطبيّة بمثابة لثام، وتحتهما ملابس داخليّة تنتهي برأسيّة تغطّي العنق والكتفين، وبزّة من قطعة واحدة، مشعّة، وقفّازين مبطّنين بنسيج حراري. كانا متحدِّرين من مقاطعة مجاورة لتوكتوياكتوك، متشابهين من حيث القامة، أميل إلى القصر والبدانة بساقين قصيرتين ويدين رقيقتين، ووجه مخمّس الزوايا، أمرد، وبشرة ضاربة إلى الاصفرار، ووجنتين بارزتين وشعر إبريّ أسود وأسنان ناصعة. بعد أن عرّفا عن نفسيهما، انتقلا على الأثر ليعرّفا فيرّي على الكلاب التي تجرّ مركبات الجليد.

كان رهطًا رابضًا على أرضٍ مسوّرة حولَ طَليع؛ رهط كلابٍ مشعّثة وسخة، ذات فراء ضاربة إلى الاصفرار أو الاصفرار المقمّل، لئيمة الطباع. وإذا كان من غير المستهجن أن تكره

البشرَ فهؤلاء بدورهم لا يضمرون لها المودّة، ولا يداعبونها البتّة، فإنّها لا تبدو متآلفة فيما بينها: إذ لا تنمّ النظراتُ التي تتبادلها إلاّ عن حَسَدٍ وغيرة. وسرعان ما يدرك فيرّي أنّ هذه الكلاب إذا قوبلت فرادى لما صَلُحَ أيٌّ منها لِعِشْرَةِ الإنسان. فإذا نوديَ أحدها باسمه لما التفتَ إلاّ وأغضى على الفور إنْ لم يلمحْ مع النداء طعامًا. وسيّان عنده إذا حُثَّ على العمل فلا يحرّك ساكنًا، مومئًا بنظرةٍ مواربة أنّ الأحرى بالسائل أن يستأذِنَ طَليع الرهط أوّلاً. وإذ ذاك يُبدي الأخيرُ علامات امتعاض، مدركًا علوّ شأنه، فلا يستجيب إلاّ بنظرةٍ، نظرةٍ متبرّمة يلقيها موظّفٌ ذو مكانة وعلى حافّة التوتّر العصبي، نظرةٍ ساهمة تُلقيها سكرتيرته المنصرفة إلى تقليم أظافرها.

انطلقوا في اليوم ذاته، وها هم يتعدون. تزوّدوا ببنادق آليّة طراز Savage 116 FFS صالحة للاستخدام في الظروف المناخيّة المختلفة، ومناظير 15 x 45 IS مجهّزة بمثبّت للصورة، وبخناجر وسياط. خنجر ناباسيكادلاك ذو مقبضٍ من الحالب، وهو عظمٌ في محلّ العضو الذكري لفيل البحر يتميّز باليونة والمتانة والمسامية التي تضمن مواءمة مثاليّة بين المقبض وراحة اليد القابضة. أمّا خنجر أنغوتريتوك فأقلّ تقليديّة وهو عبارة عن سكّين White hunter II Puma ذي مقبضٍ كراتوني.

لدى مغادرتهم بورت راديوم سلكوا في البداية طريقًا بين جبلين. كانت انهيارات جليديّة منتشرةً هنا وهناك على الصخور مثل بقايا رغوة على جنبات كأسِ جعة مفرغ. كان تقدّمهم سريعًا، نسبيًّا، على الرّغم من قسوة الارتجاج الذي تعرّض له

كلّ واحدٍ منهم، في مركبته، جرّاء وعورة الأرض. حاول فيرّي في البداية أن يتبادل أطراف الحديث مع دليليه، وخاصّة أنغوتريتوك الذي يتكلّم بعض الإنكليزيّة، بينما يكتفي ناباسيكادلاك بالابتسام كوسيلة للتعبير. غير أنّ الكلام حين يُنطَقُ به كان يتردّد مقتضَبَ الوقع ولا يلبث أن يستحيل جمادًا: ولمّا كان الكلام يبقى، لهنيهة، مجمّدًا في الهواء الطلق، كان يكفي أن تمتدّ إليه يدٌ لكي تتساقط من الهواء ركامًا تلك الكلمات التي تهمي برفقٍ، ذائبة بين أصابعك قبل أن تخبو هامسة.

سرعان ما انتقلت أسراب البعوض إلى الهجوم، ولكن لحسن الحظّ كان قتلها أمرًا بالغ السهولة. ففي مناطق مثل تلك المناطق يكاد يكون الإنسان مجهولاً بالنسبة للحيوانات التي لا تتخذ حذرها منه: لذا يمكن قتل أسرابٍ من البعوض بضربة من ظاهر اليد من دون أن تسعى حتّى إلى الفرار. غير أنّ هذا لم يكن حائلاً دون ما تسبّبه من إزعاج بالغ، إذ تهاجم بالعشرات في كلّ متر مكعّب قارصةً من خلال الملابس، وخاصّة عند الكتفين والركبتين حيث يكون القماش مشدودًا. حتّى لو أراد أحدهم أن يلتقط صورة حجبت الأسراب المدوّمة النورَ عن العدسة، لكنّهم لم يحضروا معهم آلة تصوير لأنّهم لم يأتوا إلى هذه الأصقاع لمثل هذا الغرض. هكذا اضطروا إلى متابعة رحلتهم وقد سدّوا كلّ الفتحات في أغطية رؤوسهم ووجوههم. وذات مرّة لمحوا دبًّا أبيض، غير أنّ بعده عنهم جعله يبدو مسالمًا.

كانت الكلاب وحدها مصدرًا للمتاعب. مثلاً، عندما قُذِفَ فيرّي، ذات صباح، من مركبته مصطدمًا بحرفٍ جليدي حادّ،

راحت المركبة الفارغة ترتجّ متمايلة في كلّ اتجاه. فإذا بالكلابِ، وقد خيّل إليها أنّها حُرّرت من حبال المركبة، تُهرع في اتّجاهات متعاكسة، بدل أن تتوقّف على الفور. فانقلبت المركبة في آخر الأمر وعلِقت بالعرضِ بين عائقين ما أرغم الكلاب على التوقّف، وسرعان ما نشب العراك فيما بينها مصحوبًا بالنباح. كان فيرّي يحاول في الأثناء أن يستعيد وعيه عند أسفل الميدان مدلّكًا جنبه. وإذ أعانه أنغوتريتوك على النهوض مجدّدًا، حاول أن يهدّئ من روع الكلاب لكنّ مسعاه لم يُثمر إلاّ تفاقمًا: فبدلَ أن يهدأ كان ردّ فعل الكلب الذي تلقّى لسعة السوط الأوّل أنّه سارع إلى عضّ مجاوره، والمجاور عضّ المجاور الذي عضّ مجاورين كان ردّ فعلهما مماثلاً، فاستحال العراك إلى نزاع موسّع سادَه هرجٌ ومرج. بمشقّة كبيرة تمكّنوا أخيرًا من تهدئة الكلاب. وانطلقوا مجدّدًا. كان الصيف القطبي يبسط أجواءه على الأنحاء شيئًا فشيئًا. وما كان اللّيل يهبط قطّ.

٩

مطلع شهر شباط، في باريس، كان الاحتمال الغالب بدايةً هو أن يتعرّض فيرّي، نفسه، للاختفاء، لا أحد سواه.

كانت نهاية شهر كانون الثاني زاخرةً بالأعمال. فبعد أن تطرّق دولاهاي، بإلحاح لافت، إلى أهميّة «الناشيليك»، مرارًا وتكرارًا، صمّم فيرّي، جدّيًا، على الاهتمام بهذه المسألة عن كثب. على أثر زياراته العديدة إلى المتاحف وأصحاب المجموعات الخاصّة، مستشيرًا خبراء ورحّالة وأمناء متاحف، كان قد كوّن فكرةً واضحة عمّا يُسمّى الفن القطبي وقيمته التجاريّة في المقام الأوّل. وإذا حدث ذات يوم وتمكّن أحدٌ ما من الوصول إلى ما تبقّى من السفينة، فلا ريب في أنّ الصفقة ستكون مجزية حقًّا. حتّى أنّ فيرّي اشترى من إحدى صالات العرض في الماريه، منحوتتين صغيرتين وراح يدرسهما بإمعانٍ كلّ مساء: منحوتة تمثّل امرأة نائمة من بوفونغنيتوك، وشكل لأرواحٍ من بانغنيرتونغ. وعلى الرّغم من كونهما شكلين غير مألوفين في نظره، كان يأمل، مع ذلك، في فهم القليل ممّا

تمثّلان، وتبيان أسلوبهما، وإدراك الغرض منهما.

تلك العمليّة التي سيكون الشمال مسرحها كانت لا تزال، في الأثناء، مجرّد فرضيّة على كلّ حال. فعلى الرّغم ممّا بذله دولاهاي في البحث والتنقيب، كان لا يزال عاجزًا عن الحصول على معلوماتٍ جديدة تسمح بتحديدٍ أدقّ لموقع حطام السفينة. مع ذلك، وربّما تتوافر تلك المعلومات، كان فيرّي قد بدأ يرسم الخطوط العريضة لبعثة محتملة. غير أنّ همومًا جديدة طرأتْ خلال تعاقب تلك الأيّام الشتويّة. مشروع أوّل معرض استعاديّ لأعمال مارتينوف ــ بعد أن تخلّى الأخير عن «صندوق الودائع والرهنيّات»؛ والأضرار التي أحدثتها المياه في محترف أستيريلاس ــ مُتلفة كلّ أعماله التجهيزيّة من سكّر النبات؛ وإخفاق غوردِل في محاولته الانتحار، بالإضافة إلى مشاغل أخرى.. سبّبت، كلّها، ضغوطًا غير معتادة في العمل. فوجد فيرّي نفسه، حتّى من دون أن يعي ذلك، غارقًا في العمل الذي يفيض عن قدراته كأنّه حديث العهد في مهنته. لم يسبق له أن شهدَ ضغوطًا مماثلة، لذلك لم يدرك حقيقة ما يجري. غير أنّ العاقبة لن تظهر إلاّ بمضيّ بضعة أيّام.

بضعة أيام أو بضعُ ليال، لأنّه، ذات مرّة، تعرّض لحادث فيزيولوجي أثناء نومه: إذ غَفَت كلّ وظائفه الحيويّة المنهوكة حين غفا. لم يدم الأمر سوى ساعتين أو ثلاث ساعات على الأكثر أضربت خلالها إيقاعات جسمه البيولوجيّة عن العمل. خفقان قلبه، الشهيق والزفير من رئتيه، لا بل ربّما أبطأت عمليّات تجدّد الخلايا في جسمه إلى حدّها الأدنى الملحوظ،

أشبه بالغيبوبة الشاملة، التي يستحيل على أيّ عين فانية أن تميّز بينها وبين الموت السريري. كذلك الأمر، لم يعِ فيرّي شيئًا ممّا كان يحدث داخل جسمه، ولم يشعر بألم، فبالكاد عبرَ ذهنه مثل حلم، وربّما كان بالفعل حلمًا، لا أكثر. ولا شكّ في أنّه لم يكن حلمًا بالغ السوء على كلّ حال، لأنّه فتح عينيه مجدّدًا صافيَ الذهنِ رائق المزاج.

استيقظ متأخّرًا بعض الشيء على غير عادته، ولم يفطن إلى حقيقة ما جرى. فما كان ليخطر بباله، للحظة، أنّه تعرّض أثناء نومه لما يُسمّى انسدادًا أُذينيًّا ـ بُطينيًّا في القلب. ولو خضع للمعاينة الطبّيّة لارتاب الاختصاصيّون في البداية بانسداد من نوع Mobitz II قبل الإمعان في التفكير والتداول فيما بينهم، لكي يميلوا، في النهاية، إلى تشخيص درجة ثانية من الحالة التي تسمّى حالة Luciani-Wenckebach.

مهما كان من أمر ما كان، المهمّ أنّه عند استيقاظه لم تكن ڤيكتوار هناك. وبدا أنّها لم تعد للمبيت في اللّيلة السابقة. ليس في ذلك ما يدعو إلى العَجَب: فقد كانت المرأة الشابّة تبيت أحيانًا عند صديقة لها، غالبًا ما تكون هي المدعوّة لويز، أو، في الأقلّ، هذا ما كانت تؤكّده، كعادتها، بشيء من الغموض وعدم الاكتراث ـ باعتبار أنّ فيرّي لم يكن ذا ميول استحواذيّة، كما لم يكن مولعًا بها، لكي يسعى إلى التثبّت من صحّة كلامها. مع ذلك، بعد نهوضه، حسِبَ في البداية أنّ ڤيكتوار بدّلت سريرها أثناء اللّيل لأنّها تريد أن تنام ملء جفونها ولسببٍ بسيط هو أنّه يغطّ في نومه، وهو يعلم جيّدًا أنّه يغطّ، أحيانًا،

في نومه، فلا جدوى من الإنكار. ذهب إذًا للتثبّت من أنّ ڤيكتوار ليست نائمة في الغرفة الخلفيّة. لا. لا بأس. ولكن فيما بعد، إذ لاحظ، أوّلاً، غياب أدوات زينتها وحاجيّاتها من الحمّام، ثمّ غياب ملابسها من الخزانة، ثمّ غياب شخصها كلّ الأيّام التي تلت، كان لا بدّ له من الإقرار بأنّها رحلت.

بَذَل أفضلَ مُستَطاعه في البحث عنها بالقدر الذي يسمح به وقته. ولكن حتّى لو كان لڤيكتوار أقارب يسألهم عنها، فردٌ من أفراد العائلة مثلاً، أو من ينوب عنه أو يقوم مقامه، لما كانت أعلمته بوجوده أو عرّفته عليه مطلقًا. لم تكن هناك أمكنة كثيرة ترتادها، ما عدا ثلاث حانات: حانة «لو سيكلون» و«لو سولاي»، وخاصّة حانة «سنترال» التي يرتادها دولاهاي أيضًا، لكنّ الاتصال بهذا الأخير كان متعذّرًا في تلك الآونة لانشغاله التام، بحسب زعمه، بمشروع الناشيليك. كما كان فيرّي قد لمح ڤيكتوار، بضع مرّات، برفقة تلك المرأة الشابّة التي في مثل سنّها، المدعوّة لويز، والعاملة، بموجب عقد موقت، في مصلحة السكّة الحديد. تردّد على هذه الحانات، وصادف لويز لكنّه لم يعلم شيئًا عن ڤيكتوار.

هكذا عاد فيرّي إلى سابق عهده بالعيش وحيدًا. غير أنّ الوحدةَ مُرهقة. خاصّة عند الصباح حين يستيقظ منتصبًا، أي معظم الأيّام كمعظم الرّجال قبل أن يتمشّى من الغرفة إلى المطبخ إلى الحمّام، جيئةً وذهابًا على هذا المنوال حتّى لا يعود الانتصاب كاملاً: ومع ذلك يُشعره بالثقل، كأنّه فاقد توازنه بسبب هذا العضو الزائد القائم على زاوية قائمة من عموده

الفقري المقوّس، فيجلس أخيرًا منصرفًا إلى تفقّد بريده. هذه العمليّة غالبًا ما تكون مخيّبة ويؤول نتاجُها إلى إقامة شبه يوميّة في سلّة المهملات، لكنّها على الأقلّ، إذ تستبدل ما ينبغي استبداله إنْ لم يكن طوعًا فكرْهًا، تُعيد آلتَه إلى حجمها الطبيعي.

لا، الوحدة ترهقه، ولا يجوز أن يبقى الحال على ما هو عليه. لكنْ ليس من اليسير أن يرتجل المرء حلولاً عندما يهبط الخواء على حين غرّة. صحيح أنّ حياة ڤيكتوار معه لم تستمرّ طويلاً غير أنّ المدّة كانت كافية، مع ذلك، لكي يتبدّد معها أيّ حضور للنساء في جوار فيرّي. كان يعتقد، هو الساذج حقًّا، أنهنّ ما زلن هناك، كأنّهنّ، على مقاعد الاحتياط، لا يتصبّرنَ إلاّ في سبيله. والحال، أنّهنّ، جميعهنّ، هجرنه، طبعًا لم ينتظرنه، وانصرفت كلّ منهنّ إلى حياتها الخاصّة. لذا، ونظرًا لعجزه عن البقاء وحيدًا راح يبحث في كلّ مكان. لكنّ المُجرَّب يعلم أنّ من يبحث لا يجد، والأجدر ألاّ يبدو عليه أنّه يبحث، وأن يتصرّف كأن شيئًا لم يكن.

الأجدر أن تكون محض صُدفة، غير مرتقبة. إذ يُقال إنّه على هذا النحو تولد الاختراعات الكبرى: من خلال تماس غير مرتقبٍ لمُنتَجين موضوعين، بمحض المصادفة، جنبًا إلى جنب، في وعاء المُختَبر. طبعًا يتطلّب الأمر أن يكون هناك من يتعمّد وضع المنتجين جنبًا إلى جنب، وإن لم يكن المقصود هو مزجهما. كما يتطلّب أن يكونا قد أنتجا في اللحظة نفسها: الأمر الذي يشكّل برهانًا على أنّهما يمتلكان قاسمًا مشتركًا فيما بينهما حتّى قبل أن نعرف ذلك. إنّها الكيمياء؛ هذا منطقها. نذهب إلى

سابع أرض للحصول على شتّى أنواع الجزيئات التي نحاول المزج فيما بينها: فلا نحصل على شيء. من سابع أرض نستقدم العيّنات: دائمًا لا شيء. ثمّ ذات يوم، نقوم بحركة خاطئة، نوقع، من دون قصد، شيئًا ما لطالما كان موجودًا، مهملاً، أمام أعيننا؛ رَشاشٌ مباغتٌ، غير متوقّع، عيّنة تندلقُ خطأً في وعاء مُبلِّر، فإذا بالتفاعل الذي طالما انتظرناه يحدث. أو يغفل أحدٌ ما، على سبيل المثال، عن عيّنات من زرعٍ نُسجيّ في أحدِ الأدراج وتكون النتيجة: البنسلين.

هذا ما جرى بالضبط، أو على نحوٍ مشابه؛ فبعد أن وسّع فيرّي دائرة بحثه واستكشافه إلى ما يتعدّى حدود شارع أمستردام، انتهى به الأمر إلى العثور على مرامِه في شخصِ جارته التي تقطن الشقّة المقابلة لشقّته. تُدعى بيرانجير آيزنمان. أمر غير متوقّع على الإطلاق. وجدها عند الباب المجاور. طبعًا ينبغي الإقرار هنا أنّ الجيرة ليست حسناتٍ كلّها، فهناك منها الجيّد والأقلّ جودة، وهذه مشكلة كنّا نودّ، بطيبة خاطر، التعمّق في بحثِ تفاصيلها الدقيقة، لو كان في الوقتِ متّسع. لكنّنا لا نستطيع، الآن، الاسترسال حول هذه النقطة نظرًا لانشغالنا بحدثٍ يعنينا: الواقع أنّنا تبلّغنا للتوّ نبأ اختفاء دولاهاي المأسوي.

١٠

كانت المتاعب مع الكلاب تزداد كلّما أبتعدوا في رحلتهم. ذات يوم، مثلاً، بين كتلتين مخروطيتين شفّافتين من الجليد القاطع، صادفوا جيفةَ شَشْنيّ راقدٍ هناك منذ ما لا أدري من الزمن. شبه مطمورة، كانت الجيفة مُلبّسةً بالجليد، محفوظةً وسط الصقيع العائم أفضل ممّا يُحفظ فرعونُ تحتَ هَرَم: ذلك أنّ الصقيع يحنّط مثلما يقتل. على الرّغم من نداءات الدليلين وسُبابهما وفرقعات سوطيهما، انقضّت الكلاب بضراوة على الجيفة، وما تلا ذلك كان عبارة عن طقطقات لاهثة، لزجة، ومقزّزة من فُكُوكٍ نهمةٍ مُنهمكة. ثمّ بعد أن شبعت من التهام الجزء المكشوف من الحيوان حتّى قبل أن يذوب الجليد عنه، كان عليهم الانتظار ريثما تفرغ الضواري من المقيل كي يتابعوا طريقهم. ضاقوا بها، تلك الكلاب المزعجة. وأقسموا أنّهم لن يستعينوا بها يومًا آخر. تابعوا طريقهم في كنفِ الضوء السرمديّ الذي تُعَتِّمُه أسرابُ البعوض.

لنذكّر بأنّ لا شيء هنا يفصل بين نهار وآخر في هذا الفصل

من السنة، فالشمس ما عادت تغيب. وينبغي لكَ أن تعرف كم هي الساعة لكي تعلم أنّ وقت الاستراحة قد حان، وأن تعصب عينيك لكي تنام بعد أن تكنسَ أرضيّة الخيمة بجناح نورس. أمّا أسراب البعوض التي أفرخت بيوضها في نقح الماء المنتشرة في الأرجاء، فقد اشتدّت هجماتها وازدادت ضراوة. فما عادت تشنّ هجماتها بالعشرات بل بالمئات المتراصّة الصفوف، في المتر المكعّب الواحد، مندفعةً داخل أنفكَ، داخل فمك، وأذنيك، بينما تذرع أنتَ المجلدة الأرضيّة وتدوسها بخطواتك. عملاً بنصيحة أنغوتريتوك، المناقضة لإرشادات الكلّيّة مُمَثَّلةً بفلدمان، كان على فيرّي أن يعود إلى التدخين وإن كان طعم التبغ المستعاد يسبّب له الغثيان في مثل ذلك الصقيع. غير أنها الوسيلة الوحيدة المُتاحة لطرد ذوات الجناحين: لا بل لعلّه من المستحسن في حمأة الهجمات أن يدخّن، في وقتٍ واحد، سيجارتين أو حتّى ثلاثة في وقتٍ معًا.

كانوا يتابعون تقدّمهم سالكين ذلك الدرب الذي يكاد أن يكون خفيًّا، والمُعْلَم، كلّ كيلومترين أو ثلاثة، بعُذْواتٍ منتظمة. عبارة عن أكوام من الحجارة أقامها المستكشفون الأوائل للمنطقة لكي يُعلِموا طريقهم، استخدمت العُذْوات في البداية كعلاماتٍ استدلال غير أنّها كانت تحتوي أحيانًا على أدواتٍ شاهدة على الحياة السابقة في المنطقة: أدوات قديمة، فضلات غذائيّة متكلّسة، أسلحة غير صالحة للاستعمال، وأحيانًا وثائق وعظام. هكذا عثروا ذات مرّة على جمجمة نبتت في محجريها أثارةٌ من طحلبِ المَناقِع.

على ذلك النحو، إذًا، كانوا ينتقلون من عُدْوةٍ إلى عُدْوة، في ظلّ رؤيةٍ شبه معدومة، لأنّ أسراب البعوض لم تكن هي وحدها التي تُعتّم الأجواء بل آزرها ضبابٌ كثيف. ضبابٌ لا يكتفي بتعكير شفافية الهواء وحجب الأشياء عن الأنظار، بل كان أيضًا كفيلاً بتضخيم أحجامها الفعليّة. فعلى الضدّ من الأشياء التي نراها في المرآة العاكسة التي هي دائمًا، كما يقول التنبيه الشائع، أقرب ممّا تبدو عليه، كان خيالُ عُدْوةٍ يتراءى قابَ قوسين في الامتداد الناصع، لكنّه في الحقيقة لا يزالُ على بُعدِ ساعة من السير بالمركبات.

كانت حادثة الشَشْني حاسمةً في حثّ الدليلين على التخلّص من الكلاب. وهكذا، عند أوّل محطّة بلغوها بعد بورت راديوم، قايضوا الكلاب كلّها لدى مؤجّرِ مَزَالج، بثلاث عربات جُهّزت بمحرّكات خفيفة. تابعوا طريقهم على متنِ تلك العربات التي لضآلتها قياسًا بالسكون القطبي ما كان يصدر عنها، بين الفينة والفينة، سوى فرقعاتٍ مكتومة شبيهة بفرقعات الدرّاجات الناريّة الصغيرة. مخلّفين وراءهم، على صفحة الجليد المغبر، عددًا من نقح الزيت وأثارة من شحم، واصلوا طريقهم المتعرّجة بين الكتل الجليديّة، تاركين أحيانًا أثر دوائر واسعة للالتفاف حول حواجز الجليد من دون أن يصادفوا حتّى خيالَ شجرةٍ أو طيفَ عشب. ذلك أنّ الأمور تغيّرت كثيرًا في هذه النواحي منذ خمسين مليون سنة. إذ كانت تنبت فيها أشجار الحور والزان والكرمة والسِكْوا، ولكنْ قُضيَ الأمر، كلّها ما عادت موجودة الآن. بالكاد يصادف المرء بين الفينة والفينة، كما حدث ليل أوّل من أمسِ، إلى عمقِ الجنوب قليلاً، بعض

حزاز الصخر، أو ما يشبه الخلنج، أو شجرة بتولة مُعاقة أو صفصافة معرّشة، أو خشخاشًا قطبيًّا، أو فطرًا نادرًا، ولكن هنا لم يبقَ شيء من كلّ هذا، لا أثر لنبتة واحدة على مدى البصر.

كان غذاؤهم مؤلّفًا على الدوام من حصص فرديّة متشابهة، متوازنة من حيث قيمتها الغذائيّة، ومدروسة خصّيصًا لذلك النوع من الرحلات. غير أنّهم ذات مرّة، وطلبًا للتنويع، جمعوا بعض الأسماك الصغيرة وأقاموا وليمة سمكٍ مقلي. فبعد أن تهاوى جدار كتلة ضخمة من الجليد مسبّبًا موجةً عالية، قذفت هذه الأسماك الصغيرة الشبيهة، من حيث الحجم، بسمك السردين، إلى إحدى الضفاف؛ كان عليهم أوّلاً أن يزجروا النوارس التي تحوّم خلسةً فوق الأسماك مستعدّة للانقضاض عليها. في يوم آخر، اصطاد ناباسيكادلاك فقمةً بواسطة خُطّاف. والحال أنّ كلّ شيء في لحم الفقمة لذيذ الطعم، إنّه، تقريبًا، المعادل القطبي للحم الخنزير: إذ يمكن أن يُشوى، أن يُسلق، أن يُطبَخ على نار خفيفة، كما يمكن إعداد فصيدٍ ممتاز من دمه الذي له طعم زلال البيض، ومن شحمه تُستفاد الإنارة والتدفئة، ومن جلده تصنع أنسجة الخيم المتينة، ومن عظامه الإبر ومن أليافه الخيوط، حتّى أنّهم يصنعون من أمعائه ستائر منزليّة، شفّافة جميلة. أمّا روحه، فحين يموت الحيوان تبقى على سنّ الخطّاف. أعدّ أنغوتريتوك، إذًا، طبقًا من كبد الفقمة بالفطر فوق موقدٍ كان ناباسيكادلاك قد وضع الخطّاف بجواره، لكي لا تشعر روح الفقمة بالبرد. وفيما انصرفوا إلى تناول عشائهم لقّن أنغوتريتوك فيرّي بعضًا من المئة وخمسين مفردة المعبّرة عن الثلج بلغة الإيغلوليك، من الثلج القشريّ إلى الثلج الصارّ مرورًا

بالثلج النديّ الليِّن، والثلج المتصلّب والمتموّج، والثلج الناعم المعفّر، والثلج الرطب والصفيق والثلج الذي تذروه الرياح.

من الطبيعيّ أنّهم كلّما كانوا يتوغّلون باتجاه الشمال كان البرد يشتدّ أكثر فأكثر. حبيبات جليد تجمّعت، ثابتةً، على الشعيرات التي تكسو وجه فيرّي: الشعر والرموش، اللحية والحاجبان، وفجوة المنخرين. كان يتقدّم مع دليليه خلفَ نظّارات سودٍ بمحاذاة الحفر البركانيّة، والمدرّجات الدائريّة المنخفضة التي سبّبها سقوط النيازك التي كان السكّان المحليّون، فيما مضى، يستخرجون معدنها لصنع أسلحتهم. ذات مرّة، لمحوا دبًّا ثانيًا من بعيد، وحيدًا على سطح طوف جليدي، متربّصًا بقربِ فتحة تهوية تستخدمها حيوانات الفقمة. بدا الدبّ منصرفًا بكلّ جوارحه إلى التربّص بفرائسه المحتملة متغافلاً عن وجودهم هناك، لكنّ أنغوتريتوك الذي لا تفرغ جعبته من الدروس المفيدة، شَرَحَ لفيرّي الطريقة المثلى للتصرّف إذا شاءت الظروف أن يواجه دبًّا غضوبًا. المهمّ ألاّ يفرّ أمامه راكضًا: فالدب قادر على العدو أسرع منك. الأحرى أن تسعى إلى صرف انتباهه عنك برميك قطعة ملابس ملوّنة إلى مسافة جانبيّة. أمّا إذا أخفقت هذه الوسيلة وبدا لك أنّه لا مفرّ من المجابهة، عليك أن تتذكّر دائمًا أنّ جميع الدببة البيض عسراء: وإذا ارتأيت أنّك قادر على مقاومته فالأفضل أن تقارب الحيوان من الجانب الذي لا يجيد استخدامه كما ينبغي. طبعًا لن يبدّل ذلك شيئًا من حصيلة المجابهة، ولكن ينبغي أخذ العلم بالأمور، لا أكثر.

١١

لن يقامَ مأتمٌ لدولاهاي، بل قدّاس متواضع في كنيسة صغيرة، بنواحي أليزيا، قبيل الظهر. عندما وصل فيرّي لاحظ أنّ عددًا غير قليل من الناس كانوا قد سبقوه إلى باحة الكنيسة، من دون أن يتعرّف على أحد منهم. ما كان يحسب أنّ لدولاهاي هذا العدد من الأقارب أو الأصدقاء، ولكن ربّما لم يكن هؤلاء جميعًا سوى دائنين مغلوبين على أمرهم. من دون أن يلفت الأنظار، انتحى ركنًا عند مؤخّر الكنيسة، لا في الصفّ الأخير تمامًا، ولا وراء عمود، بل في الصفّ ما قبل الأخير، غير بعيد عن أحد الأعمدة.

كلّ الحاضرين كانوا قد دخلوا، أو يستعدّون للدخول، أو يتوافدون من الباب داخلين: تجنّبًا لالتقاء نظراته بنظراتهم لَبِثَ فيرّي مغضيًا محملقًا بحذائه، غير أنّ سكينته لم تدم طويلاً. مقبلةً نحوه بعكسِ اتجاه الحضور، دنت منه امرأة شاحبة ضامرة الوجنتين في تايور دِمَقْسيّ، وعرّفت عن نفسها: الأرملة دولاهاي. آه، قال فيرّي الذي لم يكن يعلم، أو ليحسب يومًا

أنّ الآخر متزوّج. ولكن حسنًا، كان متزوّجًا، وهذا، لعَمري، من الأمورِ الحسنة في حالته.

مع ذلك، أخبرته الأرملة قائلةً إنّهما، هي ودولاهاي، كفّا عن العيش سويًّا منذ ست سنوات، وكانا يقيمان في مسكنين منفصلين وإن كانا غير متباعدين. ذلك أنّهما بقيا على وفاق وتفاهم، كما بقيَ الاتصال بينهما مرّةً كلّ ثلاثة أيّام، بالإضافة إلى أنّ كلاً منهما لديه مفتاح شقّة الآخر، لكي يُعنى، في حال تغيّب أحدهما، بالنباتات وتلقّي الرسائل والبريد اليومي. غير أنّها، بمضيّ أسبوع، كان قد ساورها القلق حيال صمت دولاهاي وتغيّبه، فعمدت أخيرًا إلى الدخول إلى شقّته لتجده جثّة هامدة على أرضيّة الحمّام. أليست هذه هي مأساة من يعيش وحيدًا، خَلُصَت إلى القول بنبرةٍ استفهاميّة. بالتأكيد، أجاب فيرّي معلّقًا. وإذا بالأرملة دولاهاي التي سمعت الكثير عنه، كما قالت، ذلك أنّ لوي فيليب كان يحبّك كثيرًا، تقترح عليه أن ينتقل للجلوس بجانبها في الصفّ الأوّل. بكلّ طيبة خاطر، قال كاذبًا، منتقلاً على مضض. ولكنْ بما أنّها المرّة الأولى، قال في سرّه، التي يشارك فيها بقدّاسٍ مماثل، فإنّ جلوسه في الصفّ الأوّل سيتيح له أن يتابع كلّ المجريات عن كثب.

الواقع، أنّه كان احتفالاً بسيطًا. هناك التابوت على منصّة وقد وُضِعَ بحيث تكون القدمان إلى الجهة الأماميّة. عند قاعدة التابوت وُضِعَ إكليل زهرٍ باسم الراقدِ فيه. وهناك الكاهن المُطرقُ في حالِ خشوع خلفَ التّابوت لجهة اليسار، والشمّاس أمام التابوت لجهة اليمين ــ بدانة مُشرقة بالعافية خليقة بممرّض

في مصحّة للأمراض النفسيّة، ووجه عبوس ومسوح سودٌ، ومرشّة الماء المقدّس في يده اليمنى. وهناك الناس الذين احتلّوا مقاعدهم للتوّ. وعندما يخيّم السكون على الكنيسة التي امتلأت كلّ مقاعدها تقريبًا، يتلو الكاهن بعض الصلوات متبوعةً بعبارات تكريم للفقيد، ثمّ يدعو الحاضرين إمّا إلى الانحناء أمام الجثمان أو إلى مباركتها بالماء المقدّس، بحسبِ مشيئة كلّ منهم. كان القدّاس قصيرًا وانتهى بسرعة؛ ولمّا حسبَ فيرّي أنّه سيلبث في مكانه متفرّجًا على الناس وهم ينحنون أمام التابوت، فردًا فردًا، قرصت الأرملة ذراعه، مشيرةً برأسها إلى التابوت، مقطّبةً. ولمّا قطّب فيرّي بدوره غير مُدرِكٍ لمغزى فعلتها، راحت الأرملة تهزّ رأسها بعنف مشيرةً بوضوح إلى التابوت، قارصة ذراعه بشدّة دافعةً إياه إلى الأمام. يبدو إذًا أنّه حان دوره، هو، للانحناء.. ينهض وأنظار الناس عليه. يشعر بالارتباك والحَرَج لكنّه يتقدّم. لا يعلم كيف يتصرّف، لأنّه لم يشهد أمرًا مماثلاً من قبل.

مدّ له الشمّاس يده بالمرشّة، فأمسكها فيرّي غير واثقٍ من أنّه يمسكها كما ينبغي، ثمّ راح يرجّها كيفما اتّفق. ومن دون أن يتعمّد شكلاً معيّنًا لحركة يده راح يخطّ في الهواء دوائر وخطوطًا مستقيمة، ومثلّثًا، وصليبَ سانت أندريه، وهو يدور دورة كاملة حول التابوت أمام أعين الناس المستهجِنة، لا يدري متى يكفّ عمّا يفعله ولا كيف، إلى أن سرت همهمة في صفوف الحضور، وأمسك الشمّاس بكُمّه ليعيده إلى مقعده في الصفّ الأوّل. لكنّ فيرّي أجفل من القبضة الشمّاسيّة فارتطمت مرشّة الماء المقدّس بالتابوت الذي صَدر عنه صوتٌ أجوف جرّاء الطرقة.

فيما بعد، وهو يغادر الكنيسة في حال من الاضطراب الشديد، لمح فيرّي الأرملة دولاهاي مُسترسلة في التحدّثِ إلى امرأة شابّة: استغرقه الأمر بضع ثوانٍ قبل أن يتعرّف على لويز. كانتا قد التفتتا نحوه مرّة واحدة من دون أن تقطعا حديثهما، ثمّ أشاحتا عنه حين أدركتا أنّه يراقبهما. وإذ صمّم على الاقتراب منهما، شقّ فيرّي طريقًا بين الحاضرين المتريّثين، زرافاتٍ، كأنّهم جمهور مسرحيّة بعد العَرْض، ملتفتين إليه لدى مروره بهم كأنّهم يتعرّفون في شخصِه على ممثّل مشهد المرشّة.

من دون أن يسألها فيرّي عن شيء، ردّدت لويز على مسمعه مرّة أخرى أنّها ما زالت لا تعرف شيئاً عن ڤيكتوار. أمّا الأرملة، ومن دون أن تسأل، هي أيضًا، عن أيّ شيء، أخطرته بوضوحٍ ما بعده وضوح أنّ غياب دولاهاي يخلّفُ فراغًا لن يملأه أحد. بحيث أنّه لا يُعقَل أن يكفّ دولاهاي، بعد الوفاة، قالت موضحة بحماسةٍ بادية، عن المثول أمام ناظريها. وفي هذه الأثناء كان ينبغي أن يلتقوا جميعًا في المقبرة في موعد تقديم الشاي. لم يستطع فيرّي أن يتملّص من دعوتها المفاجئة. غير أنّ الواقع الذي لا يرقى إليه شكّ هو أنّه، بعد الوفاة، وفيما كان عائدًا إلى منزله في شارع أمستردام قبل أن يذهب مجدّدًا للمشاركة في مراسم الدفن، إذا بمغلّفٍ بيج لا يحمل طابعًا بريديًّا دُسَّ تحتَ بابه في غير مواقيت توزيع البريد، يُضاعف من اضطراب فيرّي. كان المغلّف الذي حمل اسمه وعنوانه مدوّنين بخطّ سويّ، يحتوي على الإحداثيّات الجغرافيّة لموقع الناشيليك.

عند ١١٨ درجة من خطّ الطول و٦٩ درجة من خطّ العرض

شمالاً، على بعد ما يزيد عن المئة كيلومتر من الدائرة القطبيّة الشماليّة وأقل من ألف كيلومتر من المحور الشمالي المغنطيسي، استقرّ الحطام في خليج أموندسن، عند الحدّ الشمالي للبقاعِ الشماليّة الغربية. وكانت المدينة الأقرب تدعى بورت راديوم. راح فيرّي يدقّق بهذه المعلومات مستعينًا بأطلس البلدان.

القطبان، وهذا أمر قد يختبره أي واحدٍ منّا، هما أصعب منطقتين يمكن أن نراهما على خارطةٍ ما. إذ لا يمكننا أبدًا أن نعثر فيهما على غايتنا. دائمًا نصطدم بإحدى عقبتين. نستطيع بدايةً أن نعتبرهما واقعين في أعلى وفي أسفل خارطة نصفي الكرة الأرضيّة التقليديّة، متّخذين من خطّ الاستواء قاعدةً أفقيّة وسطيّة. ولكن في مثل هذه الحال تبدو الأمور وكأنّنا ننظر إليهما جانبيًّا، وفقَ منظورٍ غائم وغير مكتمل بالضرورة، فلا يبدو الأمر مقنعًا. ثمّ نستطيع أيضًا أن ننظر إليهما من فوق، كأنّنا نشاهدهما من طائرة: فمثل هذه الخرائط موجودة. ولكن عندئذٍ تكون صلتهما بالقارات، التي نراها عادةً مواجهةً، هي التي تستغلق علينا، فلا يكون الأمر مقنعًا أيضًا. هكذا نجد أنّ القطبين عصيّان على التمثيل المسطّح. ولأنّهما يحثّان على التفكير بأبعادٍ متعدّدة في وقت واحد، يسبّبان لفطنة علم الخرائط ما لا يُحصى من المشكلات. الأفضل عندئذ أن يلجأ المرء إلى مجسّم للكرة الأرضيّة، لكنّ فيرّي لا يملك واحدًا. على كلّ حال، يتوصّل مع ذلك إلى تكوين فكرة تقريبيّة عن تلك الناحية: نائية جدًّا، بيضاء جدًّا، باردة جدًّا. بعد ذلك يحين وقت ذهابه إلى المقبرة، فيخرج فيرّي من باب بيته.. وعلى مَ

يقع عندئذٍ: على عطر جارته.

بيرانجير أيزنمان هي فتاة طويلة القامة، مرحة الطباع، مبالغةً بعطرها، لكنّها مرحة حقًّا، ومبالغة في عطرها حقًّا. يومَ لفتت أنظار فيرّي، حُسِمَ الأمر في غضون ساعاتٍ قليلة. جاءت إلى شقّته لاحتساء كأس من الشراب ريثما يخرجان لتناول طعام العشاء سويًّا، وتساءلت سأترك حقيبة يدي؟ فقال طبعًا، اتركي حقيبة يدك. ثمّ بعد خفوت الحماسة الأولى، بدا فيرّي حذرًا ومتحفّظًا: فالنساء اللواتي يتقرّبن كثيرًا يسبّبن المتاعب، وخاصّة إذا كنّ جاراتك في الطابق نفسه. وليس ذلك لكونهنّ سريعات المنال، الأمر الذي يُعتَبَر حسنةً لا سيّئة، بل لأنّ فيري، هو نفسه، يغدو سريع المنال وعلى نحو مفرطٍ، والأغلب على الرّغم منه. طبعاً لا أحدَ يصبو إلى الكمال ويبلغه، فالأحرى أن يعي المرء حقيقة مرامِه.

لكن لم يمضِ وقت طويل حتّى طرحت مشكلة العطر نفسها بقوة. «Extatics Elixir» هو عطرٌ لاذعٌ ولَجُوج، يترجّحُ برعونة على الذروة بين النارديين والبالوعة، يكتنفكَ بقدرِ ما يؤذيك، يثيرك بقدر ما يخنقك. لذا كان على فيرّي أن يغتسلَ طويلاً على أثر كلّ زيارة من زيارات بيرانجير لشقّته. غير أنّ الاغتسال كان علاجًا ناجعًا نسبيًّا لشدّة ما كان العطر يتغلغل في مسامّ جلده، فكان يغيّر أغطية السرير والملاءات، وفوط الحمّام، ويرمي بملابسه مباشرةً في الغسّالة ــ وليس في سلّ الغسيل، لكي لا تنتقل العدوى إلى ملابسه الأخرى. مهما سعى إلى تهوية الغرفة كانت الرائحة لا تتبدّد إلاّ بعد ساعات طويلة، وهي بأيّة حال ما

كانت لتزول كليًّا. كانت من القوّة والنفاذ بحيث يكفي أن تتصل به بيرانجير هاتفيًّا، لكي تنتقل الرائحة عبر خطّ الهاتف وتجتاح الحجرة مجدّدًا.

قبل أن يلتقي بيرانجير أيزنمان كان فيرّي يجهل وجود «Extatics Elixir». أمّا الآن فإنّه ما زال يتنشّقه وهو يسير باتجاه المصعد على رؤوس أصابع قدميه: يتسلّل العطر من ثقبِ المفتاح، ومن فُرَجِ باب المسطحة، ويطارده حتّى شقّته. بإمكانه طبعًا أن يقترح على بيرانجير تغيير ماركة العطر ولكنّه لا يجرؤ على ذلك، كما بإمكانه أن يقدّم لها عطرًا آخر غير أنّ أسبابًا مختلفة كانت تردعه، فالهديّة هي شكل متقدّم من أشكال الالتزام. لذا يا مَرْحَبًا بالقطب الشمالي.

غير أنّنا لم نصل بعد إلى حقبة القطب الشمالي. ينبغي أوّلاً الذهاب إلى مدافن أوتوي. إنّها مقبرة صغيرة، على مساحةٍ متوازية الأضلاع، يحدّها إلى الغرب جدارٌ شاهق أصمّ، وإلى الشمال، لجهة شارع كلود ـ لورين، مبنى إداري. أمّا الجهتان المتبقّيتان فتشغلهما عمارات ذات نوافذ مطلّة على شبكة الممرّات المتقاطعة، وتوفّر للسكّان رؤيةً مثاليّةً على الأضرحة. ليست عمارات فخمة كتلك التي تتكاثر في هذه الأحياء الراقية، بل هي أشبه بالمباني السكنيّة التعاونيّة المحسّنة بالنوافذ التي، في غمرة سكون المقبرة، تتساقط منها متطايرةً كالمناديل مِزَقٌ متنوّعةٌ من الأصوات، هي مزيج من جلبة المطابخ والحمّامات، وطاردات المياه، وتهليلات برامج ألعاب تلفزيونيّة، ومشاجرات وصيحات أطفال.

قبل ساعةٍ من وصول المُعزّين، أقلّ عددًا ممّا كانوا في كنيسة أليزيا، اقترب رجل من حارسة إحدى تلك العمارات، من مدخل شارع ميشال آنج، وعرّف عن نفسه. يقف هذا الرجل منتصبَ القامة، مقتضبَ العبارة، ملامح وجهه خالية من أيّ تعبير، شبه جامدة، ويرتدي طقمًا رماديًّا باديَ الجِدّة. جئتُ من أجل الشقّة الصغيرة المعروضة للإيجار في الطابق الخامس، قال، أنا من اتصل بك هاتفيًّا يوم الاثنين من أجل تفقّد المأجور. آه بلى، استدركت الحارسة قائلةً بعد أن تذكّرته، الاسم باومغارتن، أليس كذلك؟ تنر، قال الرجل مصوّبًا، باومغارتنر. هل تسمحين لي بإلقاء نظرة على المكان؟ لا داعيَ لإزعاجك سأصعد بنفسي للحظات ثمّ أخبرك إذا أعجبتني. فأعطته الحارسة مفاتيح الشقّة.

صعد المدعو باومغارتنر إلى الشقّة الصغيرة التي بدت معتمة بعض الشيء لأنّها مشرفة فقط من الجهة الشماليّة، أرضيّتها مكسوّة بموكيت بيج، وأثاثها عبارة عن أشياء قليلة داكنة مثيرة للاكتئاب، من بينها مقعدُ كليك ـ كلاك ذو أخاديد سمراء مكسوّة بمواد مشبوهة وببقع من الرطوبة القارّيّة، وطاولة فورمايكا محفترة، موصليّات متيبّسة مكسوّة بغبار لزج وستائر دَبِقة من الأخضر الباهت. غير أنّ الوافد الجديد اجتاز الشقّة، من دون أن ينظر إلى محتويات الداخل جيّدًا، باتّجاه النافذة التي فتح مصراعيها قليلاً، واقفًا على بعدٍ منها، جانبيًّا، غير مرئي من الخارج لأنّه محتَجب وراء إحدى الستائر. من هناك تابع بانتباه شديد كلّ مراسم الدفن. ثمّ نزل مجدّدًا لملاقاة الحارسة وقال لها لا، ليس هذا ما أبحث عنه بالضبط، الشقّة معتمة شديدة الرطوبة.

فأقرّت الحارسة فعلاً بأنّ الشقّة تحتاج إلى بعض الصيانة.

إنه لأمر مؤسف حقًّا، قال باومغارتنر موضحًا، لأنّه يبحث عن مسكن في هذا الحيّ بالذات، غير أنّ أحدهم أشار عليه بشيء آخر لا يبعد كثيرًا عن المكان، فما كان من الحارسة، التي لا أثر للضغينة في كلامها، إلاّ أن تمنّت له التوفيق، فغادرها لتفقّد هذا الشيء الآخر، عند جادة أكسلمان. وبأيّة حال ما كان باومغارتنر ليستأجر تلك الشقّة الصغيرة في شارع ميشال آنج.

١٢

رأينا الناشيليك ذات صباح، من بعيدٍ جدًّا، كتلةً ضئيلةً ضامرة بلون الصدأ والسُخام، مُنتصبةً فوق طوف جليديّ تتخلّله نتوءات صخريّة، كأنّها لعبة قديمة محطّمة فوق ملاءة من الخِرَق. كانت تبدو عالقةً وسط الجليد أسفلَ ربوةٍ متآكلة، مكسوّة بالثلج جزئيًّا، غير أنّ أحد جوانبها يتقصّفُ بسلسلةٍ من الأجْرُفِ الخفيضة الجرداء. من هذا البعد، كان الحطام يبدو محفوظًا على نحوٍ ما: مُثبّتين بكبولٍ ما زالت مشدودة، كانت الصاريتان القصيرتان على حالهما، منتصبتين بعنادٍ، كما بدت قمرة القيادة عند مؤخّر هيكلها من المتانة بحيث تؤوي أطيافًا مرتجفةً من شدّة البرد. غير أنّ فيرّي الذي يعلم جيّدًا أنّ هذه الأصقاع زاخرة بالتهيّؤات، والذي تساوره شكوك، منذ البداية، بأنّ هذه السفينة، ذاتها، ليست إلاّ شبحًا، آثرَ الانتظار ريثما يقترب منها للتثبّت من كونها حقيقة لا مجرّد خيال.

الواقع أنّ الوهم البصريّ هو السائد في هذه الأصقاع. فقد كانوا يتقدّمون في العشيّة خلف نظّاراتهم السود، التي من دونها

تذرو الشمس القطبيّة الرملَ في العينين وتحشو الرأس بالرصاص، حين تكاثرت هذه الشمس فجأة وسط الغيوم المجمّدة بفعل انعكاس صورتها: فوجد فيرّي ودليلاه أنفسهم وقد غشيت أعينهم خمس شموس متزامنة، مصطفّة أفقيًّا، من بينها الشمس الحقيقيّة ـ ومعها نجمان آخران إضافيّان متعامدان. استغرق الأمر أقلّ من ساعة بقليل قبل أن تعود تلك الشمس الحقيقيّة شمسًا واحدة.

على الرّغم من بُعدِ الحطام، أشار فيرّي على دليليه بأن يلزما الصمت ويبطئا في سيرهما كأنّهم أمام كائن حيّ، ليس أقلّ من دبّ أبيض شرس الطباع. خفّفوا في البداية من سرعة عربات الجليد قبل أن يطفئوا المحرّكات نهائيًّا ويقتربوا بحذرٍ، كما يتقدّم نازعو الألغام، دافعين العربات بأيديهم قبل أن يسندوها إلى هيكل السفينة الفولاذي. ثمّ وقف المحليّان على مسافة من الناشيليك التي راحا يتطلّعان إليها بشيء من التهيّب، بينما همّ فيرّي بالصعود، بمفرده، إلى متنها.

كانت إذًا عبارة عن مركبٍ تجاري يبلغ طوله ثلاثة وعشرين مترًا، وقد ثُبّتت عند قاعدة الدفّة لوحة نحاسيّة تحمل تاريخ البناء (١٩٤٢) ومكان التسجيل (سانت جون، نيو برونسفيك). بدا أنّ هيكل السفينة وعدّتها في حالٍ جيّدة وقد اجتمعت فوقها حبيبات الجليد وبدت قابلة للكسر كالخشب اليابس. وما كان على الأرجح ورقتين مدعوكتين، مهملتين فيما مضى على السطح بين عقد الحبال، أصبحَ وردتين من رمال على خلفيّة ثعابين متجمّدة، وكلّها مكسوّة بطبقة من الجليد الذي لم يذب حتّى تحت نعلي

فيرّي. دخل فيرّي إلى قمرة الملاحة وتفحّص أرجاءها ومحتوياتها بنظرات عاجلة: سجلٌّ مفتوح، قنّينة فارغة، بندقيّة غير محشوّة، روزنامة العام ١٩٥٧ مزيّنة بصورة فتاة عارية تذكّر بفظاظة، لا بل تفعّل الحرارة السائدة القصوى، أي الخمس وعشرين درجة مئويّة تحت الصفر. كانت صفحات السجلّ متجمّدة فاستحال تقليبها. وعبر واجهات القمرة التي لم تخترقها نظرة منذ أربعين عامًا، ألقى فيرّي نظرةً إلى المنظر الناصع. ثمّ لمّا نزل إلى أنبار القعر متفقّدًا، وجدَ ما يبحث عنه على الفور.

وجد كلّ شيء هناك كما كان متوقّعًا، وقد وُضِّبَ في ثلاث حقائب معدنيّة ضخمة قاومت مرور الزمن بأمانة. لاقى فيرّي صعوبة في تحريك أغطيتها الملحومة بالبرد، ثمّ، بعد أن ألقى نظرة عاجلة على محتوياتها، صعد مجدّدًا إلى سطح السفينة لينادي الدليلين. انضمّ أنغوتريتوك وناباسيكادلاك إليه بحذرٍ، وبتهيّب لا يخلو من التردّد، متنقّلين على متن السفينة كأنّهما يقتحمان عنوةً أحد المساكن الصيفيّة المعزولة. نظرًا لثقلِ الحقائب والسلّم الحديد الزَّلِقِ على نحوٍ مفرطٍ والذي يفضي إلى أنبار القعر، لم يكن رفعها إلى السطح بالأمر الهيّن قبل نقلها إلى البرّ. ثبّتوها ما أمكنهم إلى عربات الجليد واستراحوا. كان فيرّي صامتًا لا ينبس بكلمةٍ فيما الدليلان يلهوان متبادلَين النكات غير القابلة للترجمة. كانا غير مكترثين بكلّ ما يجري، أمّا فيرّي فقد شعر بانفعال الإثارة. هكذا إذًا. لم يبقَ إلاّ أن يعود إلى الديار. ولكن دعنا نأكل شيئًا قبل أن ننطلق، اقترح ناباسيكادلاك قائلاً.

بينما كان هذا الأخير يقطع بالفأس صاري ميزان الناشيليك

لكي يوقد نارًا، لحِقَ فيرّي بأنغوتريتوك الذي نزل مجدّدًا لتفقّد الأنبار بحثًا عمّا قد يجده فيها. كانت الفراء، وهي جزء من الحمولة، ما زالت هناك، غير أنّها، خلافًا للأشياء الأخرى، لم تحفظ جيّدًا، فبدت قاسية كخشبٍ استوائي وتساقط معظم وبرها عن الجلد: لذا فقدت قيمتها التجاريّة. مع ذلك انتقى فيرّي جلد ثعلبٍ أبيض بدا أفضل حالاً من الفراء الأخرى، وعمد إلى إذابة الجليد عنه لكي يقدّمه هديّة، ولكن لِمَن؟ فهذا ما سنراه لاحقًا. في ما تبقّى ممّا كان مطبخًا في الماضي، كان على فيرّي أن يردع أنغوتريتوك بالقوّة عن فتح علبة لحم قرود محفوظ انتهت صلاحيّتها منذ نحو نصف قرن من الزمن. كان مؤسفًا في نظرهم، من دون شكّ، أنّهم لم يستطيعوا حمل الأشياء الكثيرة التي بقيت على متن الناشيليك، كمصابيح النحاس الجميلة، على سبيل المثال، وكتابٍ مقدّس فاخر التجليد، وسُدسيّة رائعة. غير أنّ حملَهم بات أثقل ممّا يستطيعون حمله في طريق عودتهم، ولا حاجة بهم إلى فائضٍ في الأمتعة. هكذا بعد أن تناولوا طعام الغداء، حان وقت العودة.

أبطأ الحمل الفائض سيرهم، فاستغرقوا وقتًا طويلاً لبلوغ بورت راديوم. مثل فُرضة التوقيف التي تنطلق من دون سابق إنذار، كانت أنصالٌ من رياح الصقيع تهبّ أحيانًا لتقطع عليهم تقدّمهم، وتبطئ سيرهم، فيما الربيع القطبي يسبّب صدوعًا مفاجئة في الأرض المجمّدة: ذات مرّة خوّض فيرّي في حفرة حتّى وركيه، وتطلّب انتشاله ثمّ تجفيف ثيابه وتدفئته جهدًا ووقتًا كبيرين. كانوا، في طريق الإياب، أقلّ إقبالاً على تبادل الأحاديث ممّا كانوا في طريق الذهاب؛ يأكلون على عجل ولا

تغمض لهم عينٌ إلاّ نصف إغماضة؛ وكان فيرّي لا يفكّر، على كلّ حال، إلاّ بغنيمته. لدى وصولهم إلى بورت راديوم، تدبّر له أنغوتريتوك، من طريق أبناء عمومةٍ غامضين، حجرةً ذات جدران إسمنتيّة في نادٍ ما، أو نُزُلٍ ما، هو كلّ المتوافر في تلك الناحية لجهة الخدمات الفندقيّة. وعندما اختلى بنفسه أخيرًا في تلك الحجرة فتح الحقائب، وأحصى محتوياتها.

كانت محتوياتها، كما كان متوقّعًا، عبارة عن متحجّرات نادرة من الفنّ البالي القديم، تنتمي إلى أساليب متنوّعة كان دولاهاي وبعض الخبراء الآخرين قد أطلعوه عليها. من بين أشياء أخرى، كان هناك نابان لخرتيتٍ محفوران ومطليّان بالفيفيانيت الأزرق، وستّة أزواج من نظّارات الثلج المقدودة من قرون الرِنَّة، وحوت صغير منحوت من فكّ حوت، ودرع من العاج ذات سيور، وآلة لفقء عيون الرِنّة الكنديّة من قرون الرِنّة الكنديّة، وحجارة مكتوبة، ودمى مَرْوٍ وكُرات قرنٍ من عَظمِ زَندِ الفقمة، وقرون ثيران مُمَسَّكة، وأسنان كركدنّ البحر وسمك القرش المحفورة، وحلقات ومخارز مصنوعة من نيكل النيازك. كان بينها أيضًا عدد لا بأس به من الأحراز السحريّة والجنائزيّة على هيئة حلوى الكمّونيّة أو البَكرة، مصنوعة من حجر الطّلقِ أو اليَشْم المصقول، من اليشْب الأحمر، من الأردواز الأخضر ومن الصوّان الأزرق والرمادي والأسود وجميع ألوان المرمر المرقّط. ثمّ أقنعة من الأنواع كافّة، وأخيرًا، مجموعة من الجماجم ذات الأفواه المطميّة بكسورٍ من الحجر الزجاجي الأسود، وذات المحاجر المسدودة بكراتٍ من عاج أفيال البحر المفصّصة بحدقاتٍ من السَبَج. ثروة!

١٣

دعونا، بعد إذنكم طبعًا، ننتقلَ، هنيهاتٍ، إلى أجواء أخرى بصحبة الرّجل الذي يُدعى باومغارتنر. اليوم الجمعة الموافق ٢٢ حزيران، وفيما فيرّي يسير متعثّرًا على طوف الجليد، يرتدي باومغرتنر طقمًا مخطّطًا من الصوف الخالص الرماديّ الداكن، وقميصًا أردواز وربطة عنق غامقة. وعلى الرّغم من أنّ حلول الصيف أُعلنَ رسميًا، فإنّ السماء ملائمةٌ لهذا الزيّ، إذ تتندّى بين الفينة والفينة برذاذٍ متقطّع. باومغارتنر يسلُك صعدًا شارعَ السويس الذي نبلغه بواسطة مترو شاتو ــ روج في الدائرة الثامنة عشرة في باريس. إنّه أحد الشوارع الثانويّة القريبة من جادّة باربيس حيث تزدهر محال القصّابين الأفارقة، وباعة الدجاج الحيّ، والأطباق اللاقطة وأقمشة البازان والواكس والأجاكس ذات الألوان الزاهية، المصبوغة في هولندا.

لجهة الأرقام الزوجيّة من شارع السويس، سُدَّت معظم الأبواب والنوافذ من المباني القديمة الكارِبَةِ، بالدَّبْشِ، كيفما اتفق، أمارةً على الإخلاء قبل الهدم. أحدها لم يُصَمَّ كليًا: فثمّةَ

نافذتان في الطبقة الأخيرة لا تزالان تتنفّسان قليلاً. مصاريعها مكسوّةٌ بالغبار حاجبة ستائرها الهابطة ـ على زجاج أحدها شقّ مواربٌ ضُمّدَ بشريط لاصقٍ، والآخر مفقودٌ فاستبدل بكيس للنفايات أسود. مصراع بوّابة المبنى المفتوح قليلاً ينفرجُ بدايةً عن صفّ من صناديق البريد المُغْفَلَة المبقورة، ثمّ عن سلّم ذي درجاتٍ غير مستوية وذي حوافّ مشقّقة. هنا وهناك، ثبّتت السلطات البلديّة المختصّة علاماتٍ ذيّلت بتواريخ مدوّنة بخطّ اليد تدليلاً على تفاقم حال التصدّع. ولأنّ إضاءة الدرج الأوتوماتيكيّة معطّلة، يتسلّق باومغارتنر السلّم متلمّسًا طريقه حتّى الطبقة الأخيرة. يطرق بابًا ويهمّ بدفعه من دون أن ينتظر الجوابَ، فإذا بالباب كأنّه يُفتح من تلقائه ويخرج منه رجلٌ طويل القامة، نحيلٌ، في الثلاثينات من عمره، يكاد لاستعجاله يوقع باومغارتنر أرضًا. في شبه العتمة السائدة لا يتسنّى لباومغارتنر أن يدقّق بملامح هذا الرجل ـ وجه مستطيل وجبين بارز، ابتسامة لئيمة وأنف معقوف، ساقان رشيقتان كرسم الفاصلة، سَكُوتٌ، ولا ريبَ في أنّه أجهر إذ يهبط السلّم المعتمَ قفزًا من دون تردّد.

يُدرك باومغارتنر جيّدًا إذ يدفع البابَ أنّه لن يرغب في أن يغلقه وراءه: فالحقّ أنّ الخربة المُغمّة التي يدخلها لا توحي بالرفاهيّة، بل هي أشبه بأرض بور قلّبها المحراث. وإذا كانت محاطة بأربعة جدران ومحميّة بسقفٍ فإنّ أرضيّتها مكسوّة تمامًا بالنفايات، علب أطعمة منتهية الصلاحية، وأكداس من الأمتعة العتيقة، مجلات ممزّقة ونشرات إعلانيّة متعفّنة يُنيرها عَقِبُ شمعة ثُبّت في علبة فارغة ووضع على صندوق خشب. التدفئة المفرطة بواسطة مدفأة على البوتان، تجعل الهواء كتلة من

روائح العَطَن والعَفَن والغاز المشتعل. يجد صعوبة في التنفّس. جهاز راديو ـ كاسيت بقرب فراش يبثّ خليطًا من الصخبِ والموسيقى بصوت خفيض.

ملامح الرّجل الممدّد على فراش الإسفنج المتقيّح ذاك، وسط كتلة من الأغطية والوسائد المبقورة، ليست واضحة هي أيضًا. يقترب باومغارتنر منه فإذا بالرجل الشاب ذي العينين المغمضتين في حالٍ مزرية. لا بل يبدو محتضرًا. على جهاز الراديو ـ كاسيت ملعقة صغيرة ومحقنة تحت الجلد، وبقيّة قطن متّسخ وفضلة ليمونة حامضة، فيدرك باومغارتنر على الفور حقيقة الأمر، لكنّ القلق يساوره برغم ذلك. أنتَ، أيها الراقود، قال، أنت. الراقود. وإذ يقترب منه منحنيًا يلاحظ أنّ الراقود يتنفّس، فالظاهر أنّ الأمرَ، لا يتعدّى انتكاسةً في المزاج، إن لم يكن إفراطًا في المزاج. وبأيّة حال، مهما يقترب من الشاب الراقد على فراشه وحتّى بعد أن أوقد شمعة أخرى لتحسين إضاءة المكان، تبقى ملامح الراقود غير واضحة، كأنّ الطبيعة حرمته من ملامح خاصّة به. إنّه شخص شاحبٌ بلا رونق، يرتدي ملابس غامقة بلا رونق هي أيضًا، غير أنّه لا يبدو ممّن اعتادوا إهمال مظهرهم على نحوٍ مفرط. وها هو، على كلّ حال، يفتح عينًا.

حتّى أنّه يُنهض جذعه واهنًا مستندًا إلى ساعده الأيسر ويمدّ يدًا نحو باومغارتنر الذي يسحب يده على عجل بعد أن تلامسَ تلك الأصابع الفاترة، الدهنيّة، ثمّ يتراجع إلى الخلف بحثًا عن كرسيّ فلا يجد إلاّ منضدة خفيضة؛ فيعدل عن الجلوس ويلبث واقفًا. يتهالك الآخر مجدّدًا على فراشه وهو يشكو شعوره

بالغثيان. ربّما ما أحتاج إليه الآن، قال بصوت مجهد، هو بعض الشاي، لكنّني عاجز عن النهوض، عاجز كلّيًا عن النهوض. ترتسم على وجه باومغارتنر علامات امتعاض، غير أنّه بالتأكيد لا يستطيع أن يرفض، إذ يبدو أنّه يحتاج فعلاً إلى الآخر صاحيًا، متمالكًا نفسه. يلاحظ وجود ما يحسب أنّه غلاّية موضوعة بقرب ما يحسب أنّه مغسلة، فيملأها ماءً ويضعها فوق البوتاغاز، ثمّ يعثر في ركنٍ من الملاذ المهجور على طاسٍ بلا عُروة وعلى كوبٍ مثلوم. لا صلة لأحد الوعائين بالآخر لا من حيث الشكل ولا من حيث الحجم. الراقود الذي أغمض عينيه مجدّدًا راح يتبسّم، الآن، ويكشّر على التوالي. وريثما يغلي الماء راح باومغارتنر يبحث عبثًا عن سكّر، فيأتي عوضًا عنه ببقايا الليمونة الحامضة، فيما جهاز الراديو ــ كاسيت يواصل قتلَ الوقت. إذًا، قال الراقود بعد أن احتسى شايَه، متى سنباشر الأمر؟

في غضون أيّام قليلة، يجيب باومغارتنر ساحبًا من جيبه هاتفًا خلويًّا، يجب أن يتمّ ذلك خلال هذا الشهر. المهمّ أنّه من الآن فصاعدًا ينبغي لي أن أتمكّن من الاتصال بك في أيّ وقت، يقول وقد مدّ يده نحوه ليعطيه الهاتف. يجب أن تكون مستعدًّا فور ظهور الشيء.

يلتقط الراقود الهاتف متحسّسًا جانب أنفه الأيسر بسبّابته، ثمّ بعد أن تفحّص الهاتف الخلوي وإصبعه على التوالي: رائع، يخلص إلى القول بعد هذا التفحّص، كم الرقم؟ لا تُشغل بالَك بالرقم، يقول باومغارتنر، أنا الوحيد الذي يعلم ما هو هذا الرقم، فلندع الأمور على ما هي عليه الآن. ولكن دعني أخبرك

شيئًا عن هذا الهاتف. فهو لم يُضبَط لإجراء المخابرات منه، كما تعلم. ولا يستَخدَم إلاّ لتلقّي المخابرات. لا يُستَخدم إلاّ لإسماعك صوتي أنا، عندما أتّصل بك، هل تفهم ما أقول؟ حسنًا، يقول الشاب، متمخّطًا بطرف كمّه. إذًا يتعيّن عليك طبعًا أن تبقيه معك، يقول باومغارتنر، ساكبًا الشاي في الوعائين. طبعًا، يقول الراقود. يبقى، يردف الراقود قائلاً، إنّني ربّما احتجت إلى سلفة صغيرة على الأتعاب.

بالتأكيد، يقول باومغارتنر، مستخرجًا من جيبه ستّ أوراق نقديّة من فئة الخمسمئة فرنك مجموعة بِشَكْلةٍ. لا بأس بهذا القدر، يقول الراقود معلّقًا وقد نزع الشكلة ليردّها إليه. ولو زدتني قليلاً لكان أفضل بالطبع. لا، يقول باومغارتنر مشيرًا إلى العدّة الموضوعة على الراديو ــ كاسيت، أنا أعرفك جيّدًا، إن أعطيتك المزيد فستنفق كلّ ما تملك على تفاهاتك هذه. خلال المفاوضات التي تتواصل على أثر ذلك والتي تسفر في النهاية عن زيادة أربع أوراق نقديّة من الفئة نفسها، يُقوّم باومغارتنر تلقائيًّا الشكلةَ بحيث يجعلها سلكًا شبه مستقيم.

بعد ذلك، في الشارع، يتثبّت باومغارتنر من أنّ ملابسه ما زالت نظيفة ولم تعلق بها أيّ قذارة أو أيّ جزيئة عَطَنٍ من أجواء زريبة الراقود. ومع ذلك ينفضها بيديه كأنّ الهواء الفاسد قد لوّثها على الرّغم من حرصه الشديد على الابتعاد عن كلّ شيء، فما يحتاج إليه فور وصوله إلى منزله هو أن يغسل يديه وينظّف أسنانه جيّدًا. في الأثناء يقصد محطة شاتو ــ روج ليستقلّ المترو عائدًا إلى منزله. لا تزال ساعات الذروة بعيدة فيجد

المترو نصف فارغ: عدد كبير من المقاعد الشاغرة، غير أنّ باومغارتنر يفضّل الجلوس على أحد المقاعد الجانبيّة المتحرّكة.

في المترو، يفضّل باومغارتنر الجلوس على أحد المقاعد الجانبيّة المتحرّكة، حتّى لو كانت العربات شبه فارغة، على الضدّ من فيرّي الذي يفضّل الجلوس على المقاعد العريضة. فمن شأن باومغارتنر إذا اختار الجلوس على المقاعد التي تقابلها مقاعد مماثلة، أن يُعرّض نفسه حتمًا للجلوس قبالة شخص ما أو بجانب شخص ما، أو الاثنين معًا على الأرجح. الأمر الذي سيؤدّي حتمًا إلى احتكاكات ومضايقات وملامسات وصعوبات في شبك الساقين، ونظرات طفيليّة وأحاديث لا داعيَ لها. حتّى في أوقات الذروة حيث يضطرّ إلى الوقوف لإفساحِ المجال، يفضّل أن يجلس على المقعد الجانبي المتحرك. فهو مقعد فردي، ومتحرّك، وليّن الاستخدام. ممّا لا شكّ فيه أنّ المقعد المتحرك المعزول هو المفضّل في نظره على المقعد المتحرّك المزْوج، الذي قد يعرّض الجالس عليه أحيانًا إلى مضايقات الاختلاط ـ وإن كانت أقلّ إضرارًا بأيّة حال مما يسبّبه المقعد الثابت من مضايقات. تلك هي طباع باومغارتنر.

بمضيّ نصف ساعة، لدى وصوله إلى مسكنه الجديد في جادّة أكسلمان، تنبّه إلى أنّ السلك المعدني لا يزال في يده، فالواضح أنّه لم يتمكّن من رميه أو أنّه لم يُرد ذلك: فغرزه في أصيص نبتة ثمّ استلقى على كنبة. سيغمض عينيه، يودّ حقًّا أن ينام، أن ينسحبَ من كلّ ما يجري لعشرين دقيقة، لأقلّ من نصف ساعةٍ، رجاءً، ولكن لا، لا سبيل إلى الراحة.

١٤

فيرّي، هو أيضًا، لم يغمض له جفنٌ طوال الليل. راكعًا أمام الحقائب المفتوحة، قلّب كلّ غَرَضٍ ألفَ مرّة من كلّ جهة. أمّا وقد أنهكت قواه، فقد بات عاجزًا عن التطلّع إليها، لا يدري ماذا يرى، فاقدًا حتّى القدرة على البهجة. أعياه الانحناء طويلاً فنهضَ شاكيًا، مقتربًا من النافذة، وإذ رأى الصباح طالعًا، حَسِبَ أنّه سهر حتّى طلوع الصباح، لكنّه استدرك، لا، ففي بورت راديوم، لم يغمض للنهارِ جفنٌ هو أيضًا.

كانت حجرة فيرّي أشبه بعنبر نوم فرديّ، وهي عبارة تنمّ عن تناقض في حدّ ذاتها ومع ذلك كانت على ذاك النحو: جدران باهتة وعارية، لمبة في السقف، أرضيّة مكسوّة باللينيليوم، مغسلة مشقّقة عند إحدى الزوايا، وسريران متراكبان أحدهما فوق الآخر اختار فيرّي السفلي منهما، وتلفزيون معطّل، وخزانة لا تحتوي إلاّ على ورق لعب ــ وهو أمر يبدو مثاليًا، للوهلة الأولى، للنجّاحة، غير أنّه في الحقيقة غير قابل للاستخدام، لأنّ آس الكُبّا مفقود من بين أوراقه ــ، رائحة

شياط حرّيفة وتدفئة متقطّعة. ليس لديه ما يقرأه، غير أنّ فيرّي لم يكن راغبًا في القراءة بأيّة حال، حتّى تمكّن من النوم أخيرًا.

بعد زيارة الناشيليك، كان مُرتقبًا أن يستدركوا أنفاسَهم لبعض الوقت في بورت راديوم ــ والحقّ أنّك كلّما استدركت أنفاسك هناك انبعث بخارٌ لولبيّ، كثيف كالقطن، من بين شفتيك قبل أن يهوي محطّمًا على رخام الهواء المجمّد. وبعد أن تلقّى أنغوتريتوك ونانباسيكادلاك أجرهما وعبارات الشكر، انطلقا قاصِدَيْن توكتوياكتوك، أمّا فيرّي فاضطر إلى البقاء أسبوعين طويلين في هذه المدينة التي تقتصر خدماتها الفندقيّة على هذه الحجرة الملاصقة لمغسلٍ للثياب. لم يدرِ فيرّي بالضبط إذا كان المبنى ناديًا، أو ملحقًا بنادٍ، أو نُزلاً أو عنبرَ نوم للعمّال، نظرًا لكونه فارغًا من النزلاء معظم الوقت ونظرًا لصمتِ مديره الدائم. لم يكن ثرثارًا بأيّة حال، ربّما لأنّه، في قرارة نفسه، كان يفضّل أن يبقى على حذره منه، إذ يندر مجيء السيّاح إلى هذه الأصقاع التي نسيها البشر كما نسيها الله: النهارات طويلة لا تنتهي، ووسائل اللّهو معدومة، أمّا الطقس فقليلٌ عليه أن نصفه بالرداءة. وبما أنّه لا وجود لا لمركز شرطة ولا لممثّلين عن أيّ سلطة أخرى، لم يكن مستغربًا أن يُشتَبَهَ بكلّ غريبٍ مقيم بأنّه فارّ من وجه العدالة. بذلَ فيرّي الكثير من الأيّام والدولارات والابتسامات والعبارات والإشارات لكي يتمكّن أخيرًا من تبديد شكوك هذا المدير.

لم يكن يسيرًا أيضًا العثور، بين سكّان بورت راديوم، على حرفي قادر على صنع مستوعبات مناسبة لحمولة الناشيليك.

ويزداد الأمر صعوبة إذا علمنا أنّه لا وجود عمليًّا للخشب في ظلّ مناخ مماثلٍ: فالخشب وهو كسواه من السلع التي يتعذّر الحصول عليها إلاّ ببذلِ السعر المناسب. التقى فيرّي أمين مخزن السوبرماركت الذي وافق على صنع المستوعبات من مخلّفات الصناديق المتينة التي تُستخدم عادةً لشحن التلفزيونات والبرّادات وبعض الآلات الصناعيّة الأخرى. لكنّ الأمر سيستغرق بعض الوقت وكان على فيرّي أن ينتظر. كان في العادة يلازم حجرته لأنّه لا يرغب في الابتعاد عن تحفه، غير أنّ الأمر يضجره فيضيق، أحيانًا، بتأمّلها. الواقع أنّ بورت راديوم من المدن المملّة جدًّا، إذ لا تشهد حدثًا يُذكَر، وخاصّة أيّام الآحاد حيث تتضافر، عند ذروة تأزّمها، عناصر الضجر والصمت والبرد.

كان يحدث له أن يقوم بجولة في الأنحاء، ولكن ليس في المدينة ما يستوقف النظر: عدد الكلاب فيها يبلغ ثلاثة أمثال عدد البشر، بالإضافة إلى عشرين منزلاً ذات ألوان غامقة، وأسطحٍ من الزنك، وصفّين طويلين من المباني المطلّة على المرفأ. عبر الشوارع شبه المقفرة كان يدور دورة كاملة حول هذه المباني المشيّدة على نحوٍ مستدير لكي لا يتشبّث البرد بزواياها، ولكي لا تفسح للجليد إلاّ الأقل من المكامن. وفي طريق إلى رصيف الميناء كان يسير بمحاذاة المستوصف المطلي بالأصفر، ومكتب البريد المطلي بالأخضر، والسوبرماركت المطلي بالأحمر، ومشغل تصليح الآليّات المطلي بالأزرق والذي صُفّت أمامه عربات الجليد. وعند المرفأ صفوف أخرى من المراكب التي رُفِعت على ركائز بانتظار تحسّن الطقس. كان معظم الثلج قد ذاب

على الأرض، غير أنّ طوف الجليد، المثقوب فقط بقناة ضيّقة، كان لا يزال يسدّ الجزء الأعظم من الخليج.

كان يحدث له في غمرة السكون المُطبق، أن يلاحظ بعض النشاط. شخصان أريبان يستغلاّن ذوبان الجليد، ليحفرا في الأرضيّة اللّيّنة مؤقتًا حفرًا لدفن من سيفارق الحياة من أقاربهما خلال الشتاء المقبل. شخصان آخران، محاطان بمواد صنعيّة جاهزة، يشيّدان منزلهما المُركّب أجزاءً بحسب الإرشادات التي يبثّها شريط ڤيديو خاصّ بهذا الشأن؛ ومعكّرةً صفوَ السكون، عُصبة من هواة الأدوات الكهربائيّة المحليّين تعرض أفلام ڤيديو في الهواء الطلق. ثلاثة أولاد يحضرون قناني فارغة إلى السوبرماركت. ثمّ، لجهة الميناء، كنيسة معدنيّة قديمة تطلّ على الضفّة حيث قاربا زودياك رماديّان يعبران القناة، يُنزلان هادرَين اثني عشر راكبًا ملتحفين بستراتهم الأنوراك ومنتعلين أحذية غليظة. كان غطاء البحيرة الجامد قد بدأ يتصدّع ألواحًا ذات أشكال بسيطة، أشبه بقطع البازل المُعَدّ للمبتدئين، وأبعد منها، نحو مئة كتلة من الجليد، كبيرة وصغيرة، تتمايل متهادية تحت الشمس الباهتة. في طريق عودته إلى مسكنه، صادف فيرّي مجدّدًا الرجلين اللذين يشيّدان منزلهما قطعةً قطعة. ولا بدّ أنّهما، طلبًا لبعض السلوى في فترة استراحة، استبدلا شريط الإرشادات الذي كانا يشاهدانه بشريط آخر ذي طابع بورنوغرافي كانا مستغرقين في مشاهدته، واقفين بلا حراك، متجهّمين، لا ينبسان بكلمة.

خلال الأيّام الأولى، تناول فيرّي وجبات طعامه وحيدًا في

حجرته، ولم يسعَ لإقامة أيّة صلةٍ بالناس ما عدا صاحب النزل. غير أنّ محادثات صاحب النُزل، على الرّغم من زوال خشيته، لم تكن كما تكون المحادثات. ثمّ إنّ التواصل بالإشارة والإيماء أمرٌ مملّ وشاقّ. خلال جولاته القليلة في الخارج كان السكّان المحلّيون يبادرونه بالابتسام فيبادلهم الابتسام لا أكثر. ثمّ ذات أمسية قبل رحيله بأمسيتين، وفيما كان يلقي نظرة خاطفة، عبر زجاج نافذته المصفرّ، إلى شبّاك أحد المنازل، لَمَحَ فتاةً على خلفيّة مُضاءة تبسّمت له كما كان الآخرون يتبسّمون. وكما كان يبادل الآخرين بسمتهم تبسّم لها، ولكن هذه المرّة تَدَخّل أبوا الفتاة. جَذِلَيْن، راغبَيْن في تمضية الوقت، بادرا إلى دعوته لاحتساء كأس من الشراب: لكي تكون كؤوس الويسكي باردةً طلبوا من الفتاة أن تذهب إلى أقرب كتلة جليد لتأتي بقطعٍ من الثلج، ثمّ شربوا أنخابًا بإنكليزيّة رديئة، وسرعان ما دعوه لتناول العشاء المكوّن من قِشدة الفقمة وشرائح لحم الحوت. ولكن قبل ذلك اصطحبوه لتفقّد منزلهم: جدران معزولة على أحسن وجه لحفظ الحرارة، تلفزيون، هاتف، مدفأة ضخمة ومطبخ حديث، أثاث من خشب أبيض تجاريّ النوعيّة مصدره الشمال، ولكن يمكن العثور على مثيله في أسواق الضواحي الباريسيّة.

هكذا تآلف فيرّي مع جميع أفراد أسرة أبوتيارجوك. خلال تناولهم العشاء وجد صعوبة في تخمين مهنة الأب قبل أن يُدرِك أنّه لا يزاول مهنة على الإطلاق. فهو مستفيد من التعويضات العائليّة الحكوميّة، ولذا يفضّل أن يصرف أوقاته في صيد الفقمة في الهواء الطلق بدل أن يكدّ ويعرق داخل مكتبٍ ضيّق في

مصنع ما أو على متن سفينة. كان الرجل يرى أنّ الصيد في حدّ ذاته هو وسيلة مريعة لكسب الرزق: ولا شيء يضاهي صيد الفقمة، إنّها الرياضة الوحيدة التي توفّر متعة حقيقيّة. وإذ حاول فيرّي أن يُجاري عادات مضيفيه، شرب نخبَ صائدي الفقمة، ثمّ شربَ بحماسة أكبر نخب الفقمة بصورة عامّة، ولم يلبث المضيفون، وقد أثار الشراب عواطفهم، أن دعوه، إذا شاء، للمبيت عندهم. فبإمكانه، دونما حَرَج، أن يشارك الفتاة حجرتها، وهكذا يتبادلون عند الصباح سرد أحلامهم على مسامع بعضهم بعضًا، على جري عادة الأسر جميعها، في الأصقاع النائية. لم يستطع فيرّي، برغم محاولاته، رفضَ الدعوة، إذ كانت المصابيح تشيع إضاءة رقيقة والراديو يبثّ أغنيات طوني بينيت. كان الجوّ دافئًا، والمدفأة تواصل هديرها الروتيني، والجميع يداعب الجميع ويضحك، وكانت الفتاة تتبسّم له، آه.. حدّثيني عن بورت راديوم.

١٥

إثرَ زيارته للراقود، ذلك اليوم، عاد باومغارتنر إلى مَسْكنه الجديد بالمترو، جالسًا على مقعد متحرّك، ثمّ انقضى أسبوعٌ من الزمن. كان ذلك المسكن غير بعيد عن شارع ميشال ـ آنج، وراء بوّابةٍ مُنفِّرة في جادّة أكسلمان: ثلاث فيلاّت يعود بناؤها إلى العام ١٩٣٠ موزّعةً كيفما اتّفق وسط حديقة فسيحة، وراءسفارة ڤيتنام.

والحال أن لا أحد قد يتصوّر كم هي جميلة من الداخل الدائرة السادسة عشرة من باريس. نحسب أنّها كئيبة كما تبدو من الخارج، غير أنّنا نخطئ في حسباننا هذا. هذه الجادات الضارمة والشوارع المتقشّفة المصمّمة كأسوار حصينة أو كأقنعة، ليست كئيبة إلاّ في ظاهرها: فهي تحجب مساكن جذّابة على نحوٍ مذهل. ذلك أنّ أبرع مكائد الأثرياء تكمن في الإيحاء بأنّهم يسأمون في أحيائهم، حتّى يكاد الناس أن يرثوا لحالهم ويُشفقوا لامتلاكهم الثروات كأنّ اليُسرَ إعاقة، كأنّه يلزم صاحبه بحياة كَدِرة. ولكن كم نخطئ في الحسبان!

في الطبقة الأخيرة من إحدى الڤيلاّت الثلاث، يستأجر باومغارتنر، مقابل ثروة، شقّة عازبٍ صغيرة لكنْ فسيحة. السلّم الذي يفضي إليها مطلي بالأخضر الغامق، كأنّه أسود. أمّا الشقّة نفسها فجدرانها من الرخام الأسمر، والمدفأة من الرخام المعرّق بالأبيض، ومصابيح كهربائيّة مثبّتة بالسقف. أرفف طويلة شبه فارغة، طاولة طويلة وعليها طبقٌ متّسخ، كنبة طويلة مكسوّة بغطاءٍ أزرق. الحجرة فسيحةٌ كفاية بحيث يبدو البيانو ماركة Bechstein، الموضوع في ركن منها، مجرّد تفصيل، وبحيث يبدو جهاز التلڤزيون الضخم، الموضوع في ركنٍ آخر، أشبه بقطعة أثاث صغيرة. لا وجود لأثاثٍ آخر غير مفيد: وحدها خزانة واسعة تحتوي كمّيّةً كبيرة من الملابس الجديدة. نوافذ عالية مطلّة على أشجار أكاسيا، وقرنفل ولبلاب وعلى حصباء بَعدَها شرفة محاطة بإفريز ضيّق أجوف مُلئ بالتراب الذي تنبت فيه، مُرغَمةً متمهّلة، أعشابٌ برّيّة وأعشابٌ أخرى من بينها الهندباء البريّة.

منذ انتقال باومغارتنر للإقامة هنا، أي منذ أيّام قليلة، لم يغادر شقّته إلاّ فيما ندر. إنّه لا يحتاج إلى التسوّق إلاّ قليلاً، كما أنّه يطلب طعامًا جاهزًا بواسطة المينيتيل. يلبث مُعتكفًا كأنّه في انتظار حلول الساعة. يكاد لا يفعل شيئًا طيلة النهار. يوزّع إكراميّات سخيّة على سُعاة الخدمة المنزليّة الذين يأتونه بطعامه واحتياجاته. حياته منظّمة كما ينبغي أن تكون حياة العازب، ويبدو أنّه يُجيد سُبُلَ العيش وحيدًا. غير أنّه ليس عازبًا. والدليل على ذلك أنّه يتصل بزوجته هاتفيًّا.

يتيح له الجهاز اللاسلكي أن يتنقّل في أرجاء الشقّة وهو يكلّمها. أجل، يقول منتقّلاً من ركن البيانو إلى النافذة، أقصد أنّك تعلمين جيّدًا كيف تكون حالُ من يعيش وحيدًا. كثير من الطعام الجاهز، يقول مفسّرًا مستخدمًا جهاز التحكّم عن بعد لقطع الصوت عن التلفزيون واستعراض البرامج على مختلف المحطّات: مسلسلات، أفلام وثائقيّة، برامج تسلية. لا، يقول، الڤيتامينات، صحيح، نسيت الڤيتامينات. على كلّ حال، يقول مستدركًا من دون أن ينهي عبارته قاطعًا هذه المرّة الصورة لكي يسرّح بصره عبر النافذة: غيوم، وقمعيّاتٌ أرجوانية وعصافير عقعق.

حسنًا، ولكنّني بأيّة حال لم ألحظ صيدليّة في هذه الناحية، يتابع قائلاً، عائدًا أدراجه باتجاه البيانو، جالسًا إليه ساعيًا إلى ضبط ارتفاع مقعده. يدوس على الخافضة وينقر على لوح المفاتيح فاصلة ثلاثيّة هي اللحنَ الوحيد الذي يجيد عزفَه. آه، أجل، هل سمعتِ، لا، إنّها ربع نوتة. ولكن أصغي إليّ جيّدًا، من المستحسن أن تستعلمي فورَ عودته، أليس كذلك؟ يقول ناهضًا من مكانه مبتعدًا عن البيانو. وإذ يمرّ بقرب أصيص زهور، يسحب السلك المعدني من حيث غرزه ذلك اليوم: يمسح عنه التراب ويلويه صانعًا منه أشكالاً مختلفة، لوليًا، سهمًا، هوائيّ تلفزيون.

ولكن ما أدراني أنا، صاح باومغارتنر فجأة، بإمكانك أن تغويه قليلاً أو أيّ شيء من هذا القبيل. كفّي، طبعًا، طبعًا تعلمين، قال مبتسمًا وهو يفركُ أنفه. ولكنْ أعتقد أنّه من

الأفضل أن أتوارى قليلاً عن الأنظار، لا أريد المجازفة، فقد أصادف أحدًا. سأبقي على الشقّة، غير أنّني سأقضي بضعة أيّام في الريف. طبعًا سأعلمك بالأمر. لا، سأنطلق الليلة، فأنا أفضّل القيادة أثناء الليل. طبعًا. طبعًا لا. أجل، أقبّلك، وأنا أيضًا. يقطع الخطّ. ثمّ يفتحه ويطلب الرقم الذي لا يعرفه أحد سواه، رقم الهاتف الخلوي الذي أعطاه للراقود. يرنّ الهاتف لبعض الوقت قبل أن يجيب أحدهم. آلو، أجل، يقول الراقود، هذا أنا، آه، صباح الخير يا سيّدي. للوهلة الأولى لم يبد صوت الراقود متعشًّا كما ينبغي: إنّه خليط أجشّ وبطيء، لا تميّزه أي نبرة، متناومٌ بعض الشيء، حيث حروف العلّة تجرجر وراءها الحروفَ الصوامتَ المتثاقلة.

وعند الراقود، حيث الإضاءة خافتة كعادتها، ينهمك الرجل الطويل الذي يرتدي ملابس غامقة والذي التقاه باومغارتنر، ذلك اليوم، على السلّم، في إعدادِ شيء ما، لا نعرف ما هو، فوق مرآة صغيرة مستخدمًا شفرة جيليت بقرب الراديو – كاسيت، نكاد لا نرى شيئًا. الرجل الفارع القامة منهمكٌ في ما يفعل، وعلى شفتيه إبتسامة فاترة.

ماذا، يقول الراقود، ما به، صوتي؟ لا، لم أتعاطَ شيئًا، كلّ ما في الأمر هو أنّني كنت نائمًا، لا أكثر، فأنا لا أشعر بانتعاش عندما يوقظني أحدٌ من النوم. ألستَ مثلي؟ (الرجل الطويل الغامض يكاد أن يطلق قهقهاتٍ لا تتناسب مع الموقف، حريصًا مع ذلك ألاّ تبدّد أنفاسُه خطّين أبيضين تحت أنظاره.) المشكلة هي أنّني سأحتاج إلى مزيد من السيولة. (يهزّ الرجل

الغامض رأسه بقوّة.) ماذا تقصد بقولك إنّه أمر محال؟ (يقطّب الرجلُ ما بين حاجبيه.) ولكن مهلاً، مهلاً. لقد أقفل الخطّ قبل أن أنهي كلامي؛ أمرٌ غريب حقًّا.

ينصرف باومغارتنر، بعد أن أقفل خطّ الهاتف، إلى حزم حقائبه. ولمّا كان يتأنّى في اختيار ملابسه، كلّ قطعة منها بالتناسق مع الأخرى، منتهزًا الفرصة لتفحّصها جميعًا، يستغرقه الأمر نحو الساعة، غير أنّ أمامه متّسعًا من الوقت: لن يغادر باريس قبل هبوط الليل. سيسلك الجادة الطرفيّة حتّى البورت دورليان، ومنها سيسلك الطريق السريعة باتجاه جنوب غرب فرنسا مرورًا ببواتييه، حيث سيقضي ليلته.

خلال الأسابيع التالية سيتجوّل باومغارتنر كمتنّعم بالعطلة الصيفيّة في أنحاء منطقة الأكيتين، وحيدًا، منتقلاً من فندقٍ إلى آخر كلّ ثلاث ليال، آويًا إلى فراشه وحيدًا كلّ ليلة. لن يتصرّف كمن يتّبع مسارًا محدّدًا أو خطّة معيّنة. وسرعان ما يحصر تنقّلاته ضمن حدود مقاطعة البيرينه الأطلسيّة، ويصرف أوقاته زائرًا المتاحف القليلة التي يصادفها، كما يزور الكنائس كلّ صباح، وكلّ المواقع السياحيّة تكرارًا، ويذهب في فترات ما بعد الظهر لمشاهدة أفلام أجنبيّة ناطقة بالفرنسيّة في صالات مقفرة من الناس. أحيانًا، يقود سيّارته ليلاً، لساعاتٍ متتالية من دون غاية، غافلاً عن المناظر الطبيعيّة في الأغلب، منصتًا، بشرود، إلى محطّات إذاعيّة إسبانيّة، لا يتوقّف إلاّ لقضاء حاجة إلى جانب الطريق، وراء شجرة أو في أخدود، كما أنّه أحيانًا قد يقضي نهاره بطوله في حجرة الفندق، أمام أكداس من

المجلاّت والمسلسلات التلفزيونيّة.

باومغارتنر الذي سافر سعيًا وراء التخفّي والتواري عن الأنظار الفضوليّة، سيحرص على الاختلاط بأقلّ عدد ممكن من الناس، ولكن خشية أن يفقد عادة الكلام، سيواظب كلّ ليلة على التحدّث هاتفيًّا مع زوجته ومع الراقود كلّ أربع أو خمس ليال. فيما عدا ذلك، فهو لن يقْرُب أحدًا، سواء خلال إقامته في فندق «لو زيفير» (بايون) أو في نُزل «ديموليير» (قرب آنغلي) أو في فندق «آلبيزيا» (ضاحية سان ــ جان ــ دو ــ لوز)، لن يقرُب أحدًا على الإطلاق.

١٦

هو أرنبٌ مجفلٌ لشدّة هلعه، يعدو عند بزوغ الفجر بأقصى سرعته على مساحة شاسعة، مسطّحة ومُعشبة. هو ابن مقرضٍ يُدعى ونستون يطارد هذا الأرنب. وإذ تتراءى لهذا الأخير، من بُعد، فتحة وجاره، يتخيّل، لسذاجته، أنّه نجا وأنّ في الوجار خلاصَه. ولكن لا يكاد أن يندسّ فيه، مسرعًا، لائذًا بمؤخّره، حتّى يلحق به ابن مقرض إلى الملاذ الذي صار فخًّا، ويُطبقُ فكّيه على عنقه ويسفك دمه في العتمة. ثمّ متمهّلاً، يلذّ له أن يمتصّ دمه بنهم، والشاهد على ذلك طقطقة كسور طفيفة وأصداء امتصاصٍ فاضحة. بعد شَبَعه، يتوق ابن مقرض إلى قيلولة يستحقّها، فينام ملء جفونه بجانب فريسته.

هما عاملان فنّيان في مطار باريس ينتظران عند فتحة الوجار. وعندما يُخيّل إليهما أنّ هذه القيلولة قد طال أمدها، يناديان ابن مقرض مرارًا باسمه. فيخرج ونستون بعد هنيهاتٍ، بعينين ناعستين عاتِبتين، ساحبًا جسد الأرنب الضئيل من رقبته التي أنشب فيها أسنانه كالمخالب. يلتقط العاملان الفنيّان جثّة

الأرنب من الأذنين قبل أن يعيدا ابن مقرض، المدعو ونستون، إلى قفصه. وحائرين، كعادتهما، بشأن تقطيع الأرنب واقتسامه وطريقة طبخه والصلصة الملائمة، يستقلاّن عربة كهربائيّة صغيرة ويبتعدان بين مدارج المطار، التي على أحدها هبطت للتوّ طائرة الرحلة QN560 القادمة من مونتريال، والتي نزل منها فيرّي متألمًا متيبّس الأطراف بسبب فارق التوقيت.

لقد اضطرّ إلى البقاء أكثر ممّا كان متوقعًا في بورت راديوم. احتضنته أسرة آبوتيارجوك بحرارة الترحاب حيث بات يتناول كلّ وجبات طعامه، وحيث تأتي الفتاة، كلّ مساء، لتشاركه فراشه، ما حدا به إلى التغاضي قليلاً عن التلكؤ في صنع المستوعبات. حتّى أنّ أجواء الألفة في منزل آبوتيارجوك كانت تنسيه في بعض الأيّام تحفه الثمينة. أيّامًا سعيدة قضاها في بورت راديوم. ولكن عند الفراغ من تجهيز المستوعبات، كان لا بدّ من الاستعداد للرحيل. كان فيرّي يخشى كعادته أن يبدو مُخيّبًا للآمال، غير أنّ الأبوين آبوتيارجوك لم يحملا له ضغينة حين أدركا أنّه لن يُصبح صهرهما، فاتّصفت لحظات الوداع، إجمالاً، بالمرح والبهجة.

لا رحلته على متن التوين أوتير ذات المحرّكين التي تُستخدم في المناطق القطبيّة، ولا التملّص من الجمارك الكنديّة، استغرقا وقتًا طويلاً. ولم يبقَ إلاّ انتظار اليوم الذي سيعود فيه إلى فرنسا. ولقد جاء هذا اليوم. كان يوم أحد أيضًا، في الأسابيع الأولى من شهر تمّوز، في الصباح الباكر، وكانت أعمال الكنس والتنظيف والتلميع والصقل الليليّة في المطار قد

أنجزت للتوّ، وأعيد تشغيل السلالم والممرّات المتحرّكة على خلفيّة جوقة من الهمهمات والهمسات.

في ساعة مماثلة، لم يكن أحدٌ في الخدمة إلاّ أطبّاء المطار ورجال الضابطة الجمركيّة المنهمكين بتفتيش تاجر مجوهرات باكستاني مزعوم وسيّاح كولومبيين، فلم تستوقفهم بضاعة فيرّي طويلاً. إذ كان عليهم أوّلاً أن يخضعوا هؤلاء الرعايا الأجانب لصور الأشعّة السينيّة، وأن يجرعّوهم عقاقير مسهّلة لكي يخرجوا من أمعائهم الأحجار الكريمة وعبوات الكوكايين، قبل ارتداء القفّازات، على امتعاض، لاستخراج الأشياء الثمينة من مخابئها، كما كان عليهم أن يتنبّهوا لمهرّبي العنكبوت وحيّات البوا المبتلعة، وخراطيش السجائر المفلترة المدسوسة في أكياس طحين المانيوك، وبعض المواد القابلة للانشطار والبضائع المقلّدة. نظرًا للازدحام القليل في ذلك الصباح، لم يجد فيرّي صعوبة كبيرة في تجاوز نطاق الشحن المزدحم بالرُزم المشبوهة، كما اجتاز حاجز الشرطة القضائيّة وموظّفي الماليّة بأهون السبل. وكان عليه أن يتصل بسيّارة شحن صغيرة لنقل الحمولة. قد يكون الأمر على قدرٍ من الصعوبة لأنّ اليوم يوم أحد، لكنّ رايبوتيك الذي أُوقظ من نومه مجفلاً، وافق، في آخر الأمر، على المجيء وإن أرفق قبولَه هذا بعبارات الشكوى والبرطمة. في انتظار وصول الشاحنة عاد فيرّي إلى قاعة التأمّل الروحي.

بموازاة قاعة الأعمال انطلاقًا من المركز التجاري، تقع قاعة التأمّل الروحي في طبقة تحت الأرض من المطار، بين السلّم الآلي والمصعد. فالجوّ في قاعة الانتظار بارد،

والمقاعد فيها معدنيّة، غير مريحة، وهي تعجّ بالأرفف المحشوّة بالنشرات الإعلانيّة والأصص حيث تنمو خمسة أنواع من النباتات. درفُ ثلاثة أبواب مشرّعة موسومة بشارات الصليب والنجمة والهلال. فيرّي الجالس على مقعد مريح، راح يُحصي الأشياء المتوافرة الأخرى: هاتف للعموم، عبوة لإطفاء الحرائق، وجذع.

لمّا كان عدد المسافرين قليلاً في ساعات الصباح الباكر تلك، ألقى فيرّي ثلاث نظراتٍ متفحصّة عبر الأبواب المشرعة. كان الكنيس الضيّق الأرجاء شبه خاوٍ، ثلاثة مقاعد حول طاولة خفيضة. كذلك الأمر في الكنيسة المتواضعة التي ازدانت، علاوة على ذلك، بأصص للزهور، ومذبح، ولوحة لمريم العذراء، وسجلّ مرفق بقلم حبرٍ ناشف، وإعلانين مخطوطين: أحدهما يذكّر بتوافر القربان المقدّس، والثاني يحذّر من سرقة القلم الناشف. أمّا المسجد فكان مفروشًا بموكيت أخضر، ومزوّدًا بمشجب للمعاطف وممسحة أقدام أُودعت فوقها، على نحوٍ مؤقت، أحذية أديداس، وبوابيج وأحذية نصفيّة وواقيات أحذية من الكاوتشوك لمصلّين من شمال إفريقيا، ومن إفريقيا الوسطى، ومن الشرق الأوسط.

مع تقدّم ساعات الصباح راح يتضح تدريجًا جمهور المتردّدين على قاعة التأمّل الروحي. لم يكن سوادهم الأعظم من المسافرين، بل من العاملين في المطار وعمّال الصيانة والتنظيف في ملابسهم الزرقاء، ورجال الأمن السودِ، إجمالاً، أقوياء البنية، حاملي التوكي واكي وأجهزة النداء. تردّد على

المكان أيضًا بعض المدنيين: راهبة لبنانيّة جميلة، أمّ بلغاريّة بصحبة ابنها، رجلٌ قصير القامة نحيلها، ملتحٍ، مظهره يدلّ على أنّه أثيوبي ـ عيناه الحمراوان تعبّران عن الفزع من الفراغ، والخشية من الشرّ الذي يتلبّس الهواء، وأمنيته، قبل الصعود إلى الطائرة، أن يتلقّى مباركة قسّ كان على فيرّي أن يُقرّ، على مضض، بأنّه ليس هو.

وصلت الشاحنة الصغيرة التي يقودها رايبوتيك قبيل الظهر. وبعد أن حُمّلت المستوعبات، ثمّ أنزلت أمام الصالة، وتمّ تخزينها في المحترف، انطلق فيرّي قاصدًا شقّته سيرًا على الأقدام. لدى مغادرته الصالة قاصدًا بيته ألقى نظرةً على الأعمال الجارية في الورشة: بدا أنّ قواعد الركائز قد حُفِرَت أخيرًا، وأقيمت أكواخ معدنيّة لإيواء الآلات والرجال، وشُرِع بتركيب رافعتين عملاقتين صفراوين بواسطة رافعة حمراء إضافية. في غضون أسبوع واحد سوف تسود النواحي جلبةٌ لا تطاق.

في الأثناء، كان سكون باريس غالبًا على ذلك الأحد الصيفي، مذكّرًا بسكون الطوف الجليدي، سوى أنّ ما تذيبه الشمس هنا هو القطران لا الجليد. عندما بلغ مسكنه، فاجأه غياب روائح Extatics Elixir، عن أجواء الطابق كلّه، كأنّ السكون المُدُنيّ قد بدّد كلّ شيء، مبيدًا بذلك قبيلة العطور أيضًا. بعد استفساره أخبرته الحارسة أنّ بيرانجير أيزنمان قد انتقلت في غيابه. إذًا فَقَد المرأة المتوفّرة الوحيدة. لم يكن وقع النبأ شديد القسوة على فيرّي الذي انصرف إلى ترتيب حاجياته، فوقعت أنظاره على الفراء الذي أحضره معه من الناشيليك: كان

الفراء مهترئًا، يتساقط الوبر منه جفناتٍ جفناتٍ، فيما استحال الجلد بتأثير الطقس المعتدل صمغًا قديمًا متقيّحًا جامدًا. فارتأى فيرّي أن يرميه قبل الانصراف إلى تفحّص بريده.

كان في البداية جبلاً من الرسائل، ولكن بعد أن سُدّدت الفواتير وأهملت المنشورات الإعلانيّة والإشعارات والدعوات والدوريّات والمجلاّت، لم يبقَ سوى استدعاء إلى قصر العدل، في مهلة ثلاثة أشهر، أي في ١٠ تشرين الأول، لجلسة بحضور سوزان في سياق دعوى الطلاق الجارية. فوجد أنّه خَسِرَ كلّ النساء مرّة واحدة، ولكن من يعرفه جيّدًا يعلم أنّ الأمر لن يدوم. لن يبقى الحال على ما هو عليه لفترةٍ طويلة.

١٧

ولم يخطئ حسباننا، إذ لم ينقضِ يومان حتّى التقى إحداهنّ. صباح يوم الثلاثاء كان فيرّي على موعدٍ في الصالة مع الخبير الذي جاء مصحوبًا برجلٍ وامرأة: مساعديه. كان الخبير يُدعى جان فيليب ريمون، على مشارف الخمسين، أسمر البشرة، ضامر القامة نحيلها كخنجر صيد، يرتدي ملابس فضفاضة، مشوّش النطق، مرتابَ الملامح، حادّ النظرات. كان يتنقّل بحذرٍ متراوح، فاقد التوازن، متّكئًا إلى مساند الكراسي كما يستعين الواقف على سطح السفينة بدربزين السطح حين يبلغ التموّج الدرجة التاسعة على سلّم بوفور. كان فيرّي يعرف هذا الخبير بعض المعرفة إذ سبق له أن استعان به مرّتين أو أكثر. كان مساعِدُه يسير بثقة أكبر مستعينًا على ذلك بحفناتٍ من الفستق المحمّص يستخرجها من قعر جيبه، ماسحًا أصابعه، كلّ دقيقتين، بمنديل كلينكس شفّاني. أمّا المساعِدة التي شارفت، بلا ريبٍ، على الثلاثين فكانت آيةً في البرودة وتُدعى صونيا. شقراء ذات عينين سكّريتين ووجه جميل متقشّف يضاهي البَرَدَ والجَمر، بتايورها الأسود وصدرتها

الكريم، تحمل علبة سجائر بنسون في يدٍ، وهاتفًا محمولاً طراز أريكسون في الأخرى.

أشار فيرّي عليهم بالجلوس قبل أن يباشر في عرض الأشياء الوافدة من بلاد الصقيع. بعد أن تمكّن من الجلوس، راح جان فيليب ريمون يتفحّص هذه التحف متجهّمًا، ممتنعًا عن أيّ تعليق، متلفّظًا أحيانًا بتعليماتٍ مبهمّة ومرمّزة، هي كناية عن أرقام وحروف. وكانت صونيا الواقفة وراءه تهمس في هاتفها الأريكسون مردّدة الأرقام والحروف نفسها لمُخاطَبٍ مجهول، ثم تردّد، هامسة أيضًا، الأجوبة المبهمة التي يزوّدها بها محادثها، ثمّ تشعل سيجارة بنسون أخرى. بعد ذلك تشاور الخبير ومساعده لبعض الوقت فيما انصرف فيرّي القانط من متابعة حديثهما المبهم، إلى تبادل المزيد والمزيد من النظرات مع صونيا.

مألوفٌ هذا الصِنفُ من النظرات المتبادلة الحائرة التي يتبادلها للوهلة الأولى، وبثباتٍ لافتٍ، مجهولان يلتقيان بمحض المصادفة وسط جمعٍ ويروق أحدهما الآخر. إنّها نظرات فوريّة لكنّها مثقلة بالمعاني وقلقة بعض الشيء، خاطفةً وفي الوقت نفسه مطوّلة جدًّا، تبدو مدّتها أطول بكثير ممّا هي عليه حقًّا، متسلّلةً خلسةً في غمرة أحاديث الجمع الذي لا يلاحظ أفراده شيئًا أو يتظاهرون بأنّهم لا يلاحظون. غير أنّ الأمر يولّد ارتباكًا بأيّة حال، كحال المساعدة صونيا التي اختلطت عليها وظائف الأدوات التي تحملها ذات مرّة، فتحدّثت لثانيتين عبر علبة البنسون.

استغرقت المعاينة قرابة الساعة من دون أن يلتفت أحد الرجلين ولو مرّة واحدة إلى فيرّي، لكنّها ساعة أبدى جان فيليب ريمون في ختامها تكشيرة ارتياب غير واعدة. وسرعان ما التوت زاويتا فمه باتجاه الأرضيّة، فيما انكبّ على تسطير أعمدة من العلامات على دفتر ملاحظات ذي دفّتين من جلد السحالي القرمزي وهو يهزّ رأسه متبرّمًا، فحسب فيرّي حيال تعبيرات وجهه أنّ الصفقة لن تتمّ: كلّ هذا لا يساوي نكلة، والرحلة كلّها لا تساوي شيئًا. ولكن بمضيّ هنيهات نطق الخبير بالرقم الذي يقترحه. كان المبلغ المذكور بازدراء ولم تحسم منه الضرائب، يساوي سعر مبيع قصر أو اثنين من قصور اللوار. ولا أقصد هنا قصور اللوار الكبيرة، لا أقصد بذلك قصر شامبور أو شونانسو، على وجه الدقّة، بل القصور الصغيرة أو المتوسّطة كقصر مونكونتور أو تالسي، وهي بذاتها لا بأس بها على الإطلاق. ولديك خزنة، على ما أعتقد، سأل الخبير. الحقيقة لا، أجاب فيرّي، خزنة، لا. أقصد بلى لديّ خزنة قديمة أضعها هناك في الخلف، لكنّها صغيرة بعض الشيء.

سيتعيّن علينا أن نضع هذه كلّها في الخزنة، قال جان فيليب ريمون متجهّمًا، في خزنة كبيرة. لا يسعك أن تحتفظ بها هنا. ثمّ قد يكون من المستحسن الإسراع في العثور على شركة تأمين، فقد لا يكون لديك خزنة، ولكنّك تتعامل مع شركة تأمين، أليس كذلك؟ حسنًا، قال فيرّي، سأتدبّر الأمر غدًا. لو كنتُ أنا المعنيّ لما انتظرت حتّى الغد، ولكن هذا ليس شأني، افعل ما يحلو لك. أنا شخصيًّا سأغادر الآن، وأتركك مع صونيا للتداول في نفقات التخمين، فهي مخوّلة تسوية كلّ

الأمور. تسوية كلّ الأمور معها! قال فيرّي في سرّه، يا مرحى.

سوى ذلك كيف حال الأعمال؟ سأل ريمون بنبرة لا مبالية وهو يرتدي معطفه. الصالة؟ الأعمال جيّدة، قال فيرّي مؤكدًا. أتعامل مع بعض نجوم هذا المضمار، أردف قائلاً، ساعيًا للفتِ انتباه صونيا. غير أنّي لا أستطيع أن أعرض كلّ عامين أعمال النجوم، كما تعلم، فهي أعمال مطلوبة ورائجة. أتعامل أيضًا مع فنّانين شبّان لمعت أسماؤهم مؤخّرًا، غير أنّ هذه مسألة أخرى، كما تعلم. إذ لا ينبغي التسرّع أو الإفراط في عرض أعمال الشبّان، لأنّ ذلك قد يعجّل من نضوب قدراتهم وينهكهم، لذا أعرض، بين الفينة والفينة، عملاً واحدًا لكلّ منهم لا أكثر. قد يكون مفيدًا كما تعلم، قال مستدركًا، أن تعمد أحيانًا، إلى تنظيم معرضٍ متواضع لأعمال أحدهم في الطبقة الثانية، هذا لو كانت الصالة مجهّزة بطبقة ثانية، أقصد كما تعلم، ولكن لا بأس، الأمور تجري على ما يرام ولا مجالَ للشكوى. عندها توقّف قليلاً عن الكلام إذ أدرك فجأة أنّ ما يقوله هو الهذر بعينه، وأنّ المستمعين انصرفوا متشاغلين عن سماعه.

الحقيقة أنّه بعد تسوية مسألة النفقات تلك، ما كان ليشقّ عليه أن يدعو صونيا إلى تناول العشاء بصحبته، لأنّه ربّما أثار اهتمامها بالفعل وإنْ حرِصَت، طوال الوقت، على إخفاء ذلك. كان الطقس جميلاً ومن الممتع أن يتناول المرء طعام العشاء على شرفةٍ ما، حيث لا بدّ لسرد وقائع رحلة فيرّي أن يثير اهتمام تلك المرأة الشابّة حتّى الذروة ــ وهي ذروة ستضطرّ معها إلى إسكاتِ هاتفها الأريكسون وتدخين سجائرها البنسون بنهمٍ متزايد ــ ثمّ يقلّها إلى

منزلها، دارة صغيرة من طبقتين على مقربة من رصيف برانلي. وبعد أن يتّفقا على احتساء كأس أخيرة، ويتبعها فيرّي إلى الداخل، سيتضح له أنّ الطبقة السفليّة تسكنها فتاة ذات نظراتٍ كابية خلفَ نظّارة سميكة، منكبّة على أوراق مستنسخة في القانون الدولي وُضعت فوقها ثلاث علب فارغة من اللّبن الرائب بنكهة الليمون، بالإضافة إلى جهاز لاقط صغير من البلاستيك الزهريّ الفاقع أشبه بلُعبة. أجواء متناسقة، غير حادّة، تسود تلك الشقّة. أرائك حمراء اللون وزهريّة رُصِفَت فوق كنبة مكسوّة بمفرشٍ من البركال اللمّاع المزركش. في طبقٍ كبير تحت مصباحٍ خافت النور، ثمار برتقال تعكس ظلالَ ثمار برقوق.

تبادلت الفتاة وصونيا حديثًا مقتضبًا بشأن برونو الذي فهم فيرّي أنّ عمره سنة وثلاثة أرباع السنة وأنّه نائم في الطبقة العليا: كان الغرض من الجهاز اللاقط الزهريّ المسمّى «بايبي فون» هو التنبيه إلى بكاءِ الطفل لدى استيقاظه من غفوته. بعد ذلك صرفَت الحاضنةُ ما يقربُ الدهرَ للملمة أوراقها ورمي علب لبنها الرائب في سلّة المَهملات، ونزع فيشة البابيي فون قبل أن تغادر أخيرًا ويتاح لهما أن يرتمي أحدهما على الآخر سائرين، كأنّهما يؤديان رقصةً لا يجيدان خطواتها، مثل سرطانين متعانقين، باتجاه غرفة صونيا، ثمّ تنفكّ بكلة سوتيان سوداء فتقعُ متهادية على أرضية تلك الغرفة مثل نظّارة شمسٍ عملاقة.

لكن لم تمضِ هنيهات حتّى أصدر البابيي فون، الذي كان قد أعيد وصله بالكهرباء تحت المنضدة بجانب السرير، سلسلةً من التنهّدات الحادّة والأنّاتِ، الخافتة في البداية ثمّ المتصاعدة

طباقيًا بالتناغم مع أنّاتِ صونيا السوبرانيّة، والتي سرعان ما طغت عليها إذ استحالت أصواتًا تصعيديّة من العويل والصياح والنحيب الحادّ. فكان لا بدّ لهما من فضّ اشتباكهما، على عَجَلٍ ولكن بشقّ النفس، ريثما تهرع صونيا إلى الطبقة العليا لكي تطيّب خاطر برونو.

ارتأى فيرّي، بعد أن لبث وحيدًا محاولاً النوم، أنّه قد يكون من اللائق والعمليّ في الوقت نفسه، أن يخفض أوّلاً صوت إرسال البايبي فون. غير أنّه غير ملمّ بهذا النوع من الأجهزة ولا بدّ أنّه ضغطَ الزرّ الغَلَط، ذلك أنّه بدل أن يخفّض أصوات النحيب وتطييب الخاطر، غيّر الموجة فتقاطعت فجأة مع الموجة التي يستخدمها رجال الشرطة في مخابراتهم، فتسنّى له على الفور أن يشاطرهم مهامّهم الليلة في الوقاية والمراقبة والقمع. لم يعد قادرًا على إيقاف هذا التشابك بين الموجتين، وراح فيرّي يضغط الأزرار كلّها تباعًا، باحثًا عن هوائي يلويه أو سلك يقطعه، ساعيًا إلى إسكات الجهاز عبر خنقه بالوسادة ولكن عبثًا: كانت كلّ محاولة تزيد من حدّة الأصوات وتضخّمها شيئًا فشيئًا. إذ أسقِطَ بيدي فيرّي، ارتدى ملابسه على عَجَل وراح يعالج أزرارها أثناء هبوطه السلّم، إذ لا شيء يدعوه للتسلّل خلسةً إلى الخارج ما دامت الأصوات التي يبثّها البايبي فون تصدح في الأرجاء، وتفشوَ تدريجًا في أرجاء العمارة كلّها ــ وقد أقسم ألاّ يتصل بها خلال الأيّام المقبلة.

غير أنّ امرأة أخرى تتصل به في اليوم التالي، إنّها مارتين دولاهاي، أرملة مساعده الراحل، التي كان فيرّي قد التقاها في

كنيسة أليزيا يومَ الدّفن. صحيحٌ أنّه شعر آنذاك بكونه، على نحو ما، أثار انتباه المرأة، على الرّغم من مأساتها، لكنّه حسبَ الأمر لا يتعدّى حاجتها، في تلك الظّروف، إلى صدرٍ رحبٍ تبثّه لواعجها. فإذا بها تتصل عند العصر متذرّعةً بأوهى الذرائع ــ من قبيل أوراق الضمان الاجتماعي التي قد يكون دولاهاي قد تركها في الصالة، ولا سبيل للعثور عليها، وربّما إذا أمكن. للأسف الشديد، لا أعتقد أنّه ترك شيئًا هناك، يقول فيرّي، فلم يكن من عادته أن يترك وثائق شخصيّة هنا. إنّه لأمر مؤسف حقًّا، تقول مارتين دولاهاي. ومع ذلك، كم أودّ أن أزورك، لنشرب كأسًا سويًّا، وكم يسرّني أن أستعيد معك بعض الذكريات.

لن يكون الأمر بمثل هذه البساطة، يكذب فيرّي قائلاً، هو الذي يرفض إطلاقًا أن يقيم أيّ علاقة مع الأرملة دولاهاي، لقد عدتُ للتوّ من السفر، وسيتعيّن عليّ أن أسافر مجدّدًا في أقرب وقت، لذا لن يُتاح لي الوقت الكافي. لسوء الحظّ، تقول مارتين دولاهاي، ولكن لا بأس. وهل كانت سفرة بعيدة؟ فإذا بفيرّي التوّاق من أعماق قلبه للتكفير عن كذبته، يحكي لها بإيجاز رحلته إلى القطب الشمالي. مذهل، تصيح المرأة بحماسة، لطالما حلمتُ بزيارة تلك المناطق.. من المؤكّد أنّها مناطق جميلة، يقول فيرّي متحاملاً على نفسه، من المؤكّد أنّها مناطق جميلة جدًّا. أنت محظوظ فعلاً، تصيح الأرملة مُستثارة، لأنّك تستطيع أن تقضي إجازتك في مناطق مماثلة. الحقيقة، يقول فيرّي بشيء من الانزعاج، لم تكن إجازة. رحلة عمل، أليس كذلك؟ لقد ذهبت لإحضار بعض الأشياء للصالة. مذهل، تردف قائلة بالحماسة إيّاها، وهل وجدت ضالّتك؟

أعتقد أنّني وجدت بعض الأشياء البسيطة، يقول فيرّي حذرًا، ولكن ينبغي لي التريّث قليلاً، فأنا ما زلت لا أعرف قيمتها الفعليّة. كم أودّ أن أراها، تقول مارتين دولاهاي، متى ستعرضها؟ لا أستطيع في الوقت الحاضر أن أخبرك متى سيكون ذلك بالضبط، يقول فيرّي، الموعد لم يُحدّد بعد، ولكنّني قد أرسل لك دعوة. أجل، تقول الأرملة، أرسل دعوة، هل تعدني بأن تفعل؟ أعدُكِ، يقول فيرّي، أعِدُكِ.

١٨

خلال الفترة التي نحن بصددها، لم يَعِشْ باومغارتنر إذًا إلاّ في نُزُلٍ ومنتجعاتٍ وفنادق مريحة، تلك التي يشار إليها في الأدلّة السياحيّة بنجوم الرفعة والمكانة. ففي شهر تمّوز على سبيل المثال أقام لثماني وأربعين ساعة في فندق أليزيا الذي وصل إليه عند العصر. لقاء أربعمئة وعشرين فرنكًا مع وجبة الفطور، لم تبدُ الغرفة سيِّئة جدًّا للوهلة الأولى: فسيحة بعض الشيء، لكنّها متناسقة التقسيم لحسن الحظّ، تتسرّب إليها إضاءة مخمليّة عبر فُرجةٍ قياس ٩/١٦ مُشبّكة بنباتاتٍ معترشة. سجّادة أناضوليّة، ودوش متعدّد الوظائف، أفلام ڤيديو إباحيّة لقاء رسم محدّد، غطاء سرير أصهب اللّون ومطلّ على حديقة ضيّقة الأرجاء مأهولة بالزرازير وتكسو وَسَطَها شجيرات الأكاليبتوس المحاطة بالميموزا المستوردة.

إذا كانت الزرازير المدوّمة التي أقامت أعشاشها تحت آجرّ الأليزيا، وفي ثقوب الجدران أو شجر الأكاليبتوس، تعبّر عن نفسها، كعادتها، بالصفير والصرير والقعقعة. وخلاف ذلك

ممّا تجيده الطيور من رتبتها، فإنّها تبدو هنا كأنّها أغنت زقزقاتها: متكيّفة مع البيئة الإيقاعيّة لزماننا، لم تقصر جهدها لإغناء سلّم نغماتها على مزجه بأصوات الألعاب الإلكترونيّة ومنبّهات السيّارات الموسيقيّة، وترانيم الإذاعات الخاصّة، بل أضافت إلى هذا كلّه صيحة الهاتف النقّال الذي بواسطته اتصل باومغارتنر بالراقود، كعادته كلّ ثلاثة أيّام، قبل أن يأوي إلى فراشه باكرًا بصحبة كتاب.

ثمّ بصحبة جريدة نَزِل في ساعة مبكرة من صباح اليوم التالي لتناول الفطور في مطعم الفندق الخالي من الروّاد. لا أحد يبالي في مثل تلك الساعة. قعقعة الأدوات والأواني وأصوات مكتومة كانت تتناهى إلى مسماعه من جهة المطبخ، أصداء حفيف، وخفق نعالٍ مكتومة لا يُعْتَدّ بها: بحركة من إصبعه أحكم وضع نظّارته فوق أنفه وانصرف إلى قراءة الصحيفة.

ولكن في الوقت الحاضر، بمضيّ بضعة أسابيع، على سبيل المثال، ينزل باومغارتنر في فندق آخر، أبعد قليلاً باتجاه الشمال، هو نُزُل «موليار» من ناحية أنكليه. ما من حديقة هنا، بل فِناء مبلّط فيه أشجار دلب مسنّة تتخلّلها ساقية رقراقة، أو الأحرى نافورة ماء عملاقة يتكسّر ماؤها مُحدثًا جلبةً مزبدة غير منتظمة. في معظم الأحيان تبدو هذه الجلبة وكأنّها تحاكي متواليات من التصفيق، المتفرّق العشوائي غير الحماسي، لا بل المُجامِل. ولكن يحدث أيضًا أن تتزامن الجلبة مع ذات نفسها فينجم عنها، لهنيهات، ذلك التوقيع المنتظم للتصفيق،

السخيف بعض الشيء، والثنائي ـ مرّة أخرى، وأخرى ـ الذي ينطلق تلقائيًا عندما يطالب الجمهور الفنّان بالعودة إلى المسرح.

كعادته كلّ يوم، يتصل باومغارتنر بزوجته، ولكن، هذه المرّة، تستغرق المخابرة أطول من المعتاد. يطرح باومغارتنر عددًا لا بأس به من الأسئلة، ويدوّن الإجابات على هوامش صحيفته ثمّ يقفل الخطّ. يستغرق في التفكير. يفتح الخطّ مجدّدًا ويطلب رقم الراقود.

سرعان ما يجيب الراقود. حسنًا، يقول له باومغارتنر، أحسب أنّنا سنبدأ بالتنفيذ. سيتعيّن عليك أوّلاً أن تستأجر شاحنة برّادًا، اسمعني جيّدًا، لا نحتاج إلى شاحنة كبيرة، بل شاحنة صغيرة. لا مشكلة في ذلك، يقول الراقود، ولكن لِمَ ينبغي أن تكون برّادًا؟ لا تُشغل بالك بهذا الأمر، يقول باومغارتنر. لِنَقُل بالاختصار إنّنا لا نريد أن نكسر دورةَ البرد. سأزوّدك برقم خاصّ في باريس، أمّا أنا فسأعود غدًا لبضعة أيّام، وعليكَ أن تتصل بي بعد إنجاز الأمر. حسنًا، يقول الراقود، عُلِم. سأتولّى الأمر غدًا، وسأتّصل بك حالما ينتهي.

١٩

ولكن ألم يحن الوقت بعدُ لكي ينعم فيرّي ببعض الاستقرار؟ تُراه سيبقى إلى الأبد من هواة المغامرات العابرة التي لا يعرف سلفًا إلى مَ ستؤول، ولا يتوهّم حتّى، كما في السابق، أنّ هذه هي الأخيرة حقًّا؟ كأنّه، في هذه الآونة، يستسلم عند أوّل عقبة: على أثر قصّته مع Extatics Elixir، لم يفكّر حتّى بالحصول على عنوان بيرانجير الجديد، وعلى أثر قصّة البايبي فون لم يسع إلى لقاء صونيا مرّة ثانية. تُراه اكتفى؟

بالانتظار، قصد طبيبه، إذ وجدَ متّسعًا من الوقت، من أجل كشفٍ عام. يجب أن نجري الصورة الصوتيّة التي حدّثتكَ عنها، قال له فيلدمان، انتقل إلى هنا. كانت الحجرة غارقة في ما يشبه العتمة التي تتخلّلها ثلاث شاشات كومبيوتر لكنّها لا تحجب ثلاث نسخ رديئة للوحات معلّقة على الجدار، وشهادتين في أمراضِ القلب مُنحتا لفيلدمان من قبل جمعيّات أجنبيّة، وإطارًا يضمّ، تحت لوح من الزجاج، صورًا لأفراد أسرته من بينهم كلب. تجرّد فيرّي من ثيابه واستلقى عاريًا إلاّ

من كلسونه، فوق سرير المعاينة المكسوّ بورق نشّاف أزرق، وأحسّ برعدة خفيفة على الرّغم من الحرارة المرتفعة. استرخِ، ارخِ جسمك كلّه، قال فيلدمان بعد أن ضبط معدّاته وبَرْمَجها.

ثمّ انصرف الطبيب إلى تمرير طرفِ أداة سوداء مستطيلة أشبه بقلم، أو شيء من هذا القبيل، كان قد كساها بهلامٍ موصل للحرارة، على مواضع مختلفة من جسم فيرّي، على مواضع مختلفة من العنق والوركين والكعبين وطرف العينين. وكلّما مسّ القلم موضعًا من هذه المواضع سُمِعَ عبر المكبّرات نبض الشرايين مضخّمًا، مخيفًا أشبه بمزيج من أصوات المسبار البحري وهبوب الريح العابر ونباح كلاب البولدوغ العوراء أو لهاث الكائنات الفضائيّة. استمع فيرّي إذًا إلى نبض شرايينه فيما التماعاتُ السَّبرِ تخطّ صورًا على شاكلة خطّ متعرّج يرتسمُ على الشاشة.

استغرقت العمليّة بعض الوقت ثمّ: لا أستطيع القول إنّ النتيجة ممتازة، بإمكانك أن تمسح جسمك، قال فيلدمان باقتضاب مخاطبًا فيرّي، طالبًا منه أن ينهض، منتزعًا قطعةً من الورق النشّاف الأزرق التي مرّرها الآخر على مواضع في جسمه كي يمسح أثر الهلام اللّزج الذي بقي عليها. النتيجة غير مرضية على الإطلاق، ردّد فيلدمان قائلاً. وبديهي أن تلزم حذرك من الآن فصاعدًا. يجب أن تتقيّد بنظام الحمية الغذائيّة الذي وصفته لك. هذا فضلاً عن طلبي المتواضع، واعذرني على صراحتي، بأن تحرص على الاعتدال في المضاجعة هذه الآونة. لا خشيةَ إذًا في الوقت الحاضر، قال فيرّي، فاطمئن.

أمر آخر، قال فيلدمان: ينبغي لك الامتناع عن تعريض نفسك لدرجات حرارة مؤذية، أي لا للبرد القارس ولا الحرّ القائظ، فكما أخبرتك من قبل، إنّ هذا قد يقضي على من هم في حالتك. ولكنّ المطمئن، قال فيلدمان ساخرًا، أنّ المهنة التي تزاولها لا تعرّضك لمثل هذه المخاطر. صَدَقتَ، قال فيرّي، من دون أن ينبس بكلمة واحدة عن رحلته إلى القطب الشمالي.

الطقس جميل في هذا اليوم من أيّام شهر تمّوز، المدينة ساكنة بعض الشيء كأنّها في شبه حداد غير معلن وفيرّي يجلس وحيدًا على شرفة مقهى في ساحة سان سولبيس، وأمامه كوب بيرة. بين بورت راديوم وسان سولبيس مسافة طويلة جدًّا، وما يزيد على ستّ ساعات من فارق التوقيت الذي لم يتعاف فيرّي منه تمامًا. على الرّغم من نصائح جان فيليب ريمون، أجّل إلى الغد مسألتي التأمين والخزنة المتعبتين، وسوف يحدّد موعدًا لهما فيما بعد، عند العصر. بالانتظار وضع كلّ التحف في خزانة ذات قفل محكم في مخزن الصالة المقفل بدوره بإحكام. إنّه الآن يستريح، مع أنّ لا أحد يستريح حقًّا، إذ قد يُقال أحيانًا، أو يُظنّ أحيانًا أنّ المرء يستريح أو سيستريح، غير أنّ الأمر لا يعدو كونه رجاءً يُعبّر عنه على هذا النحو، ويعلم المرء يقينًا أنّ هذه اللحظة لن تأتي وأنّها غير موجودة حتّى، فهي ليست أكثر من محطّ كلام نردّده عندما نكون متعبين.

على الرّغم من أنّه متعب، وزاهد في كلّ شيء، لم يتخلّ فيرّي عن عادته في الحملقةِ بنساءٍ متقشّفاتِ الكسوة في مثل هذا الفصل، شهيّاتٍ.. حتّى أن تشهيهنّ مؤلمٌ أحيانًا، أشبه بطيفِ

وجع في الصدر. هكذا تكون حالنا أحيانًا، إذ يبلغ انخطافنا بمشهد العالم حدَّ نسيان الذات والتفكير فيها. لذا يحملق فيرّي في الفاتنات كما في غير الجميلات جدًّا. يعشق النظرة الخَفِرَة، الشاردة بعض الشيء، المتشنّجة، المُطرقة المحدّقة في إسفلت الشارع، التي تحتجب وراءها الفتيات غير الجميلات جدًّا عندما يشعرن بالنظرات المحدّقة بهنّ من ناحية مقصف أو حانة، حين يكتفي المحدّقون بما تيسّر، ويرون أنهنّ أجمل ممّا توقّعنَ. هذا فضلاً عن أنهنّ يُضاجِعْنَ من دون شكّ كما يفعل الجميع، وعندئذٍ لا تكون وجوههنّ كما تكون عادةً، بل عندها تنضح بسرّ أسرارهنّ، وإذ ذاك ربّما لا يعود التصنيف بين الجميلات وغير الجميلات هو نفسه الشائع. ولكن ينبغي لأفكاره أن تتوقّف عند هذا الحدّ لأنّ فيلدمان قد حظرها عليه.

في اللّحظة نفسها يتوجّه الراقود، سيرًا، نحو موقف سيّارات خاصّ فسيح، يحرسه رجالٌ ضخام القامات مصحوبين بكلاب ضخمة، ويقع خلف الجادة الطرفيّة، أبعدَ من «بورت شامبيري». أثناء سيره يتنفّس الراقود على نحوٍ أفضل. وعندما يستشعر حُكّة في موضع ما يحكّ الموضع ساهيًا، لكنّ الأمر يستهويه وقد يسير قُدُمًا على هذا النحو مسافات طويلة، تحت الشمس. يمرّ من أمام مرآبٍ متواضع التجهيزات ــ مناضد معدنيّة، حفرة لتغيير زيت السيّارات، ثلاث سيّارات فقدت كلّ منها شيئًا من هيكلها، وآلة للرفع، أي كلّ ما نراه عادةً في مرآب. ثمّ يصل إلى الموقف الذي يبدو خاصًّا بسيّارات الخدمة وسيّارات الشحن الكبيرة والمقطورات والقاطرات. في قفصه الزجاجيّ حيث يسودُ على ستّ شاشات تلفزيونية للمراقبة

وعلى منفضتين مملوءتين بأعقاب السكائر، يبدو رجل الأمن الذي يحرس الموقف قصيرَ القامة، مضغوطًا كبطّاريّة وباشًا مثل باب. يُخطِرُه الراقود بأنّه جاء من أجل الشاحنة البرّاد التي تمّ حجزُها أمسِ بواسطة الهاتف، فيهزّ الرجل رأسه موافقًا لعلمه بهذا الأمر ويسير متقدّمًا الراقود نحو الآلة المعنيّة.

إنّها شاحنة صغيرة بيضاء اللون، متوازية السطوح، كثيرة الزوايا أشبه بعلبة أو بمساكن بورت راديوم: فهيكلها لم يصمّم لشقّ الهواء. فوق قُمرة السائق ثُبّت مولّد صغير متوّج بشبكيّة تهوية مستديرة أشبه بقرص سخّان. يفتح رجل الأمن البابين الخلفيين كاشفًا عن مستوعبٍ فسيح ذي جدران معدنيّة، وعدد من أوعية البوليسترين مكدّس بعضها فوق بعض في مؤخّر المستوعب. ومع أنّ الداخل يبدو نظيفًا، ومغسولاً بالكيرشير من دون شكّ، فإنّ رائحة دهون مجمّدة ما زالت تنبعث منه، ممزوجة بروائح دمٍ حرّيفة وأحشاء وجلود، إذ لا ريب أنّها تُستخدم عادة لنقل اللحم لتجّار نصف الجملة.

بعد استماعه، ساهيًا، إلى شرحِ الرجل حول كيفيّة تشغيل الشاحنة، يُعطيه الراقود قسمًا من المال الذي أودعه لديه باومغارتنر وينتظر ريثما يدفع الباب الجرّار قبل أن يستقلّ الشاحنة. يبتعد الرجل فيسحب الراقود من جيبه قفّازين من الكاوتشوك الممتاز، من النوعيّة التي تتشبّث راحتاهما وبواطن أصابعهما المحبّبة بالأسطح الخشنة تلافيًا لانزلاق الأشياء أثناء حملها. يرتديهما الراقود ثمّ يدير المحرّك. عتلة السرعة الخلفيّة تحدث طقطقةً، غير أنّ السرعات الأخرى لا تلبث أن تتوالى

هيّنة فيما الشاحنة تسير مبتعدةً في اتجاه الجادّة الطرفيّة الخارجيّة، حيث تجتاز بورت دو شاتيون.

عند ساحة بورت دو شاتيون يركن الراقود الشاحنة البرّاد في موضع مخالف أمام كشك للهاتف العمومي. يترجّل من العربة ويدخل الكشكَ، يرفع السمّاعة ثمّ ينطق ببضع كلمات. يبدو أنّه يتلقّى إجابة مقتضبة. ثمّ تاركًا على السمّاعة بصماتٍ من ذاتِ نفسه ــ أثرة صِمْلاخ تسدّ أحد ثقوب السمّاعة، رذاذ من ريق في فتحة الميكروفون ــ، يقفل الخطّ مقطّبًا ما بين حاجبيه. إذ لا يبدو أنّ الإجابة أقنعته تمامًا. لا بل داخَلَه شيء من الارتياب.

٢٠

من جهته يقفل باومغارتنر الخطّ هو أيضًا من دون أن يلوح على وجهه أيّ تعبير بعينه. لكنّه على الأقلّ لا يبدو منزعجًا وهو يسير باتجاه نافذة شقّته الصغيرة: ليس هناك ما يُرى إلاّ القليل القليل، يفتح باومغارتنر النافذة: أصواتٌ قليلة، زقزقتان متلاحقتان، جلبة بعيدة لسيّارات عابرة. لقد عاد إذًا إلى باريس، وأقام مجدّدًا في شقّته عند جادّة أكسلمان من دون أن يقابل أحدًا. لم يبق أمامه في الوقت الحاضر إلاّ الانتظار، إلاّ قتل الوقت متطلّعًا عبر النافذة، وعندما يهبط الليل يشاهد التلفزيون. أمّا الآن فعبر النافذة يتطلّع.

الفِناءُ المبلّط المشجّر زيزفونَ وأكاسيا، يشتمل على حديقة ضيّقة الأرجاء مطوّقة بسياج من أغصان تتوسّطه بركة ذات نافورة ماء عمودية، مقبّبة، لا بل مترنّحة اليوم بسبب هبوبٍ ناعم. عصافير دوريّة، واثنان أو ثلاثة من طيور القيق أو أنثى الشحرور، تبثّ الحياة في الأشجار، مصحوبة بجرابٍ من البلاستيك ضاربٍ إلى البياض وموسوم بماركة «بريكوراما»،

عالق عند اشتباك غصنين عاليين ومنفوخ بالهبوب الناعم كشراع صغير، يهتزّ ويرتعش كجسم حيّ مُحدِثًا طقطقاتٍ وأصواتًا أشبه بنغمات زمّارة قصب. تحته، درّاجة طفل مقلوبة مجهّزة بعجلتين صغيرتين إضافيتين. ثلاثة كشّافاتٍ غير مجدية ثُبّتت عند زوايا الفِناء، وثلاث كاميرات تلفزيونية للمراقبة ثُبّتت فوق باب كلّ فيلاّ وعينُ كلّ منها محدّقةٌ بهذه البانوراما المُرتَجلة.

على الرّغم من أن أغصان الزيزفون تحجب الرؤية بين الفيلاّت، يستطيع باومغارتنر أن يميّز الشرفات التي وضعت عليها الكراسي الطويلة المقلّمة وطاولات التك، والبلكونات والواجهات الزجاجيّة العريضة، وهوائيّات التلفزيون المتطوّرة. وأبعد منها، صفّ عمارات باذخة يتراءى كتنويع معماريّ، غير أنّ التناسق هو الغالب، ولا أثرَ لتنافر: طراز عامّ ١٩١٠ يجاور ببذخ طراز عام ١٩٧٠، ذلك أنّ المال الوفير قادرٌ على طمس الفروق الزمنيّة.

يبدو أنّ القاسم المشترك بين ساكني هذه الفيلاّت هو أنّهم على مشارف الخامسة والأربعين من أعمارهم، ويعملون في مختلف المجالات السمعيّة البصريّة. فهذه المرأة البدينة الشابّة الجالسة في غرفة مكتبها الزرقاء، وقد غطّت أذنيها بسمّاعتين ضخمتين، منكبّة على طباعة نصّ برنامج التحقيقات المحليّة على الكومبيوتر، هي نفسها المرأة التي سبق لباومغارتنر أن سمعها تكرارًا، عند الحادية عشرة صباحًا من كلّ يوم، عبر إحدى المحطّات الإذاعيّة التي تملكها الدولة. وذاك الرجل القصير القامة الأصهب ذو النظرة الساهية، والابتسامة الجامدة،

الذي لا يبرح تقريبًا كرسيّه الطويل على الشرفة، والذي لا بدّ أن يكون منتجًا أو شيئًا من هذا القبيل نظرًا لمواكب الفتيات المتعاقبة على شرفته. وتلك المراسلة الحربيّة لحساب التلفزيون الغائبة في معظم الأحيان عن دارتها لوجودها في الأثناء في مواقع الأحداث في كلّ النزاعات الممكنة، قافزة بين الألغام، حاملة هاتفها النقّال، من بلاد الخمير الحمر إلى بلاد الشيشان، ومن اليمن إلى أفغانستان. ولمّا كانت تقضي أيّامها، عند عودتها، نائمة، مسدلة ستائرها دون فروق التوقيت، يكاد باومغارتنر ألاّ يراها إلاّ على شاشة تلفزيونه في بعض الأحيان.

غير أنّه في الوقت الحاضر لا يرى أحدًا. هذا الصباح لمحَ، خلف مبنى السفارة الفيتناميّة، خمسة أو ستة دبلوماسيين في ملابس الرياضة يقومون، كعادتهم كلّ صباح، بتمارين التاي شي الخاصّة بهم. ولكن في الوقت الحاضر، لا يلمح أحدًا عند الجهة المقابلة لسياج مبنى السفارة، لا يلمح شيئًا إلاّ سلّة كرة، سلّة مسمّرة في جذع شجرة، وأرجوحة غير متوازية وخزنة صدئة مقلوبة، على خلفيّة جدار عالٍ من الإسمنتِ، خالٍ، وأمامه كرسيّ شاغر. كأنّ الحرَّ اشتدَّ فجأةً، وغدا أشدّ رطوبة في ما وراء السياج، كأنّ مبنى السفارة يولّد مناخًا خاصًّا به أشبه بمناخ جنوب شرق آسيا.

على كلّ حال، لا يلقي باومغارتنر نظرةً إلى العالم إلاّ من بعيد. يراقب الناس متظاهرًا بأنّه ميت ولا يُلقي التحيّة على أحد، ما عدا يوم الاثنين، كلّ اثنين، عندما يسدّد الإيجار الباهظ لطبيب الأسنان المتقاعد المقيم في الطبقة الأرضيّة

والذي يؤجره الطبقة العليا من الفيلاّ لقاء إيجار أسبوعي. لقد توصّلا إلى هذا الاتفاق بعد أن أوضح باومغارتنر منذ البداية لطبيب الأسنان أنّه لن يمكث لوقتٍ طويل، وأنّه قد يضطرّ إلى المغادرة من دون سابق إنذار. ولأنّه يقضي معظم أوقاته حبيس تلك الشقّة، فليس من المُستهجن إذًا أن يخرج بين الفينة والفينة، في ساعات ضجره الثقيلة، لتنشّق الهواء الطلق.

ها هو يخرج للقيام بجولةٍ في الجوار القريب، وإذا بالمراسلة الحربيّة كأنّها استيقظت للتوّ من نومها، تُهرَع متثائبة لكي لا يفوتها اجتماع هيئة التحرير. إنّها إحدى تلك الشقراوات اللواتي يقدن سيّارات أوستن صغيرة، أمّا سيّارتها هي فلونها أخضر زمرّدي وسقفها أبيض، وأثر صدمة عنيفة عند مقدّمها، فيما زجاجها الأمامي مزيّن بعدد لا يُحصى من مذكّرات الحجز التي يعمد قائد الشرطة، وهو صديق لها، إلى إبطالها. ذلك أنّ الحيّ الذي نحن بصدده هو حيّ راق يقطنه عدد لا بأس به من مشاهير القوم، الذين يعرفون بدورهم عددًا لا بأس به من أصحاب النفوذ المعروفين؛ إنّها إذًا أحياء راقية تتردّد عليها أعداد لا بأس بها من مصوّري مجلات المجتمع المخملي.

وللمناسبة، اثنان منهما يقفان متستّرين عند أحد المداخل في شارع ميشال آنج، مزوّدين بأجهزة مستطيلة من البلاستيك الرمادي، التي تبدو أشبه براصدات أفلاك أو بمناظير الأفق أو بأدواتٍ جراحيّة أو حتّى بأسلحة مزوّدة بمناظير أشعّة ما تحت الحمراء، منها بآلات تصوير. المصوّران الباباراتزي فتيّان يرتديان ملابس كأنّهما يقصدان الشاطئ، قميصًا وبنطالاً

برمودا، غير أنّ وجهيهما ينمّان عن إصرار وجديّة فيما يراقبان المدخل المقابل، فلا بدّ أنّهما ينتظران ظهور نجم أو نجمة برفقة آخر عشيقة أو عشيق. يتوقّف باومغارتنر بدافعٍ الفضول، ينتظر قليلاً بجانبهما، متحفّظًا، كاتمًا فضوله، إلى أن يقترب أحدهما منه فيطلب منه، بتهذيب مبطّن، أن يغادر المكان. فلا يُبدي عنادًا، ويبتعد.

إنّه عاطلٌ، عاطلٌ على نحو يكاد أن يكون موجِعًا، فيذهب للتجوال في أرجاء مقبرة أوتوي القريبة، غير الفسيحة، وحيث يرقد عدد لا بأس به من الإنكليز، ومن البارونات، وقادة الأساطيل. بعض الشواهد محطّم، مُهْمَل، وبعضها الآخر قيد الترميم؛ أحد الأضرحة، وهو أشبه بمقصورة للسكّن، ومزيّن بتماثيل وبفعل «الإيمان» منقوشًا عِوَض العتبة، يبدو قيد التبييض. باومغارتنر يمرّ من دون أن يتوقّف بضريح دولاهاي ــ وإن عاد أدراجه خطواتٍ لكي يسوّي أصيص أزالية مقلوبًا ــ، أمام ضريح مجهولٍ سيِّئ السّمْعِ بلا ريب ــ تكريمًا له من أصدقائه الصمّ في أورليان، تقول اللّوحة التذكاريّة ــ ثمّ أمام ضريح أوبير روبير ــ ابن بار، زوجٌ حنون، أب صالح، وصديق مخلص، تقول اللوحة التذكاريّة همسًا - ثمّ يضيق ذرعًا: يغادر مقبرة أوتوي ويسير صُعُدًا في شارع كلود لوران باتجاه شارع ميشال آنج. حيث ينهال المصوّران على الثنائي، بعد أن اجتازت النجمة المنتظرة عتبة المدخل أخيرًا بصحبة العشيق الجديد، برشقٍ من الفلاشات. يجفل العشيق متبسّمًا للملائكة، فيما النجمة تغطّي وجهها وتستنزل اللعنات على المصورين، أمّا باومغارتنر العائد للتوّ من جولته في أرجاء المقبرة، فيمرّ، سهوًا، بمجالِ عدستيهما في

طريق عودته إلى شقّته. يسكب لنفسه كأسًا، ويتطلّع مجدّدًا عبر النافذة ريثما ينتهي النهار الذي يتريّث، ويمطّ إلى ما لا نهاية ظلال المباني والنباتات، وظلال العتبات والأكاسيا إلى أن تغرق هي وظلالها معًا في ظلّ أكبر يلطّف تضاريسها وألوانها، حتّى يقوّضها، يشربها، يُلاشيها ويبدّدها، وعندئذ يرنّ جرس الهاتف.

هذا أنا، يقول الراقود، لقد تمّت الأمور على خير ما يرام. هل أنت متأكد من أنّ أحدًا لم يلمحك؟ يسأل باومغارتنر قلقًا. لا، يقول الراقود، لم يكن هناك أحد من الناحية الخلفيّة. والحقيقة أنّه لم يكن هناك أحد تقريبًا داخل الدكّان. إذ لا يبدو أنّ الفنّ الحديث بضاعة رائجة هذه الأيّام. سدّ فمك أيّها الحقير، يصيح باومغارتنر، وماذا بعد؟ أين البضاعة الآن؟ وضعت كل شيء في الشاحنة البرّاد كما اتّفقنا، يجيب الراقود، وهي الآن مركونة في الحفظِ على مقربة من بيتي في المستودع الذي استأجرته. فماذا نفعل الآن؟ سنلتقي غدًا في شارونتون، يقول باومغارتنر، هل تذكر العنوان؟

٢١

في الأثناء لا يزال فيرّي جالسًا وأمامه كوب بيرة، هو كوبه الثاني، تحت أشعّة الشمس أيضًا، شأن الأوّل، غير أنّه بدّل المقهى وإن كان لم يغادر هذا الحيّ من أحياء الضفّة اليسرى. إنّه الآن جالس عند منعطف الأوديون الذي ليس، في العادة، مكانًا مثاليًّا لاحتساء كأس شراب وإن كان ثمّة دائمًا من يفضّله على أماكن أخرى: إنّه تقاطعٌ مزدحم، ضيّق، صاخب، مزدحم بإشارات المرور وبالسيّارات العابرة في كلّ اتجاه، هذا فضلاً عن تعرّضه باستمرار لمجاري الهواء الوافدة من جهة شارع دانتون. ولكن خلال فصل الصيف، إذ تفرغ باريس من معظم سكّانها، وتغدو شرفات المقاهي مكانًا مقبولاً لتمضية الوقت، حيث ضوء النهار راكدٌ وحركة السير خفيفة، لا تُحجَب رؤية مَدخلين مختلفين لمحطّة مترو واحدة. قليل من الناس يدخلونها أو يخرجون منها، بينما فيرّي يُراقب الناس عابرين من أمامه، منتبهًا، عن كثبٍ، إلى النصف الأنثوي من الناس الذي، من حيث الكمّ في الأقلّ، كما نعلم جميعًا، يتفوّق على النصف الآخر.

من شأن هذا النصف الأنثوي، لاحظَ قائلاً، أن ينقسم إلى فئتين: فئة اللواتي يحرصنَ، بعد أن نغادرهنّ، وليس بالضرورة إلى الأبد، على الالتفات إلى الوراء عندما نراقبهنّ وهنّ يهبطنَ سلّم المدخل في محطّة المترو، وفئة اللواتي، سواء كنّا نُغادرهنّ إلى الأبد أم لا، لا يلتفتنَ إلى الوراء. فيرّي، فيما يعنيه هو، دائمًا يلتفت إلى الوراء في المرّات الأولى، لكي يتسنّى له أن يعرف يقينًا إلى أيّ فئة من النساء تنتمي المرأة التي تعرّف عليها حديثًا، إلى الملتفات إلى الوراء أو إلى غير الملتفات. بعد ذلك يتكيّف مع خصالها هي، ويرضخ لتبنّي عاداتها، ويطابق سلوكه مع سلوكها، باعتبار أن لا جدوى من الالتفات حقًّا إذا كان الآخر لا يلتفت بدوره.

لكن لا أحد اليوم يلتفت إلى الوراء، ويهمّ فيرّي بالعودة إلى بيته. ولمّا لم يعثر على سيّارة أجرة شاغرة ــ فتلك التي أضاءت شارتها محمّلة، وتلك المطفأة لا تعمل ــ، متنبّهًا إلى أنّ الطقسَ ليس رديئًا، ارتأى أنّه قد لا يكون سيّئًا على الإطلاق أن يقطع المسافة سيرًا على قدميه. صحيحٌ أنّ المسافة طويلة، ولكن قطعها سيرًا ليس أمرًا مستحيلاً، ولا ريبَ في أنّ بعض الرياضة قد يكون مفيدًا لكي يصفو ذهن فيرّي الذي ما زال مشوّشًا بفعل الآثار الجانبيّة لفروق التوقيت.

أفكاره المشوّشة هذه، إذا استثنينا الذكريات، تدور حول التأمين وتاجر الخزائن الذي ينبغي أن يتّصل به، والمساومة على لائحة أسعار المُخَمِّن، وحول مارتينوف الذي يستحسن إطلاق أعماله مجدّدًا نظرًا لكونه، في هذه الأثناء، الفنّان

الوحيد الذي يبقى في طليعة من يتعامل معهم، ثمّ حول إضاءة الصالة التي ينبغي أن يُعاد النظر فيها كلّيًا وفق متطلّبات عرض التحف الجديدة؛ وفي آخر الأمر يفرض على نفسه اتخاذ قرار حاسمٍ بشأن معاودة الاتصال بصونيا أم لا.

المشهد العمراني يُطالعهُ، على التوالي، كلّما اقترب من شارع أمستردام، في سيره المتعرّج على الأرصفة بين روث الكلاب، برجلٍ خلفَ نظّارتين سوداوين يستخرج طبلاً ضخمًا من سيّارة روفر بيضاء، وفتاة صغيرة تصارح أمّها بأنّها اختارت، بعد تفكير، الألعاب البهلوانيّة، ثمّ امرأتين فتيّتين تتشاجران على ركنٍ في الموقف تلتهما شاحنة برّاد مبتعدةً بأقصى سرعتها.

لدى وصوله إلى الصالة، يُستَوقَف فيرّي لبعض الوقت من قبل فنّان أتاه من طرف رايبوثيك راغبًا في عرض مشاريعه على فيرّي. إنّه رسّام تشكيلي ساخِرٌ، واثقٌ من نفسه، له كثير من الصلات في الوسط الفنّي ومشاريعه أيضًا تشبه الكثير ممّا رآه فيرّي في سياق مهنته. فبدل أن تعلّق اللوحة، هذه المرّة، على الجدار، يقترح الفنّان أن يُحَتَّ بِحَمْضٍ موضعُ اللوحة على جدار جامعِ اللوحات: شكل مستطيل قياس ٢٤ x ٣٠ ، وعمق ٢٥ ملم. إنّي أنفّذ فكرة العمل على نحو سالب، إن شئتَ القول، يشرح الفنّان قائلاً، لذلك أحذف من ثِخَنِ الجدار بدل أن أضيف عليه. لا شكّ في أنّه أسلوب مثير للاهتمام، يقول فيرّي، ولكنّني حاليًا لا أعمل في هذا المجال. قد نتفق على القيام بأمر ما ذات يوم، ولكن ليس في الوقت الحالي. سنتحدّث بهذا

الشأن لاحقًا، اترك لي عنوانك وسأتصل بك. هكذا يتخلّص فيرّي من حتّات الجدران، فيحاول أن يسوّي كلّ الأمور العالقة بمساعدة امرأة شابّة تدعى أليزابت كان وافق على تعيينها، في فترة اختبار، بدلاً من دولاهاي، وهي مصابة بفقدِ الشهوة إلى الطعام وتتعاطى الڤيتامينات، تعمل لديه قيد الاختبار ريثما تتضح كفاءاتها. فلا يكلّفها بداية إلاّ ببعض المهام البسيطة.

ثمّ ينصرف مرّة أخرى إلى اتصالاته الهاتفيّة: يتصل فيرّي بشركة التأمين وبتاجر الخزائن، ويتفق معهما على اللقاء غدًا في الصالة. يمعن التفكير مجدّدًا في لائحة الأسعار ويتّصل أيضًا بالمُخَمِّن الذي يُخطِره بعزمه على زيارته في بحر الأسبوع. ولا يفلح في الاتصال مباشرة بمارتينوڤ، إذ يقع على المجيب الآلي الذي يترك عليه مزيجًا بارعًا من التوبيخ والتشجيع والتحذير، أي ما يلائم مهنته بالضبط. ثمّ يتداول طويلاً مع إليزابت بشأن الطريقة المثلى لتحسين الإضاءة في الصالة استعدادًا لمعرض التحف القطبيّة. ولكي يوضح أفكاره، يقترح فيرّي إحضار واحدة أو اثنتين منها من المحترف، لكي تُختَبَر التعديلات المحتملة بحسبِ الأشياء المعروضة نفسها، فلنحضر على سبيل المثال، الدرع العاجيّة ونابًا أو نابين من أنياب الخرتيت، وهكذا يتّضح لك ما أعنيه يا إليزابت. يسير نحو مؤخّر الصالة ويفتح باب المحترف فتتكشّف الحقيقة المُرَّة أمام ناظريه: باب الخزانة المخلّع المشرع على مصراعيه، ما عادَ يخبّئ شيئًا. مثل هذا الوقت ليس وقتًا ملائمًا لأن يتساءل المرء في قرارة نفسه، إذا كان ينبغي له معاودة الاتصال بصونيا أم لا.

٢٢

تاركًا حقيبتين ضخمتين مقفلتين قرب باب الشقّة المرتّبة على أحسن وجه، كأنه موشك على هجرِ المكان إلى الأبد، صفقَ باومغارتنر، لدى خروجه، البابَ بشدّة. مثل رنّانةٍ، مثل حرارة التلفون أو إشارة انغلاق أبواب المترو الأوتوماتيكيّة، أحدثت تلك الصفقة الحادّة والمكتومة نغمةَ «La» مُتقنة اهتزّت لها تعاطفًا أوتار الربع في متوالية بخستاين: بعد أن غادر باومغارتنر المكان، خيّم طيف تساوق نغميّ أساسيّ على أجواء الشقّة الخاوية، لعشرِ ثوانٍ أو ربّما لعشرين ثانية، قبل أن يتحلّل رويدًا ثمّ يستحيلُ بَدَدًا.

اجتاز باومغارتنر بولڤار أكسلمان الذي كان سلَكه لبعض الوقت بمحاذاة ضفّة السين قبل أن ينعطف سالكًا شارع شاردون ــ لاغاش. في عزّ الصيف تبدو أحياء الدائرة السادسة عشرة مقفرةً حتّى أكثر ممّا تبدو عليه خلال فصول السنة الأخرى، بحيث أنّ شاردون ــ لاغاش، يبدو من بعض الزوايا أشبه بفضاء ضربته قنبلة نوويّة. أخرج باومغارتنر سيّارته من موقف

تحت أحد المباني في جادة ڤرساي، ثمّ بلغ ضفّة السين وسلك الخطّ السريع الذي عاد وخرج منه قبل جسر سولّي. وجد نفسه وسط ساحة الباستيل التي منها عادَ وسلكَ صُعُدًا شارعَ شارونتون الطويل باتجاه الجنوب الشرقي، وصولاً إلى شارونتون نفسها. وعلى هذا النحو يكون قد اجتاز في محور سيره، على طول عمودها الفقري، مجملَ الدائرة السابعة عشرة المأهولة، في تلك الحقبة، أكثر من الدائرة السادسة عشرة، باعتبار أنّ سكّان الأولى يحظون بعُطَلٍ أقلّ مما يحظى به سكّان الثانية. على الأرصفة يمكن للمرء أن يلاحظ بسهولة، في بطئهم وعزلتهم وحيرتهم، المتحدّرين من العالم الثالث وأبناء الجيل الثالث من المهاجرين.

فور دخولها شارونتون، انعطفت سيّارة الفيات إلى اليمين سالكةً زقاقًا يحمل اسم موليير أو موزار، إذ غالبًا ما ينسى باومغارتنر أيّ الاسمين يحمله الزقاق، لكنّه يعلم أنّه يفضي، على نحوٍ متعامد، إلى خطّ سريع آخر، تمتدّ بعده منطقة صناعيّة صغيرة بمحاذاة ضفّة السين. تتألّف هذه المنطقة الصناعيّة من صفوفٍ من المستودعات، وصفوف من المحالّ ذات الأبواب المعدنيّة الجرّارة التي خُطّت بالطلاء على بعضها أسماءُ شركاتٍ معلومة ومجهولة. كما تشمل المنطقة، بحسب ما تنبئ به اللّوحة الإعلانيّة الضخمة ــ المرونة في خدمة النقل والإمداد ــ، عددًا من مستوعبات التخزين للإيجار تتراوح مساحة أحدها بين مترين وألف متر مربّع. وتشمل أيضًا مصنعين أو ثلاثة لا توحي بالازدحام والصخب على الإطلاق كأنّها تعمل بربع طاقتها على الإنتاج، بالإضافة إلى محطّة تكرير، وهذه كلّها

موزّعة حول جزءٍ من طريقٍ لا تحمل، في الظاهر، اسمًا.

إنّه قطاعٌ أشدّ خواءً من أيّ مكان آخر في منتصف فصل الصيف، وشبه ساكن: الأصوات الوحيدة التي تُسمَع فيه إنّما تتناهى ضوضاءً مشوّشةً، ارتعاشًا مكتومًا، أصداءً لأصواتٍ لا ندري كنهها. خلال أيّام السنة الأخرى قد نصادفَ فيه، على نحوِ الاستثناء لا العادة، زوجين عجوزين بصحبة كلبهما. بعض مدرّبي السواقة اهتدوا أيضًا إلى المكان، وسرت بينهم كلمة السرّ، مستغلّين انعدام السير والسيّارات لكي يدرّبوا تلامذتهم من دون مخاطر، وأحيانًا قد نصادف سائحًا حاملاً درّاجته على كتفه، يجتاز المكان سيرًا لكي يسلك الجسر الذي يعبر السين باتجاه إيڤري. من ذلك المعبر تتراءى جسور أخرى شيّدت كيفما اتّفق وفي كلّ اتّجاه فوق المياه. وعند أعلى الرافد الذي يصبّ في المارن، يقومُ مجمّع تجاري فندقي صيني متشبّثًا بمعماره المنشوري على حافّةِ النهرِ والإفلاس.

لكن لا أثرَ اليوم لأحدٍ أو شيء. لا شيء سوى شاحنة برّاد صغيرة مركونة أمام أحد مستوعبات التخزين، ولا أحدَ سوى الراقود وراء مقود هذه الشاحنة المجهّزة بنظام تبريد «ترمو كينغ». ركن باومغارتنر سيّارته الفيات بموازاة البرّاد وأنزل زجاج النافذة من دون أن يترجّل: الراقود هو الذي ترجّل من الشاحنة. الراقود يشعر بالحرّ وهو لا يكفّ عن الشكوى. عرقه المتصبّب يُبرز سمات مظهره المُهمَل: فشعره ليس سوى كتلة دهنيّة مُنَسّلة، ونُقَح العرق تتجمّع على «تيشرته» الدعائيّة المرقّطة، وغضون من الوسخ تتخلّل وجهه كأنّها بوادر تجاعيد مبكرة.

حسنًا، قال الراقود، البضاعة كلّها هنا. فماذا نفعل؟ ستعمل على تحميلها ونقلها، أجابه باومغارتنر، حاملاً مفتاح الصندوق بيده. ستكدّسها كلّها في داخله. واحرص على التأنّي في حمل الأشياء. المشكلة أنّ هذا الحَرّ يشكّل عائقًا، ردّد الراقود قائلاً. حمِّل، ردّد باومغارتنر قائلاً.

جالسًا وراء مقود سيّارته لم يبرح مقعده، وحريصًا على الكتمان مطمئنًا باستمرار إلى أن لا أحد آخر يسمعه، ارتدى باومغارتنر قفازَين من جلد ناعم، مَرِنٍ، سهل الملمس، خِيطَ بسيور كتّان، مُشرفًا على تحمّيل المستوعبات في مستودع التخزين. الحرّ شديد حقًّا، لا أثر لنسمة، والراقود يتصبّب عرقًا. عضلاته التي أنهكها المخدّر ما زالت منتفخة قليلاً تحت التيشرت، وباومغارتنر يمقت ذلك، يمقت أن يتطلّع إلى ذلك، ويمقت ألاّ يمقت التطلّع إلى ذلك برغم كلّ شيء. ثمّ بعد فراغه من مهمّته عاد الراقود ليقترب من الفيات. قُضيَ الأمر، قال. هل ترغب في إلقاء نظرة؟ ولكن مرحى، أنت ترتدي قفّازين. بسبب الطقس، قال باومغارتنر، بسببي أنا، بسبب الحرّ الشديد. حساسية البشرة. لا تشغل بالك. هل حمّلت كلّ شيء؟ كلّ شيء، قال الراقود. دعني أرى، قال باومغارتنر مترجّلاً من سيّارته، معاينًا محتوى المستودع.

ثمّ رفع رأسه مقطّبًا. الكمّيّة ناقصة، قال. ناقصة؟ سأل الراقود. هناك مستوعب مفقود، قال باومغارتنر. هناك مستوعب غير موجود هنا. أنتَ مخطئ، قال المُدمنُ مستهجنًا. كانت سبعة مستوعبات عند انطلاقنا، وهي الآن

سبعة. العدد صحيح. لا أعتقد، قال باومغارتنر. تفقّدْ صندوق الشاحنة، لا بدّ أنّك غفلتَ عن واحد هناك.

هزّ الراقود كتفيه عَجَبًا، وما إن صعدَ إلى صندوق الشاحنة البرّاد حتّى سارع باومغارتنر إلى إغلاق درفتي الباب وأحكم إقفاله. تناهى صوت الراقود مكتومًا، ممازحًا في البداية، ثمّ متهدّجًا، ثمّ فَزِعًا. بعد أن أحكم باومغارتنر إقفال درفتي الباب، دار حول الشاحنة دورة كاملةً ثمّ فتح بابها الأمامي وجلس وراء مقودها.

من القمرةِ لا يُسمَع صوت الشاب. أزاح باومغارتنر مِصراعًا صغيرًا خلف مقعد السائق، وسحبِ مزلاجٍ قبل أن يفتح كوّة مستطيلة يستطيع من خلالها رؤية ما بداخل الصندوق العازل. كوّة لا تتعدّى حجمَ علبة تبغٍ من ذات العشر سكائر: قد تتيح إلقاء نظرة إلى الخلفِ، غير أنّها لا تتسع لتمرير يدٍ عبرها.

قُضيَ الأمر الآن، قال باومغارتنر. مهلاً، قال الراقود، ماذا تفعل؟ لا تتحامق من فضلِك. لقد قُضيَ الأمر، ردّد باومغارتنر قائلاً. ستغرب عن وجهي أخيرًا. ولكنّي لم أزعجك من قبل، قال الراقود متملّقًا. أخرجني من هنا، الآن. لا أستطيع، قال باومغارتنر، أنت عقبة في طريقي. قد تغدو عقبةً، لذلك أنتَ عقبة. دعني أخرج، قال الراقود مرّة أخرى. سوف يُفتَضح الأمر في النهاية، وسوف تتسبّب لنفسك بالكثير من المتاعب. لا أشاطرك الرأي في هذا الخصوص، قال باومغارتنر. ألا تُدرك أنّك لا تملك وجودًا اجتماعيًّا شرعيًّا؟ ولن يلاحظ أحد غيابك. حتّى الشرطة لن تهتمّ للأمر. فلا أحد يعرفك سوى

التاجر الذي يزوّدك بالمخدّر، ولا أعتقد أنّ من صالحِه اللجوء إلى الشرطة. كيف لأيٍّ كان أن يلاحظ غيابك؟ من يلاحظ غياب مجهول؟ لذا، عليك بالهدوء. ستجري الأمور بسرعة، مجرّد مزيج من حرّ وبرد.

لا، صاح الراقود، لا، ثمّ كفاك تشدّقًا، أرجوك. حاول مجدّدًا إقناع باومغارتنر ولكن خانه المنطق. هذا فضلاً عن أنّ أسلوبك شائع، قال في محاولة أخيرة يائسة. في كلّ الأفلام التلفزيونيّة الناس يُقتلون بالطريقة ذاتها، فلا جديد فيها. ما تقوله ليس صائبًا تمامًا، أقرّ باومغارتنر قائلاً، غير أنّي أعتزّ بتأثّري بالأفلام التلفزيونيّة. الفيلم التلفزيوني هو فنّ كسواه. ولكن دعنا الآن من كلّ هذا. كفى.

ثمّ أغلق الكوّة بإحكام وأدار المحرّك قبل أن يُشغِّلَ المبرّد. الكلّ يعلم مبدأ الديناميكا الحراريّة الذي يُشغّل عربةً عازلة، وعلى الأخصّ، ذاك الذي يشغّل برّادًا: هناك غاز يسري في الجنبات لامتصاص حرارة الداخل. وبفضل المولّد الصغير المثبّت فوق القمرة، وبفضل مضغط المبرّد الذي يتيح سريان الغاز، يجري تحويل هذه الحرارة إلى برودة. هذا؛ وهناك خياران لدرجة التبريد في عربات مماثلة: ٥ فوق الصفر، و١٨ تحت الصفر. والخيار الأخير هو الذي حرص باومغارتنر على انتقائه لدى اتصاله أمس الأوّل.

٢٣

لا ريبَ في أنّ اختفاء التحف شكّلَ خسارة فادحة. فبذلك ضاع تمويل الرحلة إلى القطب الشمالي الذي استثمر فيه فيرّي مبالغَ لا بأس بها، وتحوّل الإنفاق إلى عجزٍ في قيوده المالية. ولمّا كان على أبواب موسم الكساد ــ وهي الفترة التي تشهد ركودًا في حركة البيع والشراء ــ في أعمال الصالة، انتهز الدائنون هذه الفرصة للتذكير بديونهم المستحقّة، والفنّانون للمطالبة بمستحقّاتهم، والمصارف للتعبير عن قلقها. ولأنّ الصيف على آخره، فلن تلبث مصلحة الضرائب، شأنها في الفترة نفسها من كلّ سنة، أن تطالب بشتّى أنواع الرسوم، والتهديد بالتسويات الضرائبيّة، والجزاءات ومختلف أساليب الجباية، ناهيك عن تجديد العقد المرفق برسائل في البريد المضمون من قبل النقابة. لذلك شعر فيرّي أنّه وُضِعَ أمام موقف حرج.

طبعًا، كان عليه أوّلاً أن يتقدّم بشكوى رسميّة. فعلى أثر التثبّت من تعرّضه للسرقة، اتصل فيرّي بمخفر الدائرة التاسعة فجاءه ضابطٌ مُتعَبٌ في الشرطة القضائيّة. عاين الرجل

الأضرار، وحرّر الشكوى وسأل عن شركة التأمين التي يتعامل معها. وكان هذا بالضبط ما أراد فيرّي أن يوضحه للضابط، فالحقيقة أنّ هذه الأشياء سُرِقت قبل أن يتسنّى له تأمينها. كنتُ أودّ أن أفعل، ولكن. أنتَ أحمق بمعنى الكلمة، قاطعه الضابط موبّخًا، منتقدًا إهماله وموضحًا أنّ مصير الأشياء المفقودة في مهبّ الرِّيح، وأنّ فرص العثور عليها ضئيلة جدًّا. فمثل هذه القضايا، قال مسترسلاً في الشرح، تبقى عالقة في معظم الأحيان نظرًا للتنظيم المُتقَن الذي يتحكّم بتهريب التحف الفنّيّة: ففي أفضل الأحوال من المرجّح أن تبقى القضيّة عالقة لسنوات. سوف نبذل كلّ جهد ممكن، ولكن فرص النجاح شبه معدومة. ومع ذلك سأرسل لك أحد رجال الأدلّة الجنائيّة، خَتَم الضابط قائلاً، لعلّه يعثر على شيء ما. وطبعًا، لا ينبغي أن تمسّ شيئًا بانتظار مجيئه.

وصل خبير الأدلّة الجنائيّة بعد ذلك ببضع ساعات. لم يأت مباشرة للقائه، إذ عرّج أوّلاً على الصالة لمعاينة الأعمال الفنّيّة المعروضة. كان رجلاً قصير القامة، ضعيف البصر، ذا شعر أملس ضارب إلى الشقرة، دائم الابتسام ولا يبدو متلهّفًا لمباشرة عمله. للوهلة الأولى حَسِبه فيرّي زبونًا ـ هل أنت مهتم بالفنّ الحديث؟ ـ قبل أن يعرّف الرجل عن نفسه مبرزًا شارته ـ الضابط في شرطة سان سوبليس، مفرزة الأدلّة الجنائيّة. أحسب أنّها مهنة مليئة بالإثارة، قال فيرّي. الحقيقة، أجاب الآخر، أنّني مجرّد عاملٍ تقني في المختبر الجنائي، وبعيدًا عن عدسة المجهر الإلكتروني أكادُ لا أبصر إلاّ القليل. ولكنْ صحيح، بلى، مثل هذه الأمور مثيرة بالنسبة لي. لدى انتقاله

إلى محترف فيرّي، أخرج عدّته القليلة، كناية عن صندوق أدواتٍ يحتوي اللوازم المعتادة: آلة تصوير، دوارق سائل بلا لون، ذرور وفرشاة وقفّاز. لَبِثَ فيرّي بجانبه حتّى فرغ من مهمّته واستأذن مغادرًا. كان محبطًا، يفكّر في وسيلة لتعويض خسارته بأسرع ما يمكن، ومن حوله يثقل القيظ ويشتدّ.

تواصل الصيفُ بطيئًا، كأنّ الحرّ يجعل الوقتَ لزجًا، إذ يعرقل سريانَه احتكاكُ ذرّاتِه المرتفعة الحرارة. ولأنّ معظم العاملين في إجازة، كانت باريس أكثر مرونة وانفراجًا، لكنّ أجواءها لا تزال خانقة تحت وطأة الهواء الراكد الغنيّ بالغازات السامّة مثل حانة عابقة بدخان التبغ قبيل ساعة الإقفال. في أنحاء المدينة كافّة يُستغلّ انفراج الازدحام لنبش الشوارع وتحسينها: هدير المطارق الآليّة، دوران الحفّارات، تدويم جبّالات الإسمنت، روائح القطران الساخن تحت شمس تحجبها الأبخرة. كان فيرّي غافلاً عن كلّ هذا ــ أمور كثيرة تزدحمُ في رأسه ما دام يتنقّل بسيّارة أجرة من مصرفٍ إلى آخر، ساعيًا، من دون جدوى، لاقتراض المال حتّى لو اقتضى ذلك أن يرهن الصالة. لذلك ربّما شوهد عند الحادية عشرة صباحًا، في ذلك الحرّ الخانق، في شارع ٤ أيلول.

شارع ٤ أيلول هذا هو شارع عريض جدًّا وقصير جدًّا ويشكّل المال نابض الحركة فيه. مبانيه المتشابهة تقريبًا، طراز نابوليون الثالث، تؤوي فروع المصارف المختلفة، دوليّة وغير دوليّة، ومكاتب شركات التأمين، وشركات السمسرة، ووكالات تشغيل العمّال بصفة مؤقتة، ومكاتب تحرير

الدوريّات الاقتصاديّة، ومكاتب الصيرفة والخبراء الماليين ومديري الأملاك، ونقابات الملاّكين، ومؤسّسات الاستثمار العقاري، ومكاتب المحامين، ومحالّ المسكوكات وخرائب الكريدي ليونه المحترقة. المقهى الوحيد في الناحية يدعى «لاجيو». لكنّ مبنى المقهى يضمّ أيضًا مكتبًا لشركة طيران بولنديّة، وخدمة استنساخ الوثائق ووكالات سفريات ومعاهد تجميل، وحائزَ لقب أفضل مزيّن في العالم، واللوحة التذكاريّة لأحد أفراد قوّات الداخل الفرنسيّة، الذي قضى في سبيل فرنسا وهو في التاسعة عشرة من عمره (إذا كنتم تذكرون).

وتطالعك أيضًا في شارع ٤ أيلول آلاف الأمتار المربّعة من المكاتب المرمّمة للإيجار، وورش ترميم تحت الرقابة الإلكترونيّة المشدّدة: حيث تفرغ المباني القديمة من الداخل ويحافَظ على واجهاتها الخارجيّة، الأعمدة والكِرْيَتيد، والرؤوس المتوّجة المنحوتة فوق المداخل المقبّبة. ويُعاد تصميم الطوابق بما يتلاءم وشروط البيروقراطيّة للحصول على مقارّ فسيحة الأرجاء، ومطلّة وذات واجهات زجاجيّة مزدوجة، لمضاعفة المكاسب أيضًا وأيضًا: وكما في أنحاء باريس كلّها خلال فصل الصيف، ترى العمّال ذوي الخوذ في حركة دائبة، يتفحّصون الخرائط والتصميمات ويلتهمون سندويشاتهم ويتخاطبون عبر أجهزة التوكي واكي.

كان ذلك هو المصرف السادس الذي يقصده فيرّي في غضون يومين سعيًا وراء قرض، وكان خارجًا منه مخيّبًا، وأثر يديه الرطبتين على الوثائق التي يحملها لإجراء المعاملات

اللازمة. بعد أن هبط به المصعد، هو أيضًا، فُتِحت أبوابه في الطبقة الأرضيّة على بهوٍ فسيح الأرجاء، مقفرٍ إلاّ من بضع كنبات ومناضد. فيما كان يجتاز ذلك البهو شعر فيرّي بأنّه لا يرغب ولا يقوى على العودة مباشرة إلى بيته، وآثرَ أن يجلس لبعض الوقت على إحدى الكنبات. ما الدليل الحسّي على أنّه قانطٌ ومتشائم أو محبط؟ مثلاً، أن يبقى مرتديًا سترته برغم الحرّ الخانق، أن يحدّق بثبات في ذرّة غبار على كمّه ولا يقوى على إزالتها، ألاّ يرفع حتّى خصلة من شعره تدلّت فوق عينه، وخصوصًا، ربّما، ألاّ يحرّك ساكنًا لدى مرور امرأة من أمامه.

ما يجعل مثل هذا الأمر مستغربًا هو مظهر المرأة المذكورة. فالطبيعيّ، في نظر من يعرف فيرّي، أن يلفتَ عبور المرأة انتباه فيرّي. كانت امرأة فتيّة، طويلة القامة نحيلة القدّ لها مقاسات تمثال، وشفتان مرسومتان، وعينان لوزيّتان خضراوان وشعرٍ مجعّد بلون النحاس. كانت تنتعل كعبين عاليين وترتدي ثوبًا أسود فضفاضًا، مقوّرًا عند الظهر، ومزدانًا بنقوش فاتحة على شكلِ شارات عسكريّة على الكتفين والردفين.

من شأنِ أيّ كان، أو هو نفسه في أحواله المعتادة، أن يحسبَ لدى عبورها بقربه أنّ لا غرضَ لتلك الثياب إلاّ أن تُخلعَ عنها، لا بل تُنزَع عنها عنوةً. إذ بدت الإضبارة الزرقاء التي تضمّها بساعدها إلى جنبها، والقلم الذي يلامس شفتيها سهوًا، كأنّهما مجرّد تفصيل شكليّ، ما دامت هي أشبه بنجمة أفلام إباحيّة خلال المشاهد التمهيديّة، التي يُقال فيها أيّ كلام ريثما تزداد سخونة. مع ذلك، كانت بلا مكياج. وما كاد فيرّي

ليتنبَّه إلى هذا التفصيل، ولو عَرَضًا وبلا اكتراث كما لم يلفته من قبل ديكور البهو، حتّى سرى الوهن الشامل في أطرافه.. كأنّ كلّ موضع في جسمه بات يفتقد الهواء فجأة.

كأنّ نصف طنّ من الأحمال تُثقِل منكبيه وتسحق جمجمته وصدره في وقتٍ معًا. طعم معدن حمضيّ وغبار جافّ يجتاح فمه ويغزو جبينه وحلقه وقذاله، مولّدًا مزيجًا خانقًا: نوبة عُطاس، فواق حادّ، غثيان جامح. كان يستحيل عليه أن يأتي بردّ فعلٍ، مهما كان، إذ بدا معصماه مقيّدَين بأصفاد وبدا ذهنُه مبنّجًا بشعورٍ بالاختناق والقلق الشديد والموت الوشيك. ألمٌ حادّ اخترق صدره، مدوّمًا من الحلق إلى العانة، من السرّة إلى الكتفين، منتشرًا في ذراعيه وساقه اليسرى، وإذا به يقع عن الكنبة، ويرى الأرضيّة دانيةً منه بسرعة البرقِ ورويدًا في آنٍ معًا. بعد ذلك ألفى نفسه، بدايةً، ممدّدًا على الأرض عاجزًا عن الحركة، ثمّ، بعد أن فقد توازنه، أغمي عليه ــ يصعب القول كم من الوقت دامت غيبوبته، لكنّها أعقبت اللّحظة التي تذكّر خلالها تنبيهات فيلدمان بشأن تأثير درجات الحرارة القصوى على مرضى القلب.

سرعان ما استعاد وعيه، على كلّ حال، وإن بدا عاجزًا، في الوقت الحاضر، عن النطق: لم يكن سوادًا يجتاح الشاشة على نحو ما نطفئ جهاز التلفزيون، لا، فقد كان المجال البصري لديه لا يزال فاعلاً كما قد تستمرّ الكاميرا بالتصوير إذا وقعت على الأرض إثر موت المصوّر المفاجئ، فتسجّل في إطار ثابت كلّ ما يقع في مجال عدستها: زاوية جدار وأرضيّة بلاط،

قاعدة عمود نصفها خارج الإطار، جزء من قسطل، بقعة غراء عند طرف الموكيت. حاول أن ينهض لكنّه تهالك مجدّدًا أثناء المحاولة. لا بدّ أن عددًا من الأشخاص هُرع نحوه، من بينهم المرأة ذات الثوب الأسود، لأنّه شعر بمن ينحني فوقه، ومن ينزع عنه سترته ومن يمدّده على ظهره، ومن يسأل عن هاتف، ثمّ وصل رجال الإطفاء في شاحنة على جناح السرعة.

رجال الإطفاء هم فتيان هادئون، مُطمْئِنون، ذوو عضلات مفتولة، ويرتدون زيًّا أزرق غامقًا مزوّدًا بزوائد جلديّة وحلقات معدنيّة عند الحزام. بِرَويّة مدّدوا فيرّي فوق حمّالة، وبدقّة أدخلت الحمّالة إلى مؤخّر الشاحنة. أخيرًا شعر فيرّي بالأمان. غافلاً عن وجه الشبه بين وعكته هذه والوعكة التي ألمّت به في شهر شباط، على الرّغم من أنّ هذه أشدّ من الأولى، حاول في الشاحنة أن يستعيد قدرته على النطق، ولكن طُلِبَ منه بتهذيب أن يلزم الصمت حتّى وصوله إلى المستشفى. فامتثل. ثمّ أغمي عليه مجدّدًا.

٢٤

لَمّا فتح عينيه لَم يرَ في البداية من حوله سوى البياض كأيّامِ الطوف الجليديّ الجميلة. كان فيرّي راقدًا على سرير فرديّ متحرّك ذي فراشِ صُلبٍ مكنّرٍ ومشدود، بمفرده في غرفة غير فسيحة، ولا لونَ آخر إلاّ ذاك الزمرّدي البعيد لشجرةٍ نافرةٍ من الفضاءِ ضمنَ إطار النافذة المربّع. أغطية السرير والملاءات وجدران الغرفة والسماء كانت بيضاء هي أيضًا. كان من شأن الشجرة، وهي العلامة الخضراء الوحيدة، أن تكون واحدةً من الخمسة وثلاثين ألف شجرة دلب، والسبعة آلاف شجرة زيزفون أو الثلاثة عشر ألفًا وخمسمئة شجرة كستناء المزروعة في أرجاء باريس المختلفة. اللهمّ إلاّ إذا كانت إحدى تلك الأشجار التي تطالعنا في ما تبقّى من الأراضي البور، والتي لا نذكر اسمها على الإطلاق، والتي لا اسمَ لها ربّما وليست سوى أعشابٍ بريّة عملاقة، نبتة غير شرعيّة نَمَت وتعاظم حجمها كالمسخ. على الرّغم من المسافة التي تفصله عنها، حاول فيرّي أن يتبيّن الفصيلة التي تنتمي إليها، غير أنّ هذا الجهد البسيط كان كفيلاً بإنهاكه، فأغمض عينيه.

عندما فتحهما مجدّدًا، بمضيّ خمس دقائق أو في صبيحة اليوم التالي، كانت الأشياء من حوله على حالها، غير أنّ فيرّي أحجم هذه المرّة عن فتح إضبارة الشجرة. يصعب القول حقًّا إذا كان يبذل المستطاع لكي لا يفكّر في شيء أو إذا كانت حاله لا تسمح له بالتفكير بأيّ شيء، مهما كان بسيطًا. وإذ شعر وتبيّن على نحوٍ مشوّش جسمًا غريبًا على أنفه وجعلَ في عينه طَرَفًا من حَوَل، حاول أن يرفع يده إليه ليتبيّن حقيقة أمره، غير أنّ ساعده الأيمن لم يطاوعه. وللعلم فإنّ هذا الساعد كان في وضعيّة البَسْطِ، مثبّتًا إلى حافة السرير بسيْر وقد غُرِزَت فيه إبرة مصلٍ غليظة مثبّتة بشريط لاصقٍ شفّاف. ولَمّا كان فيرّي قد بدأ يُدرك أخيرًا حقيقة ما يجري من حوله، لم يكن إصراره على التثبّت، بيده اليسرى، من أنّ الجسمَ الغريب الذي يغطّي منخريه هو قناع الأوكسيجين، إلاّ من قبيل الإجراء الشكليّ وتحصيل الحاصل. في تلك الأثناء فُتِحَ الباب فبانت امرأة شابّة متدثّرة، هي أيضًا، بالأبيض، غير أنّ بشرتها سوداء، وأطلّت برأسها ملتفتةً نحو من ينبغي أن تكون ممرّضة مساعدة، طالبةً منها أن تبلّغ الدكتور سارادون بأنّ الرقم ٤٣ قد استيقظ.

عندما ألفى نفسه وحيدًا للمرّة الثانية، استأنف فيرّي محاولاته الخجولة للتعرّف إلى الفصيلة التي تنتمي إليها الشجرة البعيدة. لكن برغم إخفاقه في محاولاته الثانية، فإنّه، هذه المرّة، لم يغرق مجدّدًا في النوم: ثمة تحسّن إذًا. ومع ذلك، راح يُدقّق في الأشياء من حوله بحرصٍ ورويّة، مُديرًا رأسه لكي يتبيّن الآلات المختلفة إلى جانب السرير، الشاشات والعدّادات التي ينبغي أن تظهر حالَ قلبه: أرقام من بلّور سائل مُرتعشة

ومتحوّلة على الدوام، خطوط أفقيّة متعرّجة منتقلةً من اليسار إلى اليمين، متكرّرة على الدوام متشابهةً ومختلفة كأمواج. تلفون على منضدة بجانب سريره، وقناع أوكسيجين للطوارئ يتدلّى من رزّة عالية. تصبّر فيرّي على علّته. في الخارج، كان النهار آفلاً، مُحيلاً بياضَ الغرفة كلّه إلى رمادي ضارب إلى الصفرة، ومظلّلاً لون الشجرة البعيدة إذ يستحيل أخضر برونزيًّا ثمّ أخضر داكنًا. أخيرًا فُتِح الباب وكان الوافد هذه المرّة الدكتور سارادون بذاته، الذي تسربلَ بلحية كثّة سوداء ومئزرٍ أخضر مُشرِق وغطاء رأس مُرتجل من اللون نفسه: لم نبرح نطاق الأخضر إذًا.

خلال انهماكه بمعاينة مريضه، أخبره سارادون أنّهم اضطروا، إثر نقله إلى طوارئ المستشفى، إلى إخضاعه لعمليّة قلب مفتوح ووصلِ عدد من شرايين قلبه حتّى قبل أن يستردّ وعيه، وكلّ المؤشرات تدلّ على أنّ الأمور جرت على خير ما يرام. وبالفعل اكتشف فيرّي، بعد أن رُفِعَ عنه الغطاء وعمدت الممرّضة إلى تغيير ضمّاداته، آثار خياطة على طول ذراعه اليسرى وساقه اليسرى، وعلى طول عظم الصدر. كان أثرها جميلاً كحياكة يدويّة، عبارة عن سلسلة من القِطَبِ الطويلة والرقيقة المتناسقة التي تذكّر بشريط إنكليزي من دانتيلاً عصر النهضة أو مقلب كمرٍ مدروز أو سطر كتابة.

لا بأس، خلصَ الطبيب إلى القول بعد المعاينة. هناك تحسّن ملحوظ، أردف قائلاً وهو يقلّب إضبارة الأوراق المعلّقة عند أسفل السرير، فيما انهمكت الممرّضة في إلباس فيرّي بيجاما معقّمة. من المستحسن، بحسب سارادون، أن يلبث المريض

لثلاثة أو أربعة أيّام أخرى في قسم العناية المركّزة قبل أن يُنقل إلى غرفةٍ عاديّة. وسيتمكّن من مغادرة المستشفى في غضون أسبوعين أو أقلّ. الزيارات غير ممنوعة. كان الليل يواصل هبوطَه.

في اليوم التالي، كان فيرّي يشعر فعلاً بأنّه أفضل حالاً. لبثَ لبعض الوقت يفكّر عساه من يُخْطِرُ، من بين معارفه، بحالته الصحيّة. بدا من المستحسن عدم إخطار سوزان التي لن تسمع شيئًا عنه منذ سنوات والتي قد لا ترحّب كثيرًا باتصاله. كما أنّه يفضّل ألاّ يقلق أسرته التي غدت في نظره، بأيّة حال، أشبه بأرخبيل جزر متباعدة وبعيدة، ولن يلبث المدّ أن يغمرها. وبذلك لم يبقَ عدد كبير من الناس، حقًّا، وخَلُصَ فيرّي إلى أنّه سيتصل بالصالة، على الأقلّ، في وقتٍ ما من فترة بعد الظهر. فعلى الرّغم من أنّ إليزابت اعتادت بسرعة قياسيّة فترات اختفائه المفاجئة، ولا شكّ في أنّها تحرص على فتح أبواب الصالة كالمعتاد وتصريف الأعمال الجارية، فإنّه من الأفضل أن تعلمَ أين تجده. غير أنّ مثل هذا الأمر ليس ملحًّا ولا يُصنّف في سلّم الأولويّات. فلعلّه من الأفضل إقفال الصالة ريثما يغادر المستشفى ويستردّ عافيته، ذلك أنّ خطوة مماثلة قد تكون هي الأنسب في فترة الكساد السائدة. سيتصل غدًا بهذا الشأن. ثمّ حاول أن ينامَ مجدّدًا عندما جاءت الممرّضة على نحو مباغت لتعلمه بأنّ لديه زائرًا. بحركة تلقائيّة حاول فيرّي أن يُنهِضَ جذعَه غير أنّه أخفق، ما زال خائر القوى، والنهوض ما زال مستحيلاً في حالته تلك.

بانت عندئذ امرأة شابّة لم يتعرّف عليها مباشرةً لشدّة ما تغيّر مظهرها منذ لقائهما في شارع ٤ أيلول: كانت ترتدي صُدرةً قصيرة

زرقاء مقلّمة بلون أصهب بني وتنّورةً مشقوقةً إلى أعلى زرقاء اللون، وحذاء مفلطح النعل. وإحدى حمّالتي الصُدرة توشك على الانزلاق. ومع ذلك، مرّة أخرى، بدت بلا مكياج. بعد أن تعرّف عليها أخيرًا، ارتأى فيرّي أنّ مظهره بالبيجاما غير لائق لاستقبالها: بدرت منه حركة تلقائيّة لتسوية شعره المتّسخ الذي صُمِّغَ خصلةً خصلة، بالهلام الموصل للحرارة لدى استخدامهم آلة تخطيط الدماغ لحظة وصوله إلى طوارئ المستشفى.

على الرّغم من حمّالة الصُدرة، وبصرف النظر عن الشقّ المتمادي في تنّورتها وحقيقة أنّ مشية هذه المرأة من النوع الذي يولّد في الرّوع أفكارًا وأفكارًا، شعر فيرّي منذ الوهلة الأولى بأنّ الأمور بينهما لن يُكتَب لها النجاح؛ فالأحرى به، من أعماق وَهَنِهِ وعَيْنِه شبه المغمضة، أن يتحرّى أجساد الممرّضات، وأن يتلهّى بالتخمين حول وجود أو عدم وجود أيّ قماش آخر على أجسادهنّ تحت المئزر؛ ذلك أنّ الوافدة المعنيّة ما كانت تثير فيه، تلقائيًّا، إلاّ الشعور الذي تثيره أيّ راهبة من راهبات الزيارة ــ ثمّ أنّ ذلك الزهد في استعمال المساحيق لا يخلو من شبهةٍ دينيّة. إلاّ إذا كانت تحسب، في أعماق لاوعيها، أنّها، على نحو ما هي عليه، أكثر ممّا يستحقّ رجل مثله، فقد نبا عن سلوكها ما يؤكّد هذا المعنى، ولكن لا، فمثل هذا الظنّ ليس من خصالها.

لن تمكث، بأيّة حال، أكثر من خمس أو عشر دقائق، موضحةً أنّها حصلت على عنوان المستشفى من رجال الإطفاء، وأنّها إنّما أرادت أن تطمئنّ إلى حالته. كما ترين، أنا على ما

يرام، قال فيرّي لشدّة ارتباكه، متبسّمًا بوهَنٍ بادٍ، مشيرًا بحركة غامضة إلى قناع الأوكسيجين والمصل. بعد ذلك لم يتبادلا أيّ حديث حقيقيّ، إذ بدت من الصنف الذي لا يحبّذ الكلام فيقتصد به، واقفةً لِصقَ الباب كأنّها باستمرار تهمّ بالمغادرة. قبل أن تغادره اقترحت أن تأتي لزيارته فيما بعد، إذا كان لا يمانع في ذلك. فوافق كأنّما غَصْبًا: فهو، في آخر الأمر، لا يبالي بهذه الفتاة، ولا يرى سببًا يدفعها لتكرار زيارتها؛ ولا يفهم تمامًا ما غرضها من كلّ ذلك.

طيلة الأيّام الثلاثة التي كان على فيري أن يقضيها في قسم العناية المركّزة، جاءت الفتاة لزيارته كلّ يوم، في الموعد نفسه من فترة ما بعد الظهر، دون أن تمكث أكثر من ربع ساعة. في المرّة الأولى جلست على الكرسي الضخم ذي السيور البلاستيكيّة الباهتة التي توحي بأنّها غير نظيفة، بعد أن قرّبتها من السرير. ثمّ نهضت لتقف لبرهة بقرب النافذة التي ما زالت تشكّل إطارًا للشجرة البعيدة ــ والتي منها، يتناهى، عبر النافذة، تغريد طيرٍ سوف يهتزّ له الزمرّد ويلمع. أمّا في اليومين الثاني والثالث فجلست على طرف السرير المكنّر المشدود: وطوال فترة وجودها لن يجرؤ فيرّي على تحريك أيّ من أطرافه المحشورة، لا رِجله المقوّسة عنوةً ولا أصابع قدميه العالقة بالغطاء المثنيّ والمشدود كنسيج خيمة.

ولكن في اليوم الثالث، سألها عن اسمها حين همّت بالمغادرة. هيلين. حسنًا، هيلين. لا بأس به كاسم. وما هي صنعتها بالضبط؟ فتروّى هيلين في الإجابة.

٢٥

في الأثناء، يحاول باومغارتنر أن يركن سيّارته أمام أحد الفنادق الكبرى الساحليّة ناحيةَ ميميزان ـ بلاج، شمال شرق البيرينه الأطلسيّة، وهي ناحية تقع على هامش المنطقة التي يجوبها عادةً في مثل هذه الأوقات من السنة. الفندقُ لا يبدو ممتازًا، ولكنْ يصعب في مثل هذا الموسم العثور على مكان شاغر، حتّى في الفندق المذكور: وموقف السيّارات التابع له يعجّ بالسيّارات ذات اللّوحات الغريبة، لذا أحسن باومغارتنر في حجزه المسبق لإحدى غرفه.

يقود إذًا سيّارته ببطءٍ شديدٍ عبر ممرّات الموقف، مُصادِفًا أزواجًا وعائلات يرتدي أفرادها الملابس القصيرة والملوّنة قاصدين حمّامات الشاطئ. الشمس ثقيلة الوطأة على المنظر المترامي، وإسفلت الطرق الغالي يتقافز فوقه الأولاد الحفاة متبرّمين. كلّ الأماكن محجوزة في هذا الموقف، ولا مكانَ شاغرًا فيه، الأمر الذي يُغضِبَ باومغارتنر عادةً، غير أنّ أمامه متّسعًا من الوقت، والبحث عن مكان لركن سيّارته قد يوفّر له

ذريعةً يشغل بها وقته. يتجنّب ركنها في الأماكن الموسومة برسم كرسيّ متحرّك لأنّها أماكن مخصّصة للمعوقين. وليس دافعه إلى الامتناع أنّه، بالضرورة، إنسان متحضّر أو معنيّ على نحوٍ خاصّ بمصائر تلك الفئة من الناس، لا، وإنّما خشيته، الغامضة، من أن يجد نفسه، ذات يوم، مُقعدًا بقدرةِ قادرٍ أو بضربٍ من ضروب العَدوى التي يعجز عن تفسيرها.

بعد فراغهِ من حلّ المُعضِلة المتمثّلة بإيجاد مكان شاغر لِرَكنِ سيّارته، يستخرجُ باومغارتنر حقيبته من صندوق الفيات ويتّجه إلى مدخل الفندق. لا بدّ أنّ واجهته قد أعيد طلاؤها حديثًا، فثمّة بُقَعٌ من الطلاء متناثرة، هنا وهناك، في زوايا المكان ورائحة طَرشٍ أبيض تسود الردهة، حريفة بليلة، تُذكّر برائحة اللّبن المحمّض. تلوح حول المبنى آثار ورشة حديثة العهد؛ أغطية من البلاستيك الملطّخة مُكدّسة في مستوعبات تُرِكَت عند أطراف الموقف، وألواح مكسوّة بالإسمنت كوّمت كيفما اتّفق في إحدى الزوايا البعيدة. أمّا عامل الاستقبال الذي ازدان جبينه بلطخٍ دمويّة حمراء، فيحكّ كتفه اليمنى بقوّة وهو يُدقّق في السجلّ بتاريخ الحجز الذي يحمل اسم باومغارتنر.

الغرفة معتمة، غير مريحة، أثاثها الهشّ وغير المتين يوحي بأنّه أثاث زائف أشبه بديكورٍ مسرحيّ، فمفرش السرير مقوّس كأرجوحة النوم، وحجم الستائر المسدلة لا يتلاءم وحجم النافذة. وفوق الكنبة الصُلبة القانطة مطبوعة حجريّة تمثّل بعض الزينيّات، لكنّها لا تستوقف باومغارتنر طويلاً: إذ يتوجّه مباشرةً نحو الهاتف، تاركًا حقيبته على الأرض: يرفع السمّاعة ويطلب

الرقم. لا بدّ أنّه يجد الخطّ مشغولاً فيقطّب ويضع السمّاعة، ثمّ يخلع سترته ويدور حول حقيبته من دون أن يفتحها.

بعد دقائق معدودة، عندما يدخل الحمّام ليغسل يديه، يلاحظ أنّ فتح الحنفيّات وإقفالها يحدثان ارتجاجًا زلزاليًّا في شبكة المواسير يشمل المبنى كلّه، وإذ يستدير باومغارتنر مغادرًا الحمّام تنزلق قدمه على الأرضيّة الزَلِقة. لدى عودته إلى الغرفة يفتح الستائر ويقفُ وراء النافذة ليكتشف أنّها مطلّة على بئر، وعلى مصرف تهوية غامض، وعلى فتحة مدخنة مزجّجة ومكسوّة بالسخام. يشعر باومغارتنر أنّ الأمور جاوزت الحدّ، فيهرع إلى الهاتف متحدّثًا إلى موظّف الاستقبال طالبًا منه تغيير الغرفة. فيجيبه الموظّف وهو يحكّ موضعًا ما من جسمه أنّ الغرفة الوحيدة الشاغرة تقع في الطبقة العليا، ولأنّ طاقم العاملين في الفندق لا يتميّز بتفانيه في خدمة الزبون، لم يأتِ أحدٌ منهم لتولّي أمر الحقيبة التي نقلها بنفسه متسلّقًا السلّم.

في الطبقة العليا، يتكرّر المشهد نفسه: يحاول باومغارتنر أن يتصل بعامل الاستقبال، لكنّه كلّما حاول وجد الخطّ مشغولاً. يشعر، للمرّة الثانية، بأنّه على حافّة الغضب، غير أنّه يتروّى قليلاً ويهدأ، يفتح حقيبته ويوزّع متاعه بين الخزانة المعتمة وصُوان من خشب الصنوبر. ثمّ يتفقّد الغرفة الجديدة التي هي توأم الأولى في كلّ تفاصيلها ما عدا المطبوعة الحجريّة فوق الكنبة، حيث استبدلت الزينيّات بنباتات الزعفران. وإذا كانت النافذة تطلّ مواربةً على موقف السيّارات، فهي، على الأقلّ، تتيح لنور الشمس أن يتسلّل إلى الغرفة، كما تتيح لباومغارتنر أن يُراقب سيّارته.

٢٦

أنا طبيبة، أجابت هيلين إذًا بعد تردّد، ولكن ليس تمامًا. وعلى كلّ حال، لم أعد كذلك الآن، أقصد أنّني لم أعد أزاول الطبّ. والحقيقة أنّها لم يسبق لها أن طبّبت مريضًا، مؤثرة مجال البحوث الأساسيّة على علاج الأمراض المتشابهة، وهو مجال هجرته، هو أيضًا، منذ ما يقرب السنتين بعد أن ورثت ما يكفي لكي تعيل نفسها من دون عمل. كان آخر منصب شغلته في مستشفى سالبتريير، في قسم علم المناعة، كنت أبحث عن المضادّات العضويّة، أتحرّى وجودها، وأجري حسابات على كميّتها، وأحاول أن أرى ماذا تشبه، وأدرس نشاطها، هل تدرك القصد ممّا أقول؟ طبعًا، أعني، أعتقد ذلك، أجاب فيرّي الذي حان دورُه، على غرار باومغارتنر وتنفيذًا لتعليمات سارادون، لكي يغيّر غرفته، بمضيّ يومين، مرتقيًا بإقامته في المستشفى طابقين إضافيين. كانت الغرفة شبيهة بسابقتها لكنّها أرحب، مرّة ونصف المرّة، لأنّها تتسع لثلاثة أسرّة. كان فيها عدد أقلّ من الأجهزة الطبّيّة، وجدرانها مطليّة بالأصفر الفاتح ونافذتها لا تطلّ على أيّ شجرة بل على مبنى بائسٍ من الآجر.

كان لفيرّي شريكان في غرفته؛ إلى يَساره رجلٌ من آريبيج قويّ البنية فارع الطول لا يشكو من شيء في الظاهر ولن يفهم فيرّي أبدًا سبب وجوده في المستشفى، وإلى يمينه رجل من بروتاني أشدّ هزالاً أشبه بعالم ذرّة ضعيف البصر، لا تراه إلاّ منكبًّا على قراءة مجلّته ويُعاني من اضطرابٍ في القلب. لم يكن الشريكان يتلقّيان كثيرًا من الزيارات، إذ جاءت والدة صاحب القلب المعتلّ مرّتين (مداولات هامسة بينهما، ولا معلومات)، كما جاء شقيق الرجل الآريبيجي مرّة (تعليقات صاخبة بشأن مباراة استثنائيّة جدًّا، والقليل من المعلومات). وفيما تبقّى من الوقت كانت صلة فيرّي بهما تقتصر على التفاوض حول البرنامج الذي سيشاهدونه، وحول الحدّ المحتمل لصوت التلفزيون.

إذ واظبت هيلين على زيارته كلّ يوم، كان فيرّي مواظبًا على إبداء القليل من الترحيب بها، ولا يُبدي أيًّا من علامات الغبطة حين تطلّ من باب الغرفة. لا لأنّه يضمرُ لها مَقتًا، بل لأنّ تفكيره كلّه في مكان آخر. في المقابل كان لإطلالة المرأة الشابّة الأولى تأثيرها البالغ على شريكي الغرفة. ثمّ راحا، في الأيّام التالية، يرمقانها بنظرات ذات مغزى، كلٌّ على طريقته ــ مباشرةً ومُلتفّة على الطريقة الآريبيجيّة، وموارِبة موحية على طريقة المورِبيهان. غير أنّ شهوة شريكيه لم تنتقل عدواها إليه، كما كان الحال أحيانًا ــ أنتما تعلمان جيّدًا ما القصدُ من كلامي: أنتَ لا تشتهي شخصًا بعينه لكنّ اشتهاء آخر له بدلاً منك، يجعلك تفكّر، لا بل يسمح لك، لا بل يدعوكَ لاشتهاء الأوّل؛ مثل هذه الأمور غالبًا ما تحدث، وهي أمورٌ معتادة، ولكن في هذه الحالة لا، أو أنّها لم تكن ظاهرة.

في الوقت نفسه يبدو الأمر عمليًّا، أحدهم يريد أن يُعنى بك، يجلب لك احتياجاتك، يُحضر لك الصحفَ تلقائيًّا كلّ يوم فتقرأها وتعطيها بعد ذلك لشريك غرفتك البروتانيّ. ولو كانت الورود مقبولة في القسم لأحضرت لك ورودًا. في كلّ زيارة من زياراتها كانت هيلين تطمئن إلى حال فيرّي الصحيَّة، معاينة، بنظرة خبيرة، الخطوط والبيانات المرتسمة على الشاشات فوق السرير، غير أنّ أحاديثهما ما كانت تتعدّى ذلك النطاق العيادي. وباستثناء نشاطها المهنيّ السابق لم تذكر شيئًا عن ماضيها. ولم تُتبَع المعلومات الواردة أعلاه عن إرث ونفقة برغم ما تمثّله من مادّة غنيَّة للسيرة الذاتيَّة، بأيّ تفصيل إضافيّ. كما لم يحدث أن شعر فيرّي برغبة في إطلاعها على وقائع حياته التي لم تبدُ له، في تلك الآونة، حياة يُحسَد عليها أو جديرة بأن تُحكى.

في الأيّام الأولى واظبت هيلين إذًا على زيارته كلّ يوم، كأنّها بذلك تؤدّي ما تتطلّبه مهنتها، كأنّها تؤدّي رسالة خيريّة، وعندما بدأ فيرّي بالتساؤل حول حقيقة غرضها من تلك الزيارات لم يجرؤ طبعًا على طرح السؤال. كانت محايدة وشبه باردة، وعلى الرّغم ممّا أبدته من تفانٍ، لم تترك لما تفعله أن يكتسبَ أيّ مغزى. خاصّة وأنّ التفاني ليس هو كلّ شيء، ولا يكفي، وحده، لتوليد الرغبة. هذا فضلاً عن أنّ فيرّي المتعب الذي يخشى الدائنين أكثر ممّا يخشى الأطبّاء، كان يعاني حالاً من القلق العائم الذي لا يحثّ على الإغواء. طبعًا لم يكن غافلاً، ويرى جيّدًا أنّ هيلين امرأة جميلة، غير أنّه لطالما نظر إليها كأنّما عبر زجاج مضادّ للرصاص والغرائز. ليست سوى أحاديث مجرّدة بعض الشيء، أو مفرطة في حسّيّتها، لا تدع مجالاً

للعواطف، وتصدّ المشاعر. أمرٌ محبط قليلاً، وفي الوقت نفسه، مريح. ولا بدّ أنّها، هي، اقتنعت بذلك، لأنّها اختصرت زياراتها، فما عادت تأتي لزيارته إلاّ كلّ يومين أو ثلاثة.

لكن بمضيّ ثلاثة أسابيع، ولمّا حان موعد خروج فيرّي من المستشفى، كما كان متوقّعًا، اقترحت عليه هيلين أن تُعنى هي بكلّ الأمور المترتّبة على مغادرته. يصادف ذلكَ قُبيَل ظهر يوم ثلاثاء؛ كان فيرّي خائر القوى بعض الشيء، مرتعدًا، لا تحمله ساقاه، وبيده حقيبته. تأتي، ويستقلاّن سيّارة أجرة. هو المقيمُ على عادته، وعلى الرّغم من صحبتها الصامتة على المقعد الخلفي، يعاود حملقته بالفتيات العابرات على الرصيف عبر نافذة السيّارة حتّى وصوله إلى بيته، أو الأحرى، أمام بيته، حيث تقف هيلين ولا تدخل. كان من دواعي اللياقة لا أكثر أن يدعوها إلى العشاء مساء اليوم التالي أو الذي يليه، أو في خلال أيّام الأسبوع، لا أدري، أنا، أحسب أنّ أصول اللّياقة تفرض على المرء أن يفعل. ولم يخلّ فيرّي بهذه الأصول. إذًا، فلتكن الدعوة ليوم غد، وليُنْهِ الأمر بأسرع وقت؛ ثمّ كان عليه أن يهتدي إلى مطعم ملائم حيث يلتقيان: بعد تردّد، يقترح عليها فيرّي مطعمًا افتتح حديثًا في شارع اللوفر، على مقربة من السان جرمان لوكسيرّوا، لا أدري إذا كنتِ تعرفينه. إنّها تعرفه. إذًا.. إلى الغد.

٢٧

لكن، ومنذ صباح اليوم التالي، استأنف فيرّي نشاطه. أطلعته إليزابت، التي كانت قد أعادت فتح الصالة أوّل من أمس، على المستجدّات القليلة التي طرأت في فترة غيابه: القليل من الأعمال الجديدة، والقليل من البريد الوارد، لا اتصالات هاتفيّة، لا فاكسات، لا رسائل بالبريد الإلكتروني. ركود عاديّ في موسم كساد. لم يظهر بعدُ أيٌّ من هواة جمع الأعمال الفنيّة والتحف الحقيقيين، ذلك أنّ فترة العُطَل لم تنتهِ، وحده ريباراز كان قد اتصل ليخطرهم بزيارته الوشيكة، وإذا به يفتح الباب الزجاجي مرتديًا ملابسه المعتادة من الفلانيل الأزرق الغامق، وقد طُرّز حرفا اسمه وكنيته على جنبِ قميصه. منذ مدّة لم يره أحد في الصالة.

وصل وصافح معبّرًا بحماسة عن سروره البالغ لأنّه اشترى لوحة مارتينوف الصفراء في مطلع العام، لا بدّ أنّك تذكر لوحة مارتينوف الصفراء. طبعًا، قال فيرّي. على كلّ حال إنّ جميع لوحاته يغلب عليها اللّون الأصفر. هل وصلتكَ لوحات جديدة

منذ ذلك الحين؟ سأل الرجل بشيء من التوجّس. طبعًا، قال فيرّي، بعض الأشياء البسيطة، غير أنّني لم أجد الوقت الكافي بعد لعرضها، لقد عاودت للتوّ فتح الصالة. معظم المعروض هنا سبق لكَ أن رأيته من قبل. مع ذلك أودّ أن ألقي نظرة، قال ريباراز. الذي راح يجول في أرجاء الصالة بنظرةٍ مرتابة، محرّكًا نظّارته على طرف أنفه، أو معضعضًا طرفَ ساعدها، مارًّا على عجَلٍ أمام معظم الأعمال ثمّ متوقّفًا أمام زيتيّة على نسيج مُغرّى قياس ١٥٠ x ٢٠٠ تصوّر اغتصابًا جماعيًّا، معروضةً منذ مطلع الصيف في إطار ضخم من الحديد المُشوّك. في أعقاب عشرين ثانية من التأمّل انضمّ إليه فيرّي. كنت أعلم أنّ هذه اللّوحة ستستوقفك، قال. ثمّة ما يستوقف فيها، أليس كذلك؟

بلى، ربّما، قال ريباراز متفكّرًا. أعتقد أنّني قد أودّ اقتناء هذه اللّوحة. طبعًا هي كبيرة بعض الشيء، لكن ما يزعجني حقًّا هو الإطار. ألا نستطيع تغييره؟ مهلاً، مهلاً، قال فيرّي، لقد رأيت جيّدًا أنّ الرسمة عنيفة بعض الشيء، وأحسب أنّك توافقني الرأي بأنّها على قدرٍ من القسوة. لقد أوصى الفنّان على هذا الإطار خصّيصًا لهذا الغرض، لأنّ الإطار جزء من الفكرة. إنّه ملائم تمامًا للفكرة. إذا كان هذا ما تراه أنت، قال جامع التحف. طبعًا، قال فيرّي، ثمّ إنّ سعرها معقول. دعني أفكّر، قال ريباراز، دعني أستشير زوجتي. ذلك أنّ الموضوع نفسه، كما ترى، فهي مفرطة الحساسيّة. وأنا لا أريد حقًّا أن. . ، أتفهم جيّدًا ما تقول، قال فيرّي، فكّر في الأمر مليًّا. واستشرها.

بعد أن غادر ريباراز، لم يفتح أحد سواه باب الصالة حتّى

ساعة الإقفال التي سُبِّقَت بالاتفاق مع إليزابت. بعد ذلك بقليل كان على فيرّي أن يلتقي هيلين في المطعم المتّفق عليه، والذي هو عبارة عن صالة معتمة توزّعت في أرجائها طاولات مستديرة ذات أغطية بيضٍ، ومصابيح نحاسيّة خافتة الإضاءة وباقات مدروسة، وخدمة مبذولة بلباقةٍ من قبل أشخاص محبّبين ذوي مظهر إكزوتيكي. غالبًا ما كان فيرّي يلتقي فيه أشخاصًا من معارفه غير المقرّبين الذين لا يبادلهم التحيّة بالضرورة، غير أنّه يعشق التمتّع بالأجواء الإكزوتيكيّة. بهذا المعنى من المتوقّع هذا المساء أن يشعر بشيء من الملل بصحبة هيلين التي ما زالت، على جري عادتها، قليلة الكلام ومرتدية للمناسبة تايورًا رماديًّا فاتحًا ذا خطوط دقيقة بيضاء. وعلى الرّغم من أنّ ياقة التايور لم تكن، للأسفِ الشديد، مقوّرةً، فقد لاحظ فيرّي، مع ذلك، أنّ عنقَ المرأة الشابّة مطوّق بسلسلةٍ رقيقة من الذهب الأبيض، وقد تدلّت منها حلية على هيئة سهم يشير بوضوح إلى ثدييها، وهو الأمر الذي يأسر الانتباه ويبقي الحواس مُسْتَنْفَرة.

بدافع البراءة أم المناورة، كانت هيلين على عادتها قليلة الكلام، غير أنّها كانت تجيد الإصغاء، في الأقلّ، وبكلمة واحدة منها تثير في محدّثها الرغبة في الكلام، وتستدرك لحظات الصمت بطرحها السؤال البسيط في محلّه. كان فيرّي الذي يحطّ بصره بانتظام على السهم كي يستمدّ منه الحماسة، ولكن من دون أن يفضي ذلك، في الظاهر، شأنَ زياراتها له في المستشفى، إلى نشأةِ أو انتصابِ ميولٍ لديه ــ وهو الأمر الذي أجد مشقّة في تفسيره، أنا الماثل ههنا لأشهد بأنّ هيلين امرأة مثيرة على نحوٍ لافت ــ، كان فيرّي يتولّى إذًا القسط الأوفر من

المحادثة مسترسلاً في الكلام على مهنته: سوق الفنّ (يشهد ركودًا في هذه الآونة)، التيّارات الغالبة حاليًا (الأمر معقّد بعض الشيء، ومتشعّب، وقد يعود بنا ذلك إلى عهد دوشان، إذا شئتِ) والسجالات الدائرة (لا بدّ أن تتخيّلي يا هيلين أنّ تماس الفنّ والمال يولّد صدامًا بالضرورة)، هواة جمع الأعمال الفنّيّة والتحف (الذين أصبحوا شديدي التوجّس، وهذا أمر أتفهّمه جيّدًا)، الفنّانون (باتوا لا يدركون الواقع جيّدًا، وهذا ما أتفهّمه أيضًا) والموديلات (بات وجودهنّ، كموديلاّت بالمعنى التقليدي، نادرًا جدًا، وهذا في نظري أمر طبيعي). وحرصًا منه على اجتناب أيّ تعليق ساخر أغفل ذكر رحلته إلى القطب الشمالي وما تبعها من عواقب مؤسفة. ولكن على الرّغم من الطابع السطحي لكلامه وتطرّقه إلى المواضيع كافّة، لم يبد أنّ كلامَه أضجرَ هيلين التي اقترح عليها فيرّي، وهذه عادة مستحكمة، أن يحتسيا كأسًا أخيرة بعد العشاء.

غالبًا ما تكون الحال في ظروفٍ مماثلة ــ مغادرة المطعم، كأس أخيرة ــ، أنّ الرجل الذي حرص على خلوّ طعامه من الثوم والكرنب الأحمر، أو الذي امتنع عن شربِ عددٍ كبير من الكؤوسِ الأخيرة، سيحاول تقبيل امرأة حتمًا. هذا جزء من التقاليد والأعراف، وهذا ما يحدث في أيّ مكان، ومع ذلك، هنا أيضًا، لم يحدث شيء من هذا القبيل. ودائمًا لا سبيل لأن نعرف إذا كان فيرّي قد شعر بالرهبة، أو إذا خشيَ أن تصدّه.. أو إذا كان ببساطة غير راغبٍ في أكثر مما فعل. من غير المستبعد، قد يقول له فيلدمان الذي درس علم النفس قبل تحوّله إلى أمراض القلب، من غير المستبعد أن تكون الذبحة

الصدريّة وفترة الاستشفاء قد ولّدتا لديك عجزًا نرجسيًّا مؤقتًا، ومن دون أيّ قطيعة نفسيّة جذريّة، ليكن معلومًا على الفور ولكي تطمئن، بل الأرجح أنّه ولّد لديك مكبوناتٍ غير جوهريّة. تبًّا لكَ ولعجزك النرجسيّ هذا، تكون إجابة فيرّي الذي برغم تملّصه من العناق والقبلة، اقترح على هيلين التي أبدت اهتمامًا بما قاله، أن تأتي ذات يوم لزيارته في الصالة.

يوم جاءت لزيارته، في عصرِ يوم مطير، لم تكن مرتديةً لا تايورًا رصاصيًّا أو رماديًّا فاتحًا ولا ثوبًا مقوّرًا عند الظهر، بل مجرّد قميص طويلٍ أبيض وجينز أبيض أيضًا تحت معطف مشمّع فضفاض. تحدّثا لخمس دقائق، وعلّق فيرّي الذي لا يزال مُشوَّشًا حول بعض الأعمال المعروضة (لوحة صغيرة لبوكلي وأربعة تجهيزات هضبيّة لأستيريلاّس) ثمّ تركها لتكمل جولتها بمفردها. تجاهلت لوحات مارتينوف من القياس الصغير، واستوقفتها طويلاً صورُ ماري نيكول غيمار، ووضعت إصبعين على إحدى زجاجيّات شوارتس المعروضة في مؤخّر الصالة، ومرّت دونما التفات أمام لوحة الاغتصاب الجماعي. من دون أن يغفل عنها لحظة واحدة كان فيرّي، المنحني فوق طاولة المكتب، يتظاهر بالإشراف على عمل إليزابت المنصرفة إلى إعداد صفحات الكتالوغ المقبل لأعمال مارتينوف، ثمّ دخلَ عليهم سبونتيني، كأنّه انبثق فجأة من الفراغ. مرحى، صاح فيرّي قائلاً، أهلاً بك يا سبونتيني. أين أصبحت مائيّات التمبيرا؟

من مؤخّر الصالة تراءى لهيلين أنّ المدعو سبونتيني لم يأتِ لا لعرض أعماله ولا للحديث عن مائيّات التمبيرا ولا عن أيّ شيء

آخر، بل جاء للشكوى. إذ تناهت إلى سمعها عبارة «عقد». وتردّد ذكر العبارة نفسها مرارًا. وجرى التفاوض على نِسَبٍ مئويّة. نظرًا لبعدها عن المتحاورين، بدت هيلين مهتمّة فجأة بأعمال بلافييه الأخيرة المعروضة وراء المكتب. أنت مُدرِكٌ من دون شكّ، كان فيرّي يقول، إنّني على درايةٍ بعملي، وتقديري أنّه يساوي خمسين في المئة من العمل. أمّا إذا كنت ترى أنّه، على سبيل المثال، يساوي أربعين في المئة، فلن يحصل تفاهم بيننا. أجد أنّ تقديرك مبالغ به، قال سبونتيني، وأرى أنّه كثير. حقًّا كثير. غير معقول. وبصراحة إنّي أتساءل الآن إذا لم يكن الأجدى بالنسبة لي أن أتعامل مع أبيتبول، فهو ينتظر إشارة منّي، لقد التقيته أوّل من أمسِ خلال افتتاح معرض كاستانيه.

على كلّ حال، قال فيرّي قانطًا، إنّها ليست المرّة الأولى التي تحاول فيها أن توجّه إليّ هذا النوع من الضربات. لقد انتهزت فرصة التعامل معي طوال عشر سنوات لتتعرّف إلى الجميع وبعتَ لوحاتِكَ من وراء ظهري، أنا أعلم جيّدًا، فيما كنت تعرض أعمالك عندي. لذا أقول لك ما يلي، عندما يتصرّف أحدٌ على هذا النحو، سواء أراد التعامل مع أبيتبول أم لا، ليس له عندي، في المبدأ، سوى درب السلامة بعيدًا عنّي. ألا تدرك حقيقة الأمر. ألا تدرك صعوبة العمل حاليًا في فرنسا. ولكن، أجاب سبونتيني مبرّرًا، أمامك مثال بوكلي. بعد كلّ ما اقترفه في حقّك، أرى أنّه لا يزال هنا.

أمر بوكلي مختلف جدًّا، قال فيرّي. أمر بوكلي استثنائي وخاصّ. ألا تذكر، ألحّ سبونتيني قائلاً، إنّه احتال عليك بمبالغ

ضخمة. لقد جعلك تتقاضى عشرة في المئة عن كلّ عملٍ فيما احتفظ لنفسه بتسعين في المئة، وكلّ العاملين في الوسط علموا بالأمر. وفي آخر المطاف ما زال هنا، ولأجله تعمل على تنفيذ ذلك المشروع في اليابان. لقد بلغني الأمر. أعلم بالأمر، وهذا أيضًا أمرٌ يعلمه الجميع. بوكلي أمره مختلف، ردّد فيرّي قائلاً، مختلف وكفى. لقد أردت وقف التعامل معه بالفعل، غير أنّه ما زال هنا. مهما بدا الأمر منافيًا للعقل. لذا، أرجوك، دعنا لا نتحدّث بهذا الشأن. بعد أن أعيتهما الحجج والحجج المضادّة، كفّا عن الشجار وغادر سبونتيني حانقًا مبرطمًا بما يشبه عبارات الوعيد، وتهالك فيرّي جالسًا على أحد الكراسي وقد أنهكه التعب، فيما كانت هيلين المنصرفة مجدّدًا إلى مشاهدة لوحات شوارتس تبتسّم له من بُعد. بادلها ابتسامة متصنّعة وهو ينهض عن كرسيه دانيًا منها: لقد سمعتِ، وأحسب أنّك فهمتِ ما دار بيننا. أحسب أنّكِ كوّنتِ انطباعًا منفّرًا حول شخصيّتي. لا، لا على الإطلاق، قالت هيلين. كم أمقت هذه المواقف، لاحظ فيرّي قائلاً وهو يدلّك خدّيه، إنّها أسوأ جوانب هذه المهنة. كم أودّ أن أكلّف أحدًا آخر بالتفاوض على هذا النحو. في السابق كان مساعدي دولاهاي، الذي حدّثتك عنه، قد بدأ يُعنى بهذه الأمور على أحسن وجه، ثمّ مات، الأحمق. إنّه لأمر مؤسف حقًّا، لأنّه كان بارعًا، ذاك الدولاهاي، كان بارعًا جدًّا في معالجة الأمور.

كان يدلّك خدّيه وقد بدا متعبًا. أوتدري، قالت هيلين، ليس لديّ ما يشغلني في هذه الآونة، لذا قد أساعدك إذا شئت. هذا لطفٌ بالغ منكِ، قال فيرّي متبسّمًا بشيء من الحزن، ولكنّني لا

أستطيع أن أقبل عرضك اللطيف هذا. بصراحة، لا تسمح لي ظروفي الحاليّة بأن أخصّص لكِ أجرًا. هل الظروف سيّئة إلى هذا الحدّ؟ لقد واجهت صعوبات كثيرة في هذه الآونة، أقرّ فيرّي قائلاً، سأحكي لك.

حكى لها. كلّ شيء. من البداية. وعندما فرغ من سرد خيباته، كان الليلُ قد اكتنف الأشياء. في الخارج في أعالي الورشة، كانت الرافعتان الصفراوان ترسلان ومضًا منتظمًا من قمّة دعامتهما، فيما تمخر السماء طائرة في رحلتها المعتادة بين باريس وسنغافورة، وعند طرفي جناحيها نوران غامزان بالوتيرة نفسها: هكذا كانت تتخاطب الأرض والسماء بومضاتٍ متزامنة، كأنّما إحداهما تُنبئ الأخرى بوجودها.

٢٨

أنا شخصيًّا، بوسعي القول إنّي ضقتُ ذرعًا بباومغارتنر. حياته اليوميّة مُضجرةٌ جدًّا. فباستثناء إقامته في الفندق، واتصاله الهاتفيّ كلّ يومين وزيارته ما تيسّر من الأماكن، لا يبدو لي أنّه يُنجز شيئًا حقًّا. لا أفقَ لما يفعل. فمنذ مغادرته باريس قاصدًا الجنوب الغربي، يقضي أوقاته هائمًا وراء مقود سيّارته الفيات البيضاء، وهي سيّارة بسيطة لا زوائد فيها، عارية من أيّ شارة.. لا ملصق على الزجاج ولا دمية متدلّية من المرآة العاكسة. لا يسلك إلاّ الطرقات الفرعيّة. وذات صباح، صباح يوم أحد، يصل إلى بياريتز.

لمّا كان المحيط مائجًا واليومُ يومَ أحدٍ ضبابيًّا رائقًا، خرج سكّان بياريتز لمشاهدة الأمواج. يصطفّون في عددٍ من الصفوف المتدرّجة في علوّها، على طول الشاطئ وأيضًا على الشرفات، والمطلاّت والبلكونات والحوافّ وأماكن النزهة الأخرى المطلّة على المحيط المضطرب، يقفون صفوفًا في كلّ الأماكن المشرفة عليه ويشاهدون صنيعه الغاضب. مثل هذا المشهد

يُذهل الإنسان ويشلّ حواسه، وقد يستغرق في تأمّله إلى الأبد، فلا شيء يدعوه إلى الكفّ عن ذلك ــ النار أيضًا لها أثر مشابه، والمطر أحيانًا، وأيضًا مراقبة العابرين من على شرفة بار.

في بياريتز، ذلك الأحد، بقرب المنار، يلمح باومغارتنر فتىً على مقربة قريبة من المحيط، على حافّة نتوء صخري مطلّ مباشرة على المحيط، معرّضًا بالتأكيد لأن يبلّله رذاذ الزبد المتطاير بعنفٍ والذي يتحاشاه بحركة من جسمه أشبه بحركة مصارع الثيران في الحلبة. وهو بأيّة حال يستخدم المصطلحات التي تُستخدم عادة في وصف مصارعة الثيران للتعبير عن قوّة الأمواج المتعاقبة ، حيث يلقي التحيّة (Ole) على انكسارٍ مشهديّ جدًّا لموجةٍ، مستدرجة (Mira mira mira) ومُضخّمة (Toro toro) موجةً واعدةً وهادرة (Torito bueno) ــ وكلّ صيغ التهليل والتشجيع والمناداة والاقتباسات التي يُخاطب بها الثور في الحلبة. ثمّ عند انكسار الموجة، على نحو همجيّ، وانتشارها في كلّ اتّجاه، متحلّلةً بصخبٍ، عند زحفٍ وحش المياه واحتضاره عند قدميه، يُعاجله الفتى، مادًّا ذراعه رافعًا كفّه، كأنّه يريد أن يوقف الزمن، بإيماءة المصارع في الأثناء، وهي أثناءُ قد تطول، حيث يبقى الثور المطعون واقفًا فيما الحياة تنسلّ منه قبل أن يهوي جانبيًّا في معظم الأحيان، متعامدًا مع قوائمه المتصلّبة.

لا يمكث باومغارتنر أكثر من يومين في بياريتز، ريثما يستعيد المحيط أنفاسه، ثمّ يغادر قاصدًا مناطق الداخل. باومغارتنر يحرص إجمالاً، وعلى نحوٍ يفوق حرصه خلال فترة

إقامته السابقة، ألاّ يمكث طويلاً في المدن التي يجتازها أو التي يلتفّ حولها عبر محيط ضواحيها إذا أمكنه ذلك. يستحسن التوقّف في القرى حيث يقضي بعض الوقت في المقهى من دون أن يخاطب أحدًا.

يؤثر الإصغاء إلى أحاديث الناس فيما بينهم (أربعة رجال عاطلين يقارنون ما بين أوزانهم ويستبدلونها بأرقام المحافظات الفرنسيّة التي تحمل الأرقام نفسها. النحيل من بينهم يستملك محافظة «لاموز»، وشبه الطبيعيّ يطالب بالإفلين، والممتلئ الجسم يُحاذي مقاطعة بلفور، والسمين مقاطعة فالدواز)، وقراءة الملصقات المثبتة على المرايا (مسابقة الخضار ذات الأحجام الضخمة: س ٨ ــ س ١١ ، تسجيل الخضار؛ س١١ ــ س ١٢ و٣٠، مداولات لجنة التحكيم؛ س ١٧، تسليم الجوائز وقناني النبيذ للمكرّمين. هذه المسابقة تشمل الخضار التالية: كرّاث، بقل السَلَطة، الكرنب الملفوف، كرنب ميلانو، القنّبيط، الكرنب الأحمر، الطماطم، الشمّام، اليقطين المضلّع، الفليفلة، الكوسى، الشمندر الأحمر، الجزر الأحمر، الكرفس، كرنب اللفت واللفت، السلجم والفجل الشتوي، البطاطا، الشمندر البرّي، الجزر البرّي، الذرة، الثوم، البصل. مسابقة مفتوحة لمشاركة كلّ المزارعين. لا يحقّ لكلّ مزارع أن يشترك بأكثر من تسعة صنوف من الخضار. وبعيّنة واحدة من كلّ صنف. يرجى التقدّم بها مع أوراقها والسويقات والجذور إذا أمكن. وسوف تُعاين على أساس وزنها وشكلها) أو مطالعة أحوال الطقس في الصحف المحليّة (على خلفيّة سماء ملبّدة، أمطار متوسّطة وغزيرة مصحوبةً أحيانًا

بعواصف رعديّة في فترة ما بعد الظهر).

الطقس يزداد سوءًا، ومع ذلك يبدو باومغارتنر أقلّ تطلّبًا من حيث نوعيّة الفنادق التي ينزل فيها. يقضي لياليه في فنادق أردأ من سابقاتها، فالأمر سيّان عنده. خلال الأيّام الأولى حرص على شراء الصحف المحليّة والوطنيّة، متصفّحًا زوايا الثقافة والمجتمع من دون أن يقع على أيّ ذكرٍ لسرقة طاولت تحفًا. وعندما اطمأنّ إلى أنّ الصحف قد لا تأتي على ذكر خبرٍ مماثل، قلّص باومغارتنر نفقات الصحف التي بات يكتفي بتصفّحها ساهيًا أثناء تناوله الفطور، فيلطّخ صفحاتها بآثار الزبدة والمربّى، مشيرًا إلى فقرات منها ببقايا القهوة، راسمًا دوائر متشابكة بعصير البرتقال على طول صفحات الملحق الاقتصادي ذات اللون الأصفر الفاتح.

ذات مساء مطير، يقود سيّارته بين أوش وتولوز، في عتمة الليل المبكر. أبعد من مسّاحات الزجاج المنطلقة بأقصى سرعتها، تكاد المصابيح لا تنير الطريق أمامه: فلا يلمح إلاّ في اللحظة الأخيرة خيالاً متقدّمًا على جانب الطريق الخفيض، إلى يمينه، أسفل الرصيف. مُبلّلاً بالماء والعتمة، موشكًا على الذوبان كقطعةٍ من السكّر، لا يلوّح بيده ولا يستدير حتّى عند اقتراب السيّارات ذات المصابيح المضاءة وهدير المحرّكات المكتومة، بأيّة حال، بسبب العاصفة. وإذا كان باومغارتنر يميل إلى التوقّف فليس ذلك لدواعي الرأفة بل كردّ فعلٍ مفاجئ، أو بسبب الضجر الذي استبدّ به قليلاً: ينحرف يمينًا، مضيئًا نور سيّارته الوامض، متوقفًا على بعد مئة متر ريثما يلحق به الخَيّال.

غير أنّ الخَيّال لا يسرع في مشيته كأنّه لا يقيم الصلة السببيّة بينه وبين توقّف سيّارة الفيات. لدى بلوغه جانبَ السيّارة، لمحه باومغارتنر على نحوٍ مشوّش عبر زجاج النافذة المكتسح بوابل المطر: إنّها، على ما يبدو، امرأة شابّة، فتاة تفتح الباب وتصعد إلى السيّارة من دون أن يتبادلا العبارات التمهيديّة المعتادة في ظروف مماثلة. تضع حقيبة يدها على المقعد الخلفي وتجلسُ من دون أن تنبس بكلمة وتغلق الباب بكثير من التأنّي. تبدو كتلة من البلل بحيث أنّ غبشًا خفيفًا غشي الزجاج الأمامي والخلفي ـ يتخيّل باومغارتنر بشيء من الضيق حالة الحصار التي أطبقت عليه بعد أن صادفها. ليست مبلّلة بالمطر وحسب، بل تبدو أيضًا قذرةَ المظهر نائية عن العالم. هل أنت ذاهبة ناحيةَ تولوز؟ يسأل باومغارتنر.

لا تجيبه المرأة الشابّة على الفور، ويبقى وجهها غير واضح المعالم في العتمة السائدة. ثمّ تقول بصوت رتيبٍ ومحايد، آلي بعض الشيء يشوبه القلق، إنّها ليست ذاهبة ناحيةَ تولوز بل تقصد تولوز نفسها، وإنّه لمن المؤسف حقًّا أن يسود مثل هذا الخلط في استخدام التعبيرات اللغويّة الذي لا مبرّر له والذي يندرج، بأيّة حال، في إطار توجّه عام للإساءة إلى اللغة، الأمر الذي لا بدّ أن نثور ضدّه.. وإنّها، فيما يعنيها، تندّد به أشدّ التنديد، ثمّ تسند شعرها المبلّل إلى مسند الرأس أعلى المقعد ولا تلبث أن تغرق في النوم. تبدو امرأة معتوهة بحق.

يلبث باومغارتنر مشدوهًا ومنزعجًا بعض الشيء لبضع ثوان، ثمّ يتحوّل إلى السرعة الأولى برفقٍ كأنّه يفكّر مليًّا قبل

الانطلاق. على بعد خمسمئة متر، فيما المرأة الشابّة غارقة في سباتها العميق، يستبدّ به شعور غامض بالحَنَق كاد أن يدفعه إلى التوقّف وطَرْدِ الفتاة مجدّدًا إلى عتمتها السائلة، لكنّه يؤثر الترويّ: إنّها تنام نومًا هانئًا، جسمها المسترخي ينعم بالهدوء، يطوّقه برفق حزامُ الأمان، ولن يكون التخلّي عنها الآن من شيم السيّد النبيل الذي قرّر أن يكونه. مثل هذا يشعره ببعض الفخر، غير أنّ أمرًا آخر هو الذي يحول دون تسرّعه في التخلّص منها: إنّه صوتها الذي يذكّره بشخص ما. لشدّة حرصِه على التنبُّه إلى أسلوبِ قيادته على أرضٍ مجهولة ومعادية، لا تسنحُ له الفرصة التي تمكّنه من أن يلقي عليها نظرات جانبيّة، ثمّ أن الفتاة مالت برأسها ناحيةَ الباب وأولته ظهرها. غير أنّ باومغارتنر يتعرّف عليها فجأة. ويعي من تكون. قد يبدو الأمر منافيًا للعقل لكنّه صحيح. يقود سيّارته ببطء شديد حتّى تولوز، حابسًا أنفاسه، مجتنبًا أيّ حركة أو أيّ رجّة من شأنها أن توقظها. يستغرقه الأمر أكثر من ساعة.

لدى وصوله إلى تولوز في ساعات الليل، يُنزِلُ باومغارتنر الفتاة أمام المحطّة من دون أن يضيء مصباح السقف، مشيحًا بوجهه إلى الجهة المقابلة وهي تفكّ حزام الأمان وتترجّل شاكرةً لطفه مرّتين بصوتٍ خفيض. لا ينطلق باومغارتنر بسيّارته على الفور، بل يلبث في مكانه يراقبها، عبر المرآة العاكسة، مبتعدةً باتجاه مقصف المحطة، من دون أن تستدير نحوه ولو مرّة واحدة. وبما أنّ العتمة سائدة، والفتاة التي بدت له كأنّها فقدت رشدها لم تنظر إليه ولو مرّة واحدة، استنتج أنّها لم تتعرّف عليه، أو، على الأقلّ، يأمل في ذلك.

طوال الأيّام التالية يحافظ باومغارتنر على خطّ سيره الاعتباطي. يختبر كآبة المطاعم السريعة على الطرقات، واليقظات الحامضة في غرف الفنادق التي لم تحظَ بعدُ بالتدفئة، ودوار المناطق الريفيّة والورش، ومرارة الودّ المستحيل. يدوم الأمر على هذا النحو أسبوعين تقريبًا، يلاحظ باومغارتنر إثرَها، أي نحو منتصف شهر أيلول، أنّ ثمة من يقتفي أثره.

٢٩

في غضون الخمسة عشر يومًا تلك، واصلت هيلين، على نحوٍ منتظم تقريبًا، زياراتها للصالة. كسابق عهدها خلال فترة استشفائه كانت تعرّج عليه في أيّ ساعة، غير أنّها لا تمكث أكثر من ساعة، كلّ يومين أو ثلاثة، وكسابقِ عهده في فترة استشفائه كان فيرّي يستقبلها بتهذيبٍ، ولكن على شيء من التحفّظ، مُراعيًا حضورها بترحيبٍ مفرطٍ وابتسامات مصطنعة بعض الشيء، كما يفعل المرء أحيانًا عندما يحرص على مراعاة قريب حسّاس.

في آخر الأمر، لم يُسفر سردُه المطوّل لمتاعبه الطارئة عن أيّ تقاربٍ فعلي بينهما. استمعت إليه ولم تُبدِ أيّ ردّ فعلٍ مخصوص، لا إعجابها بمغامرة فيرّي القطبيّة ولا إشفاقها، لا بل ربّما ضحكاتها الشامتة لما آلت إليه العواقب في النهاية. وإذا كانت لم تجدّد عرضها لمساعدته في أعمال الصالة، فمن المستبعد أن يكون السبب ماليًا. جُلّ ما في الأمر أنّهما لم يحرزا تقدّمًا ملموسًا في علاقتهما، وما زال أحدهما يبحث عن

كلام يُخاطب به الآخر ولا يجد، فتسود بينهما فواصل صمتٍ عميقٍ. وهو الأمر الذي لا يُعَدّ سيّئةً في حدّ ذاته، لأنّ الصمت قد يكون هو المستحسن أحيانًا. فإذا أرفقَ بنظرةٍ وابتسامة ملائمتين، قد يسفرَ الصمت عن نتائج ممتازة، عن لحظات ذروةٍ نادرة واحتمالات لطيفة، وذكرياتٍ لذيذة وقرارات حاسمة. غير أنّ صمتهما كان مختلفًا كلّ الاختلاف: إذ لم يكن سوى لحظات بُكمٍ ثقيلة، دَبِقةٍ، مُربكةٍ كمادّة صمغيّة عالقة في النعلين. ولا تنقضي هنيهات على تلك الحال حتّى يثقل الجوّ ويشعر الطرفان بالضيق. لن تلبث هيلين أن تقلّل من زياراتها قبل أن تكفّ عنها نهائيًا.

بادئ الأمر طبعًا شعر فيرّي بارتياح لانقطاع زياراتها، وطبعًا، أيضًا، سرعان ما ولّد هذا الانقطاعُ حيّزًا من الفراغ لم يكن ليتوقّعه، وإذا به يُفاجأ، بعد وقتٍ، بأنّه ينتظر قدومها، مُلقيًا، بين الفينة والفينة، نظراتٍ إلى الشارع متظاهرًا بعدم الاكتراث. وبديهيّ، في هذا السياق، أنّها لم تترك عنوانًا لها ولا رقم تلفون باعتبار أنّ الأبله، صاحبنا، لم يُبدِ يومًا رغبةً في الحصول عليهما. كان يوم اثنين، صباحًا، وهو في الأغلب ليس أفضل أيّامه: محالٌّ مقفلة، سماء ملبّدة، هواءٌ صفيقٌ وأرضيّات مكسوّة بالمهملات.. بالاختصار كلّ شيء مقفل ومن الجهات كافّة، فلعلّ يوم الاثنين مثيرٌ للاكتئاب كيوم أحد ولكن من دون أعذار البطالة. كانت زرافاتٍ من الناس متفرّقة تجتاز الشارع خارج المكان المخصّص للمشاة باتجاه مخازن «بريزونيك» الكبرى، التي لم تغلق أبوابها طبقًا لجداول مناوبة المخازن الكبرى، وكان مزاج فيرّي صفراويًّا حامضًا مثل

رافعات الورشة المقابلة ولافتة السوبرماركت الكهربائيّة. جاء سبونتيني في أسوأ الأوقات؛ ظهر فجأة عند الحادية عشرة لكي يذكّره بأنّه لا يوافق على مسألة النسب المئويّة.

لم يُتَح له أن يُطيل المفاصلة: أصغِ، قاطعه فيرّي قائلاً، سأصارحك برأيي الآن. أنتَ لا تجتهد في عملك كما ينبغي، ولهذا السبب لم يتطوّر عملك. والكلام بيننا، إنّ ما تنجزه حاليًّا لا يثير اهتمامي كثيرًا، هذا إذا أردتَ الصدق. ماذا تعني بكلامك هذا؟ سأل سبونتيني قلقًا. أعني أنّ بيعك لوحاتٍ لمركزين فنّيين ولثلاثةٍ من هواة جمع التحف لا يجعلك موجودًا في نظري. أنتَ في نظري مجرّد صِفر. عندما تصبح لديك علاقات منتظمة بزبائن في الخارج، عندها فقط يمكنك الحديث عن مستقبل مهنيّ. ما يعني أيضًا أنّك إذا كنت غير راضٍ فالباب أمامك.

عند صدع هذا الأخير، لدى مغادرته الصالة، كاد سبونتيني أن يصطدم برجلٍ ثلاثينيّ يرتدي سروال جينز وسترة قصيرة، أي ما لا نستطيع اعتباره، في أيّامنا هذه، زيًّا لفنّان، أو لجامعِ تحف فنّية، بل لعلّه زيّ ضابط شرطة شاب، وهذه بالضبط هي صفة الرجل المذكور: هل تذكر من أكون، قال سوبان، أنا الأدلّة الجنائيّة. جئتُ لأمر يتّصل بالشكوى التي تقدّمت بها.

من دون التطرّق إلى تفاصيل تقنيّة، كان سوبان يرى الوضع على النحو التالي: نبأ جيّد ونبأ سيّئ، وأفضّل أن أبدأ بالسيّئ ومفاده أنّ الفحص المجهري الإلكتروني والتحاليل على الأدلّة المرفوعة من داخل المحترف لم تفضِ إلى شيء. ولكن،

بموازاة ذلك، كان النبأ الجيّد أنّه تمّ العثور في جيوب جثّة مجمّدة اكتشفت بمحض الصدفة، ولم تكن محفوظة جيّدًا، على قصاصة ورق بين مناديل ورقٍ متصلّبة ومدعوكة ومضغوطة مثل أقراص كعك أو بروات من الصابون المستعمل، وقد دوّن عليها رقمٌ. وبعد أن تمّ التعرّف إلى هذا الرقم، الذي تبيّن أنّه رقم لوحة سيّارة، وبعد أن أجريت المطابقات والتحرّيات اللازمة، ساد اعتقاد مفاده أنّ سيّارة الفيات هذه على صلةٍ بحادثة السرقة التي بلّغ عنها فيرّي. والبحث عنها جارٍ. هذا ما توصّلنا إليه.

على الفور شعر فيرّي بأنّ مزاجه قد تحسّن. وقبل أن يُغلق أبواب الصالة، عند العصر، تلقّى زيارة فنّان شاب يُدعى كورداي. أطلعه هذا الأخير على مشاريع وخططٍ ومسوّداتٍ ومجسّماتٍ وبعض تصميمات التصنيع. غير أنّه، للأسف، لم يجد التمويل اللازم لإنجاز مشروعاته. لكنّها أمور جيّدة، هذه كلّها أمور جيّدة، قال فيرّي، وهي تروقني جدًّا. فلننظّم معرضًا. لا؟ قال الآخر. بلى، قال فيرّي، بالتأكيد، بالتأكيد. وإذا لاقى المعرض رواجًا نقيم معرضًا آخر. إذًا، هل نوقّع عقدًا؟ سأل كورداي متحمّسًا. رويدك، أجاب فيرّي، رويدك. العقود لا توقّع بهذه الطريقة. عرّج عليّ مرّة ثانية، بعد غد.

٣٠

تضمن اتفاقيّات شنغن، كما هو معلومٌ، والتي بوشر بتطبيقها عام ١٩٩٥، حرّيّة تنقّل الأشخاص بين البلدان الأوروبيّة التي أبرمتها. وجاء إلغاء الرقابة عن الحدود الداخليّة، مقابل تشديد الرقابة على الحدود الخارجيّة، بمثابة دعوةٍ للميسورين إلى التجوالِ في بلاد الميسورين، كما يجدر بالأهل فيما بينهم، باسطين أذرعهم ترحابًا ببعضهم بعضًا، موصدين أبوابهم دون الفقراء الذين لشدّة تعرّضهم للتمييز، يُدركون معاناتهم على نحوٍ أوضح. طبعًا، لا تزال المؤسّسات الجمركيّة قائمة وهي لا تسمح لنَفَرٍ بأن يجتاز الحدود بما يحمل، من دون حساب، ولكن أصبح في استطاعة هذا الأخير أن يتنقّل عبر الحدود الداخليّة من دون التدقيق لساعاتٍ في جواز سفره. وهذا ما يعتزم باومغارتنر أن يفعله.

لفرط تجواله في أنحاء القطاع صار خبيرًا بالمتاحف البيئيّة والمعالم السياحيّة والمناظر البانوراميّة والمطلاّت المنتشرة في أنحاء الزاوية اليسرى السفليّة من خارطة فرنسا. لكنّه في الآونة الأخيرة لم يبتعد عن الحدّ الجنوبي الغربي، ولم يبتعد لمسافة

تتعدّى ساعةً واحدة من الزمن بالسيّارة عن الحدود، كما لو أنّه مسافرٌ غير شرعيّ على متن مركبٍ متهالك، يحرص على الدوام أن يبقى قريبًا من زوارق الإنقاذ، متواريًا وراء خرطوم التهوية.

غير أنّ باومغارتنر، لا يحتاج إلى رؤية الدرّاجَ نفسه مسربلاً بالأحمر، طقمًا وخوذةً، أكثر من ثلاث مرّات في غضون ثلاثة أيّام، لكي يعقد العزم على الرحيل. لقد رأى هذا الشخص للمرّة الأولى عبر مرآة سيّارته العاكسة، من بعيد، على طريق فرعيّة متعرّجة أعلى الجبل، ظاهرًا حينًا ومتواريًا أحيانًا. في المرّة الثانية لمحه عند حاجز الرسوم على الطريق السريعة، ليس بعيدًا جدًّا عن شرطيين درّاجَين، بدا أنّه الشخص نفسه، متكئًا إلى درّاجته وهو يأكل سندويشًا ــ ولم يبد أنّ الخوذة كانت تعيق حركة فكّيه أثناء المضغ. في المرّة الثالثة، تظاهر بأنّ درّاجته معطّلة على جانب طريق فرعيّة وكان الرجل، تحت المطر الذي استأنف هطوله، متشبّثًا بكشكٍ عمومي للاتصالات الهاتفيّة الطارئة: وإذ عبر بمحاذاته، حرص باومغارتنر على الانحراف يمينًا بسيّارته باتّجاه حفرة عميقة متسعة تجمّعت فيها المياه. وضحكَ مليًّا عندما شاهد الرجل، عبر المرآة العاكسة، مجفلاً، مبلّلاً بالمياه الموحلة، لكنّ أمله قد خاب قليلاً عندما لاحظ أن الرجلَ لم يلوّح بقبضته متوعّدًا.

إنّ حياة باومغارتنر التي بقيت، طيلة الأسابيع المنصرمة، مشتّتةً، صامتة، ملبّدة كضبابٍ غامر، صار يتخلّلها بعض الحركة منذ ظهور هذا الدرّاج الأحمر. فوجوده والقلق الذي يولّده هذا الوجود يُشعرانه بأنّه أقلّ انعزالاً، ويُلطّفان الصدى المتردّد في حجرات الفنادق لكلّ حركة من حركاته. صلاته الوحيدة المتبقّية بالعالم، أي اتصالاته الهاتفيّة اليوميّة بباريس، تلطّف وحدته،

كما أنّه باتصال هاتفي يعلن عن عزمه السفر إلى إسبانيا. لقد أقبل الخريف، على كلّ حال، يقول، والأمسيات غدت باردة. ببساطة إنّها تمطر طوال الوقت. وسأكون أفضل حالاً هناك.

من حيث يقيم الآن، أيّ صباح يوم خميس في سان جان دو لوز، هناك مساران ممكنان لبلوغ إسبانَيا. فإمّا أن يسلك الطريق السريعة ٦٣ حيث الحدود هي عبارة عن أقواسٍ وأعمدة مصفوفة، تتخلّلها لوحات إعلانيّة وإشارات، ومنكّتات ضاربة إلى الصفرة مقتلعة من الإسفلتِ، وأكشاك مقفلة لأنّها مهجورة، وحواجز مرفوعة على الدوام حيث ثلاثة موظّفين متبطّلين، لابسين زيًّا محيّرًا، مولين ظهورَهم للسيّارات العابرة، متسائلين في سرّهم ما الذي جاء بهم إلى هذا المكان. وإمّا أن يسلك الطريق الفرعية ١٠: وهذا ما وقع عليه اختيار باومغارتنر.

عبر الطريق ١٠، تقع نقطة عبور الحدود عند بيهوبيا، حيث جسر يصل بين ضفّتي بيداسوا. شاحنات ضخمة متوقّفة أمام المبنى الفرنسي الأخير، وهو مصرف، فيما مراكز الجمارك قد استحالت اليوم أكواخًا مهجورة ومنهوبة ذات ستائر معدنيّة متهالكة. وما تبقّى سالمًا من زجاج نوافذها كساه الغبار والوحل فلا يحجب إلاّ قليلاً أكوام الحصى والردم التي تغطّي أرضيّاتها، ما يُضفي على المنظر مسحةً حزينةً، وإن كان سيُعمل على هدمها عمّا قريب: نظرًا لحالة المنشآت أيّدت السلطات الإسبانيّة الإجراء الذي طالب به أهل المنطقة، وأصبح الشروع بالإزالة مسألة أيّام معدودة، إذ تستعدّ الآليّات الضخمة لصدور مرسوم الإزالة العقاريّة والاقتصاديّة للموقع، ثمّ يُصبح ممكنًا توقيع المرسوم الذي يُرخّص بتدمير كلّ شيء.

المنطقة بأسرها تبدو أشبه بورشة. عدد من المنازل ذات الجدران المتداعية اكتسحتها الأعشاب الطفيليّة التي نمت حتّى اخترقت أسقفها المبقورة. أمّا المباني المنشأة حديثًا ولم تُرفَع جدرانها بعدُ، فتتدلّى من نوافذها الفاغرة خرقٌ من الأنسجة والبلاستيك الضاربة إلى السواد. كلّ الأشياء هنا توحي بالصدأ الحمضيّ والسماء أيضًا لها لون الصدأ أو البراز، بادية بالكاد من وراءِ فحم المطر. بعض المصانع يبدو مدمّرًا حتّى قبل إنجاز موازنته السنويّة، مطوّقًا بأكوام النفايات، وبسقالات مهجورة، وجدرانه ملطّخة بالشعارات. بعد عبور الجسر، تنتظر السيّارات المركونة كيفما اتفق عودة سائقيها الذين ذهبوا لشراء الكحول والتبغ بأسعار معفاة من الضريبة. ثمّ لدى انطلاقها من جديد، يشتدّ الازدحام على الطريق المحاصرة بإشارات السير الحمراء، فتتقدّم دفعاتٍ مباغتة مثل السعال.

يحذو باومغارتنر حذوَ الجميع: يترجّل من سيّارته راكضًا تحت المطر وقد غطّى رأسه بياقة معطفه، باتّجاه المحالّ ذات الأسعار المعفاة من الضرائب. أحدها يعرض قبّعات صغيرة لاتقاء المطر من النايلون الأسود المبطّن بقماشٍ اسكتلنديّ مقابل خمسة وثلاثين فرنكًا للقبعة، وهو أمرٌ يحظى باستحسان باومغارتنر فينصرف إلى قياس عدد منها. قياس محيط الرأس ٥٨ صغير جدًّا، وقياس ٦٠ كبير بعض الشيء، فيشتري إذًا الـ ٥٩ من دون تردّد أو قياس، لأنّه لا بدّ أن يكون ملائمًا، ليكتشف فيما بعد حين ارتدى القبّعة أمام المرآة الصغيرة في سيّارته أنّها غير ملائمة تمامًا، ولكن بعد فوات الأوان، فتبًّا ولا بأس، وفيما سيّارته الفيات تعبر الحدود من دون عقباتٍ، شعر باومغارتنر بأنّ أنفاسه باتت منتظمة وزال انقباض صدره.

معلومٌ أيضًا أنّ الجسد يتحوّل عند اجتياز حدودٍ ما، ويُغيّر البصرُ بؤرته وعدسيّته، وتتحلّل كثافة الهواء والروائح والأصوات تتقاطع على نحوٍ فريد، وحتّى الشمس كأنّها اكتست حلّةً أخرى. صنوفٌ من الأوكسيد تحتُّ، على نحوٍ غير مسبوق، إشارات الطرق التي تقترح عليكَ فهمًا مجهولاً للانعطاف ولتخفيف السرعة أو للمَطَبّ، ويبقى بعضها غامضًا، فيشعر باومغارتنر بأنّه أصبح رجلاً آخر، أو هو ذاته وآخر في الوقت نفسه، كما يحدث عند استبدال دمك كلّه. وإلى ذلك، ما إن عبر الحدود حتّى هبّت عليه نسائم عليلة لم يشهد لها مثيلاً في فرنسا.

على بعد ثلاثة كيلومترات من المركز الحدودي المهجور، صادفَ ازدحامًا خانقًا آخر. كانت سيّارة فان وُسِمَت بعبارة Policia تقطع الطريق باتجاه معاكس، ورجال بلباس نظاميّ أسود ينظّمون السير، بعدهم كان رجال آخرون يحملون بنادق رشّاشة ويقف أحدهم على مسافة خمسة أمتار من الآخر، وعند آخر بلباس مموّه يراقبون الجُشمة. باومغارتنر لم يكن معنيًّا بما يجري، لكنّه على بعد ثلاثة كيلومترات أخرى، بينما كان يسير بسرعة معقولة، تجاوزته سيّارة ڤان رينو، زرقاء غامقة، وسارت قليلاً بمحاذاته، ثمّ أنزلَ زجاج نافذتها وامتدّت عبرها ذراعٌ ملفوفة بكمّ من اللون نفسه تبرز في طرفه يد شاحبة اللون رشيقة الأصابع راحت تشيرُ برِفقٍ من الأعلى إلى الأسفل، كأنّها تنقر الهواء بوتيرة موقّعة، ثمّ تشير بليونة إلى جانب الطريق الذي انحرف نحوه باومغارتنر بهدوء وحزم، مرغمًا على ركن سيّارته.

راضخًا لهذا التوقّف القسري، شغّل باومغارتنر مصباحه

الوامض محاولاً ألاّ يتصبّب عرقًا، وداسَ على الفرامل ثمّ توقّف. وبعد أن تجاوزه الڤان الأزرق وتوقّف على بعد عشرة أمتار من الفيات، ترجّل منه رجلان. إنّهما من مفرزة الجمارك الإسبانيّة، فتقدّما منه مبتسمين، حليقين، مفروقي الشعر كأنّ المشطَ ما زال في يدهما، وقد كُويَ لباسهما على أحسن ما يكون، وكلمات أغنية تتردّد على شفاههما. أحدهما يتكلّم الفرنسيّة من دون لكنة تقريبًا، والآخر يلزم الصمت. الجمارك الجوّالة، يا سيّد، قال الذي يتكلّم، إنّه إجراء شكلي بسيط، أوراق سيّارتك وأوراقك الشخصيّة وافتح الصندوق لو سمحت.

استغرق التحقّق من محتويات الصندوق، من قبل العميل الجمركيّ الذي يلزم الصمت، أقلّ من دقيقة، ليتبيّن أنّها لا تحتوي على شيء يذكر: حقيبة، غيارات، ولوازم الحمّام والزينة. فيعيد الجمركي الذي لا يتكلم غلقَ الصندوق برويّة وأناة، فيما الآخر يسير، حاملاً هويّة باومغارتنر بيده، باتجاه سيّارة الڤان التي يترجّل منها في غضون ثلاث دقائق، إثرَ اتصاله، بالتأكيد، بأحد رؤسائه. كلّ شيء كما ينبغي يا سيّد، يقول له، نرجو المعذرة وشكرًا لتعاونك الذي يشرّفنا والذي يزيدنا احترامًا فائقًا لأخلاق أساسيّة لا تنفصل عن طبيعة مهمّتنا، والتي لا يسعنا إلاّ أن نكرّس لها حياتنا من دون استثناء حتّى لأغراض عائلية (أجل، يقول باومغارتنر)، ومهما كانت العقبات والمشقّات اليوميّة التي تستثير فينا وتنمّي الباعث الذي يحثّنا كلّ يوم على مكافحة هذا السرطان المتمثّل بخرق مبادئ الجمرك (أجل، أجل، يقول باومغارتنر) وما يدعوني أيضًا، من بين مئات الأشياء الأخرى، أن أتمنّى لك، باسم شعبي عمومًا، وباسم مؤسّستنا الجمركيّة خصوصًا، رحلةً ممتازة.

سلك الطريق مجدّدًا، ولاحظ أنّ الخريف قد حلّ بالفعل، لا بل صار متقدّمًا بما أنّ السماء مكتظّة بأسراب البجع التي تحلّق بالاتجاه الذي يسلكه على الطريق الفرعيّة. هذه البجعات مهاجرة، فهذا موسم هجرتها، من بوتسدام إلى نواكشوط مرورًا بجبل طارق، من دون استراحة تقريبًا، متّبعة في الغالب معالم طرقاتٍ موجودة. لن تتوقّف إلاّ مرّة واحدة، في منتصف الطريق عمليًّا، على الخطّ الأيمن اللامتناهي الذي يمتدّ متواصلاً من ألجزيراس إلى مالاغا، باعتبار أنّ أعمدة نصبت على جانبي هذه الطريق وحرِصَت سلطة ما حكيمة على بناء أعشاشٍ فسيحة فوقها على مقاس البجع. هناك تستريح أسراب البجع قليلاً، ملتقطةً أنفاسها، مناكفةً بعضها بعضًا، قانصةً الفئران والحيّات المحلّيّة، إلاّ إذا اهتدت إلى جيفة ما، فمن يدري ــ وفي الأثناء يتضاحك العميلان الجمركيّان الوسيمان وهما يتبادلان النظرات، في سيّارتهما التي تتقدّمه قليلاً. Me parece, tío que يقول الذي يتكلّم مخاطبًا الذي لا يتكلّم، hemos dado tiempo al Tiempo. ويُغرِبُ الاثنان بالضحك، ويَعذُبُ النسيم.

بمضيّ عشرين دقيقة، قبيل الظهر، يصل باومغارتنر إلى مدينة ساحليّة. يركن سيّارته الفيات في موقفٍ تحت وسط المدينة، ويذهب لحجز غرفة في فندق لندن وإنكلترا المطلّ على الخليج، ثمّ يخرج مجدّدًا متسكّعًا لبعض الوقت، من دون غاية محدّدة، في الشوارع العريضة والنظيفة للوسط التجاري، حيث عدد من محالّ الثياب الفاخرة. يعرف ما يكفي من الإسبانيّة لكي يقيس بنطالاً في أحد المحال، لكنّه لا يعرف منها ما يكفي ليُفهِمَ البائع لِمَ لا يرغب في شرائه. ثمّ يقصد المدينة القديمة التي تزدحم

شوارعها بأعداد لا تحصى من المقاهي. وإذ يدخل إلى أحدها، يشير باومغارتنر إلى أشياء بالصلصة، محشوة أو مشويّة، مرصوفة فوق الكونتوار فيلتهم شيئًا منها على عَجَل، ثمّ يعود أدراجه إلى الفندق عبر المتنزَّه المحاذي للخليج.

بمضيّ خمسة عشر يومًا، حلّ برد قارس لا يتلاءم ومطالع شهر تشرين الأوّل. في المتنزَّه كان الجميع قد ارتدوا سترات الأنوراك والمعاطف، والفراء والشالات، ولُحف ريش تغطّي عربات الرضّع التي تدفعها الأمّهات والآباء بأقصى سرعة. من نافذة غرفته، في فندق لندن وإنكلترا، يلمح باومغارتنر امرأة بديعة القوام، ترتدي مايو أسود من قطعة واحدة، وتخوض في مياه المحيط الضاربة إلى الخضرة الداكنة، والتي يكفي لونها، وحده، لإشاعة الإحساس بالبرد القارس. إنّها بمفردها على الخليج، تحت سماء مكفهّرة وغير مؤاتية، فيما الناس يتوقّفون عند المتنزّه للتفرّج عليها. تخوض قُدُمًا في الماء الجليدي حتّى يغمر كاحليها، حتّى يغمر ركبتيها، عانتها، خصرها، قبل أن ترتمي في غماره باسطة ذراعيها إلى الأمام، وترتسم بِشَارة الصليب وباومغارتنر يحسدها. ما الذي يميّزها عنّي لكي تتمكّن ممّا تفعله؟ لا شيء سوى أنّها ربّما تجيد السباحة. وأنا لا أجيدها. شارة الصليب أمر مقدورٌ عليه، ولكنّ السباحة لا.

٣١

إذًا، هل نوقّع هذا العقد؟ سأل كورداي بإلحاح ملهوف في صباح اليوم التالي. العقد، بلى العقد، قال فيرّي أقلّ حماسةً ممّا كان عليه أمس، ليس الآن. لن نوقّعه الآن. ولنقل في الوقت الحاضر. إنّني سأتولّى شخصيًا مسألة تنفيذ الأعمال، سآخذ هذا الأمر على عاتقي. وسأعوّض نفقاتي بعد بيعها. بعد ذلك سوف نرى إذا كان العمل سيلقى رواجًا، وإذا كنّا سنبحث لك عن مكان آخر لتنظيم معرضك الثاني. في بلجيكا أو في ألمانيا، أو شيء من هذا القبيل. أمّا إذا لم تلقَ الأعمال الرواج المطلوب، فالأحرى أن يقتصر العرض على فرنسا، وعندها سنحاول أن نجد شيئًا بهذا الخصوص في المراكز الثقافيّة على سبيل المثال. بعد ذلك نحاول أن نبيع عملاً لل Frac، أو ال Fnac، ثمّ يمكننا أن نعرض هذه القطعة نفسها في أحد الأماكن العامّة، ما من شأنه تحريك الأمور. وبعد ذلك نفكّر بنقل المعرض إلى نيويورك.

نيويورك، يردّد الآخر مشدوهًا. نيويورك، يُردّد فيرّي قائلاً،

نيويورك. دائمًا المسار نفسه، أليس كذلك. وفي حال رواج هذه الأعمال وصحّت توقعاتنا صار بالإمكان توقيع العقد. بالإذْنِ، لحظة وأعود.

قرب مدخل الصالة، مستغرقًا في تأمّل عملٍ حديث هو كناية عن سوتيان عملاقة من حرير صخريّ ناعم كان زوج عشيقة شوارتس قد أوصى فيرّي عليها، كان الضابط في الشرطة القضائيّة، سوبان، قد ركن سيّارته مجدّدًا هناك. مظهر سوبان يوحي بالصبا، كان يرتدي على الدوام ملابس الشرطيّ الشاب التقليديّة، وهي ملابس لا تلقى استحسانه على الإطلاق، لكن ظروف المهنة تفرضها عليه. كان يبدو مغتبطًا لوجوده هناك، أمام صالة فيرّي للفنّ الحديث، لقد كلّفتُ أخيرًا بمهمّةٍ تليق بكفاءاتي.

أودّ فقط أن أبلغك، قال سوبان، أنّ سيّارة الفيات قد رُصِدت عند الحدود الإسبانيّة. تدقيق جمركي روتيني، ولم يبلغ عن شيء غير معتاد. حاولوا استبقاء السائق قليلاً، ولكن رجال الجمارك لا يتمتّعون، في مثل هذه الحال، بأيّ صلاحيّات. لكنّهم سارعوا إلى إخطارنا بالأمر، فلحسن طالعنا أن علاقاتنا ممتازة بزملائنا في ذلك القطاع. طبعًا سأحاول تعيين مكان الشخص بدقّة، فلديّ زملاء في تلك الناحية وسأحيطهم علمًا بما يجري، ولكنّي لا أضمن النتائج. سأتصل بك إذا بلغني شيء. سأتصل بك هذا المساء أو يوم غد في أبعد تقدير. ولكن قل لي، من باب الفضول لا أكثر، كم يبلغ سعر السوتيان الضخمة المعروضة هناك؟

بعد الصدمة التي تلقّاها لسماعه سعر السوتيان، غادر سوبان متعثّرًا، وعلى الرّغم من معلوماته التي قد تفضي إلى تقدّم ملموس في القضيّة، انتابت فيرّي مشاعر كآبة غامضة. فبعد حُسن تخلّصه من كورداي بأسرع ما يمكن، لم يعد واثقًا حتّى من أنّه سيتمكّن من الوفاء بالعهود التي قطعها له، والتي قال إنّه سيتعامل معها في وقتها. كان عليه أن يُرغم نفسه على التماسك لكي لا يفشو خواء الروح هذا الذي استبدّ به فيسود الأجواء كلّها ويفسد حياته المهنيّة وبالذات وجهات نظره الخاصّة حول الفنّ. مع ذلك، نظرة شاملة واحدة من حوله كانت كافية لتثير في أعماقه شعورًا مباغتًا بالنفور من الأعمال المعروضة في صالته، واستبدّ الشكّ بكيانه ما دفعه إلى إغلاق الصالة أبكر من المعتاد. أذِنَ لأليزابت بالمغادرة قبل أن يقفل الباب الزجاجي ويسدل الباب الجرّار الحديد بضغطه على زرّ كهربائي، ثمّ يمشي، محنيّ الظهر توقيًا للريح العاتية في ذلك اليوم، قاصدًا محطّة مترو سان لازار. تبديل الخطّ في محطّة أوبيرا، والنزول في محطّة شاتله حيث يصبح، بعد عبوره السين، على مسافة دقيقتين سيرًا من ساحة قصر العدل. لم تكن المتاعب المهنيّة والماليّة هي الباعث الوحيد لشعوره بالخواء الروحيّ، وانحناء ظهره وتجهّم وجهه: كان الباعث أيضًا أنّ اليوم يصادف ١٠ تشرين الأوّل، والمثول أمام المحكمة لإتمام معاملات الطلاق ليس بالأمر المبهج بأيّة حال.

طبعًا، لم يكن هو الوحيد الذي يواجه تلك المشكلة، غير أنّ حال أمثاله لم تُعَزِّه أقلّ العزاء: كانت ردهة الانتظار مكتظّة بالأزواج الذين بلغوا نهاية المطاف. ومع ذلك بدا بعضهم،

وعلى الرّغم من أمر المثول أمام محكمة الطلاق، على شيء من الوفاق مع الشريك، إذ يتحدّثون إلى محاميهم بهدوء لافت. كان أمر الاستدعاء واضحًا في تعيينه الساعة: الحادية عشرة والنصف، وفي الحادية عشرة وأربعين دقيقة لم تكن سوزان قد حضرت بعدُ ــ دائمًا متأخّرة عن مواعيدها، يقول فيرّي في سرّه إذ يستعيد في ذاكرته كم كان يشعر بالانزعاج حيال هذا الأمر، ولم يكن وحيدًا في ما ينتابه، بل إنّ قضاة الشؤون العائليّة، هم أيضًا، شعروا بشيء مماثل. كراس بلاستيكيّة غير مريحة صُفّت لصقَ الجدران الأربعة هي كلّ أثاث ردهة الانتظار، تحيط بطاولة خفيضة عليها مجموعة من المطبوعات المتنوّعة المستهلكة: منشورات قضائيّة، ومجلات فنّيّة أو طبيّة، ودوريّات أسبوعيّة مكرّسة لحياة المشاهير. التقط فيرّي إحدى هذه الدوريّات، وشرع بتقليب صفحاتها: كانت تحتوي، كالمعتاد، على صورٍ لنجوم الفنّ، نجوم من المجالات الفنّيّة كافّة، أي من أوساط الغِناء والتلفزيون والسينما والرياضة أو السياسيّة وحتّى مشاهير الطبّاخين. في وسطها صفحة مزدوجة كناية عن صورة لنجمة مشهورة مصحوبة بآخر عشّاقها، وفي الخلفيّة الغائمة قليلاً، يظهر في الصورة، على نحوٍ مشوّش ولكن لا يرقى إليه الشكّ، باومغارتنر نفسه. كان فيرّي سيصل إلى صورة الوسط تلك في غضون أربع ثوان، في غضون ثلاث ثوان، اثنتين، واحدة، غير أنّه سرعان ما ألقى المجلّة من يده، غير آسف، لأنّ سوزان اختارت تلك اللحظة بالذات لتظهر من صدعِ الباب.

كان القاضي قاضية، شعرها أشيب، هادئة ومشدودة

الأعصاب في وقتٍ معًا؛ هادئة لاعتقادها بأنّها اعتادت كونها قاضيًا، ومشدودة الأعصاب لعلمها أنّها لم تعتد الأمر مطلقًا. وعلى الرّغم من تظاهرها الشاقّ بالبرودة، كان فيرّي يتخيّلها مُجامِلةً في حياتها الخاصّة، مُطَمئِنةً وربّما مُحبّة حتّى، بلى، وهي بالتأكيد ربّة أسرة صالحة وإن كانت على شيء من الصرامة والحزم. ليس مستبعدًا أن يكون زوجها كاتبًا في المحكمة، وأن يكون مولعًا بمهام التدبير المنزليّ عندما يتعيّن عليها أن تعود متأخّرة على موعد العشاء الذي لا تُناقش خلاله إلاّ الأمور المتعلّقة بالقانون المدني. ولمّا أرادت أوّلاً أن يمثل الزوجان معًا أمامها، وارتأى فيرّي أنّها لا تطرح سوى أسئلة لا غاية محدّدة منها، لم يستجب لأسئلتها في الحدود الدنيا للاستجابة المطلوبة.

سوزان أيضًا، لبثت متحفّظة في معظم الأحيان، لا تجيبُ إلاّ بما ينبغي أن تجيب عنه، وباقتضابٍ شديد. لا، لا، قال فيرّي، عندما أرادت القاضية، في إجراء شكليّ محض، التثبّت من عدم وجود أولاد. إذًا قرارك محسوم، قالت القاضية مخاطبةً سوزان ــ وملتفتةً نحوَ فيرّي: الاستاذ يبدو أقلّ حسمًا لقراره. بلى، بلى، قال فيري، لا مشكلة في ذلك. ثمّ تحدّثت إليهما، أحدهما تلو الآخر، على حدة، والسيّدة أوّلاً. في انتظار دوره، لم يلتقط فيرّي المجلّة نفسها، ولمّا خرجت سوزان من غرفة القاضية، نهضَ متلفتًا باحثًا عنها بنظراته التي لم تبادله بمِثْلها. تعثّر بكرسيّ في طريقه إلى غرفة المكتب. هل أنت واثق حقًّا من رغبتك في الطلاق؟ سألته القاضية. أجل، أجل، أجاب فيرّي. فليكن، قالت وهي تغلق الملفّ، وهكذا قُضيَ الأمر.

لدى مغادرتهما، كان فيرّي يودّ فعلاً أن يقترح على سوزان الذهاب معًا لتناول الغداء، أو ربّما فقط لاحتساء كأس شراب، في المبنى المقابل مثلاً، في مقهى الباليه، غير أنّها لم تمنحه الفرصة لأن يفعل. سرت رعدة في بدنِ فيرّي إذ توقّع الأسوأ، كأن يتلقّى الشتائم والإهانات والتحذيرات التي نجا منها في شهر كانون الثاني المنصرم، ولكن لا، لم يحصل شيء من هذا. إذ اكتفت برفع سبّابتها لتشير عليه بأن يلزم الصمت، ثمّ فتحت حقيبة يدها وأخرجت منها نسخةً من مفاتيح الصالة كانت متبقّية في منزلهما في إيسيّ، وأعطته إيّاها من دون أن تنبس بكلمة قبل أن تسير مبتعدةً باتجاه جسر سان ميشال جنوبًا. لبِثَ فيرّي مسمّرًا في مكانه لخمس ثوانٍ، سلك بعدها الطريق المفضية إلى «البون أو شان» شمالاً.

عند العصر أغلق فيرّي أبواب الصالة كعادته كلّ يوم عند السابعة مساء، قبيل هبوط الليل؛ كانت الشمس قد احتجبت عن هذا المقلب من الأرض، وبقيت السماء زرقاء داكنة، شديدة الصفاء تحلّق في كبدها طائرة بعيدة، عاكسةً أشعّتها الأخيرة، غير المرئيّة من هذا الجانب من الأرض، مخلّفةً وراءها خطًّا ورديًّا زاهيًا. لبثَ فيرّي واقفًا لهنيهاتٍ أخرى، ملقيًا نظرةً خاطفةً إلى الشارع قبل أن يبدأ سيره. كان تجّار المحلّة يسدلون، مثله، أبواب محالهم الجرّارة. كما غادر عمّال الورشة المقابلة مكان عملهم بعد أن حرصوا على توجيه سواعد رافعاتهم العملاقة، لهذه الليلة، باتجاه هبوب الريح. على واجهة المبنى الكبير المجاور، كانت نافذة من كلّ اثنتين مخترقة بصحونٍ لاقطة: لقد كانت هذه الصحون تصدّ أشعّة

الشمس، إذا أشرقت الشمس، عن الدخول، مستقبلةً بدلاً منها صور التلفزيونات التي تحلّ، على هذا النحو، محلّ النوافذ.

كان يهمّ بالابتعاد عن الصالة عندما لاح له عند طرف الشارع خيال امرأة ليس غريبًا عنه، ولكنّه لم يُدرك إلاّ بعد هنيهة أنّ الخيال هو هيلين. لم تكن تلك هي المرّة الأولى التي يجد فيها فيرّي صعوبةً في التعرّف، فورًا، على المرأة الشابّة: فعندما كانت تدخل عليه في المستشفى كان يحتاج دائمًا إلى فاصلٍ من الوقت، علمًا بأنّه كان يعرف على الفور أنّها هي، لكنّه يحتاج، في كلّ مرّة، إلى إعادة تشكيل هيئتها في ذهنه، والانطلاق مجدّدًا من الصفر كأنّ ملامحها لا تتناسق فيما بينها من تلقائها. مع أنّ ملامحها جميلة، لا جدال في ذلك، وشديدة التناسق فيما بينها، كان بوسع فيرّي التمتّع بكلّ ملمح منها على حدة، غير أنّ ما يتبدّل باستمرار هو صلة التناغم فيما بينها، بحيث لا توحي دائمًا بأنّ هذا الوجه هو الوجه عينُه. كانت ملامحها على قدرٍ من التناسق غير المستقرّ كأنّها تقيم صلات متبدّلة فيما بينها، فيحسب الناظر أنّها في تحوّل دائم. لم تكن إذًا هي الشخص نفسه الذي يلقاه فيرّي أمام ناظريه كلّما التقى هيلين.

كانت هيلين مارّة هناك بمحض الصدفة، من دون علم مُسبق أو خبر: مقترحةً أن يحتسيا معًا كأسًا من الشراب، فعاود فيرّي فتح أبواب الصالة؛ ثمّ، في طريقه لإحضار قنّينة الشمبانيا من ثلاّجة المحترف، قرّر أن يُمعن النظر هذه المرّة، بأناة وعناية، إلى وجه هيلين، كما يفعل المرء لحفظِ درسٍ، لكي يتعرّف إليه

مرّةً وإلى الأبد ويبرأ من التشوّش الذي يسبّبه له. غير أنّ جهوده هذه بُذِلَت عبثًا، خاصّة أنّ هيلين وضعت مكياجًا هذه المرّة، على غير عادتها، ما يغيّر كثيرًا في المعطيات ويزيد من تعقيد الأمور.

ذلك أنّ المكياج يُقنِّعُ فيما يُزيّنُ مكامنَ الحواسّ، في الأقلّ، إذا لاحظتم، تلك التي تتمتّع بأكثر من وجهة استخدام. مثلاً، الفم الذي يتنفّس ويتكلّم ويأكل ويشرب ويتبسّم ويهمس ويقبّل ويمصّ ويلحس وينفخ ويتنهّد ويصرخ ويدخّن ويكشّر ويضحك ويغنّي ويصفر ويشهق ويبصق ويتجشّأ ويقيءُ ويزفر، يُطلى بأحمر الشفاه، وهذا أقلّ الإيمان، تكريمًا له لأدائه هذه الوظائف النبيلة كلّها. كما يُطلى أيضًا محيط العين التي تنظر وتعبّر وتبكي وتغمض طلبًا للنوم، وهي وظائف نبيلة أيضًا. كما تُطلى الأظافر السبّاقة دومًا في أداء ذلك التنوّع النبيل الهائل للعمليّات اليدويّة.

ولكن لا يُطلى بالمساحيق ما لا يؤدّي إلاّ وظيفةً واحدةً أو اثنتين. لا الأذن ــ التي لا تفيد إلاّ السمع ــ والتي يُدلّى من طرفها قُرط. ولا الأنف ــ الذي لا يفيد إلاّ التنفّس والشمّ وأحيانًا يُزكَم ــ الذي هو، كالأذن، قد يُزيّن بزردةٍ أو حجر كريم أو لؤلؤة أو حتّى، في بعض الأصقاع، بِعَظْمَةٍ حقيقية، فيما يكتفي الناس ههنا بمسحه بالذرور. غير أنّ هيلين لم تكن لتقرب كلّ أدوات الزينة تلك، إذ اكتفت بتلوين شفتيها بأحمر شفاه غامق، وبذرورٍ على الأجفان وبأثرٍ خفيف من الأيلاينر. وكان من شأن ذلك، في نظر فيرّي، أن يُعقّد الأمور إلى أقصى الحدود.

ولكن، لا، لم يتّسع الوقت لأي تعقيدات من هذا النوع، إذ سرعان ما رنّ جرس الهاتف، في اللّحظة نفسها: سوبان على الخطّ، إنّني أتصل أبكر ممّا كنت أتوقّع، فأنا أعتقد أنّني توصّلت إلى أمر ما. ملتقطًا أوّل قلم صادفته يده، أصغى إليه فيرّي جيّدًا مدوّنًا بعض الكلمات على ظهر مغلّف، قبل أن يعبّر عن شكره الجزيل لفتى الشرطة القضائيّة. لا داعيَ للشكر، قال سوبان، لقد حالفنا الحظّ. فصلاتنا جيّدة بالجمارك الإسبانيّة، ردّد قائلاً، كما أنّ أحد زملائي درّاج في الدرك هناك، وقد أخذ على عاتقه القيام ببعض التحرّيات خارج أوقات الخدمة. فلا تصدّق إذًا كلّ ما يشاع عن حربٍ دائرة بين أجهزة الشرطة. ما إن أقفل الخطّ، ملأ فيرّي بعصبيّة بادية كأسين مُترَعَتين. سيتعيّن عليّ أن أغادر على جناح السرعة، قال. في الأثناء، ربّما أمكننا، أنا وأنت، أن نشربَ نخبًا ما.

٣٢

سواء عبر الطريق السريعة أو الطريق الفرعيّة اللتين، باجتيازهما الحدود عند هنداي أو بيهوبيا، تقودان إلى جنوب إسبانيا، فإنّ سان سيباستيان تشكّل، في الحالتين، ممرًّا إلزاميًّا. بعد أن اجتاز فيرّي عددًا من المجمّعات الصناعيّة الكئيبة المطوّقة بأسوار على الطراز الفرانكوي، وبعد أن شعر مرارًا بأنّه نادم على مجيئه إلى هذه النواحي، توغّل في تلك المدينة الساحليّة الكبيرة، الباذخة والمفاجئة. كانت مشيّدةً على شريط ضيّق من اليابسة، على ضفّتي نهر وعلى هضبةٍ تفصل بين خليجين شبه متوازيين، بحيث تشكّل تلك الفرجة المزدوجة ما يشبه حرف الأوميغا، أو صدرَ امرأة متوغّلاً داخل اليابسة، ثديين مائيين يلبسان الساحل الإسباني مِشَدًّا.

ركن فيرّي سيّارته في الموقف تحت الأرض، وعلى مقربةٍ من الخليج الأكبر، ثمّ نزل في فندق صغير من فنادق وسط المدينة. انصرف خلال أسبوع بأكمله إلى التجوال عبر الجادّات الساكنة، المشبعة بالهواء الطلق، المُنظّفة بعناية،

المحاطة بالمباني الفاتحة الألوان الشاهقة، ولكن أيضًا عبر أزقّة ضيّقة، هي أيضًا مكنوسة بعناية، مُعتمة تعلوها مبانٍ نحيلة عالية. قصورٌ وبلاطات، جسور وحدائق، كنائس باروكيّة، وقوطيّة، وقوطيّة جديدة، ساحات حديثة البناء، وشواطئ شاسعة يُحاذيها معهد للعلاج بحمّامات البحر والنادي الملكي لكرة المضرب والكازينو. أربعة جسور لا تضاهي فخامةُ أحدها إلاّ فخامة الآخر، مرصوفة أرضيّاتها بالموزاييك مطرّزة بالحصى والزجاج والفونت ومزيّنة بمسلاّتٍ بيض ومذهّبة، وبمصابيح من حديد مطرّق، وبتمثال سفنكس، وأبراجٍ موسومة بالمشبّكات الملكية. كانت مياه النهر خضراء قبل أنْ تميل إلى الزرقة لدى مصبّها في مياه المحيط. كان فيرّي دائم التردّد على تلك الجسور، لكنّه غالبًا ما كان يقطع المسافة عبر المتنزّه المحاذي الشبيه بالمحارة، والذي تتوسّطه جزيرة صغيرة شُيّد عليها قصر صغير.

لمّا كان يقضي أيّامه متسكّعًا بلا غاية محدّدة إلاّ ما تأتي به المصادفة، ساعيًا إلى التآلف مع معالم الأحياء والنواحي كلّها، استبدّ به الضيق أخيرًا من تلك المدينة المترامية والضيّقة في الوقت نفسه، حيث لا يدري المرء أين يقف تمامًا وهو يعلم يقينًا أين. لم يزوّده سوبان بتعليماتٍ إضافيّة، قال سان سيباستيان، وأرفق الاسم بفرضيّة لا يستطيع القول إنّها محتملة جدًّا. والأمر الوحيد المحتمل في تلك الفرضيّة أنّ سارق التحف يقيم هناك.

خلال الأيّام الأولى، وفي مواقيت الطعام، كان فيرّي يتردّد

على عدد من الحانات الصغيرة المزدحمة في وسط المدينة، حيث يتاح له أن يأكل ما يشاء، واقفًا أمام الكونتوار، غير مُرغم على الجلوس وحيدًا لكي يتناول طعامه وحيدًا، وهو الأمر الذي قد يُدمّر تماسكه المعنوي. غير أنّ فيرّي سرعان ما ضاقَ بطعام الحانات: فاهتدى، آخر الأمر، ناحية المرفأ، إلى مطعم متواضع تخفّف أجواؤه من وطأة الوحدة. كان يتصل بأليزابتَ عصرَ كلّ يوم، وخلال الأمسيات، كان يأوي إلى الفراش باكرًا. ولكن بمضيّ أسبوع بدا له أنّ لا جدوى من بقائه هناك، فالبحث عن مجهولٍ في أرجاء مدينة بأكملها أشبه بالعبث، وسرعان ما استبدّ به القنوط. قبل تفكيره جدّيًا بالعودة إلى باريس، يقضي فيرّي يومين آخرين في تلك المدينة، من دون التجوال عبثًا في أنحائها، مؤثرًا قيلولة ما بعد الظهر على كرسيّ طويل على الشاطئ عندما يسمح طقس الخريف بذلك، ثمّ تمضية الأمسيتين الأخيرتين وحيدًا في بار فندق ماريا كريستينا، مختليًا بنفسه غارقًا في كنبةٍ من الجلد قُبالةَ كأس تاهكولي ورسم شخصيّ لقاضٍ جَنَويّ أوّل.

في إحدى الأمسيتين المتبقيّتين، لاحظ فيرّي أنّ الطبقة الأرضيّة من فندق ماريا كريستينا تغصّ بصخبِ جماعةٍ من المختصّين بمرض السرطان يعقدون مؤتمرًا، فآثر الذهاب إلى فندق لندن وإنكلترا، وهو فندق يُضاهي الآخر، غير أنّ ميزته تكمن في أنّ البار فيه مطلّ على الخليج عبر واجهات زجاجيّة مفتوحة. كانت الأجواء أقلّ صخبًا ذلك المساء ممّا كانت عليه في الماريا كريستينا ـ ثلاثة أو أربعة أزواج على مشارف الخمسين من أعمارهم جالسين في الصالة، ورجلان أو ثلاثة

يقفون عند البار. حركة بطيئة، نادرًا ما يغدو أحدٌ أو يروح؛ جلس فيرّي عند مؤخّر الصالة لصق الواجهة الزجاجيّة الكبيرة. كان اللّيلُ مخيّمًا وأضواء الساحل تنعكس أعمدة متموّجةً على سطح المياه الهامدة للمحيط، حيث ترسو بسلام، ناحية المرفأ، خمسةٌ وعشرون خَيّالاً واضحًا لسفنٍ سياحيّة.

كانت تلك الواجهات الزجاجيّة تتيح أيضًا، ووفقَ زاوية النظرِ الموجّه إليها، مراقبة الخارج، ولكن أيضًا داخل الصالة الساكنة بفعلِ انعكاس الصورة. لن يلبث الطرف المقابل للبار أن يشهد حركةً ما: راح الباب الدوّار يدورُ لهنيهاتٍ قبل أن يدخل منه باومغارتنر، الذي اقترب ليقف عند الكونتوار إلى جانب الرجال الوحيدين هناك، موليًا ظهره للواجهة. حين تراءى انعكاس صورة كتفيه وظهره على الواجهة، قطّب فيرّي ما بين حاجبيه، وبعد أن أمعن النظر اتّضحت له الصورة، فنهض عن كرسيه سائرًا نحو البار بخطى متأنّية. وإذ توقّف على مسافة مترين من باومغارتنر، بدا متردّدًا لبعض الوقت، ثمّ دنا منه. أرجو المعذرة، قال ملامسًا بإصبعين كتف الرجل الذي استدار نحوه.

مرحى، قال فيرّي. دولاهاي. لقد صدق ظنّي.

٣٣

لفرط ما كدّره ألاّ يكون ميتًا، وهو الأمر الذي ما كان ليفاجئ فيرّي البتّة، كان دولاهاي قد تغيّر كثيرًا في غضون بضعة أشهر. لا بل استحال شخصًا آخر. ذلك أنّ كومة الزوايا الحادّة، الفاقدة الشكل، التي طالما انتحلت شخصَه، قد استحالت، بقدرة قادر، قوامًا من الخطوط المتناسقة كأنّ كلّ ما فيه خَضَعَ لتصويبٍ بالغ الدقّة.

لم يبقَ في مظهره، إذ صارَ باومغارتنر، إلاّ ما يوحي بالأناقة: ربطة عنقه التي طالما عرفناها، منحرفة بهذا القدر أو ذاك عن زرّ الياقة، وثنية بنطاله المدعوكة عند الركبتين، وحتّى ابتسامته التي كانت فيما مضى سرعان ما تذوي، وترتخي، وتذوب كقطعة ثلج في مناخ مداريّ، وفرق شعره الجانبي الملتوي، وحزامه غير المستوي، وطرفي نظّارته وحتّى نظرته ــ بالاختصار، كلّ جزء مُرتَجل، مشوّش، غير مكتملٍ، وناقصٍ من جسمه قد جرى تقويمه، وشدّه، وتَنْشِيَتَه. الشعر الأشعث في شاربيه عديمي الشكل قُصَّ وشذِّبَ حتّى استقاما خطًّا لا شوبَ فيه، سِلكًا مثاليًّا مرسومًا بعناية، كأنّه خُطَّ بريشة دقيقة،

بأسلوبٍ لاتينيّ، سويّةَ الشفّة العليا.

راحا، هو وفيرّي، يحدّقان أحدهما بالآخر، لبعض الوقت من دون أن ينبسا بكلمة. ثمّ راح دولاهاي، رغبةً منه في رَفع الحَرَج، يُدير الكأس الذي احتوته راحته ثمّ كفّ عن ذلكَ فجأةً، فتابع محتوى الكأس دورانه هنيهات قبل أن يسكن بدوره. حسنًا، قال فيرّي، ربّما من المستحسن أن نجلس لكي نتحدّث قليلاً. هيّا، قال دولاهاي بشيء من الضيق. غادرا الكونتوار باتجاه عددٍ من الكنبات المريحة، إذ رُتِّبَ كلّ ثلاث أو أربع منها حول منضدة مكسوّة بغطاء. انتقِ المكان الذي يريحك، قال فيرّي، وسوف أتبعك.

عندما أولاه ظهره سائرًا نحو المكان الذي انتقاه، كان فيرّي يمعن النظر في ملابس مساعده السابق: حتّى ملابسه طرأت عليها تغيّرات ملحوظة. بدا طقمه المضلّع من الفلانيل الرمادي الداكن أشبه بالقالب الذي جعل قامته منتصبةً مستقيمة. ولمّا استدار هامًّا بالجلوس، لاحظ فيرّي ربطة عنقٍ سوداء فوق قميصٍ ذي خطوطٍ لؤلؤيّة رفيعة، وحذاءً واطئًا بلون الأثاث القديم، ومشبك ربطة العنق وأزرار كمّيه تلمع ببريق خابٍ هو مزيجٌ خَفِرٌ من الأُوْبَال الأصمّ والذهب غير المصقول. بالاختصار كان يرتدي الملابس التي طالما تمنّى فيرّي أن يرتديها أثناء عمله في الصالة. كاد المنظر أن يخلو من أيّ عيب حتّى جلس دولاهاي متهالكًا على إحدى الكنبات وحَسَرَت ثنيتا بنطاله: وإذا بمطّاط جوربيه رخوًا ومتهدّلاً. تبدو على أحسن حال، قال فيرّي. من أين تشتري ملابسك؟ لم يبقَ لي ما أرتديه، فاضطررتُ لشراء بعض الأشياء البسيطة من هنا. هناك أشياء لا بأس بها في محالّ الوسط التجاري، ولن تصدّق كم

الأسعار زهيدة مقارنة بفرنسا. ثمّ استقام في جلسته على الكنبة، وسوّى ربطة عنقه التي انحرفت قليلاً، بسبب الانفعال بلا ريب، وشدّ كمرَ جوربيه الهابطينِ على كاحليه.

زوجتي هي التي أهدتني هذين الجوربين، أردف قائلاً بشرود، لكنّهما، كما ترى، رخوان. أرفعهما فينزلقان حتّى الكاحلين. آه، قال فيرّي، هذا أمر طبيعيّ. الجوارب دائمًا تنزلق عن الساق إذا كانت هدية. صحيح، قال دولاهاي متبسّمًا بتصنّع، أنتَ قويّ الملاحظة، هل أقدّم لك كأسًا؟ بكلّ سرور، قال فيرّي. فأشار فيرّي إلى النادلة، ولبثا صامتين ريثما تحضر طلبهما، ومن دون أن يتبادلا الابتسام رفعا كأسيهما، وشربا. حسنًا إذًا، بادر دولاهاي إلى القول، ما الذي سيحدث؟ لا أدري حتّى الآن، قال فيرّي، الأمر كلّه رهنٌ بك أنتَ. هل نترافق في جولة؟

غادرا فندق لندن وإنكلترا، وبدل أن يسيرا باتجاه المحيط الذي بدا مائجًا في ذلك المساء، سلكا الوجهة المعاكسة. كانت النهارات تزداد قصرًا فيما الليالي تشتدّ حلكتها. تقدّما عبر جادّة الحرّيّة باتجاه الجسور التي تفضي إلى الضفّة المقابلة من النهر.

مهما بدا ذلك المجرى المائي متدفّقًا بقوّة ليصبّ في بحر كونتابريا، فإنّ هذا البحر يتدفّق صُعُدًا، في ذروةِ هيجانه، عبر مجرى النهر ويتصدّى له ويغلبه، إذ تختنق المياه العذبة في غمرة هذا الكمّ الهائل من الملح المحارب. ثمّ تأتي أمواجه المعاكسة لتتكسّر أوّلاً عند أعمدة جسر زوريولا وجسر سانتا كاتالينا، لكي تهدأ أخيرًا وراء جسر ماريا كريستينا. غير أنّها لا

تكفّ مع ذلك عن زعزعة النهر الذي تهزّه من عمقِ أعماقه قبل أن تموّج صفحة مياهه كتقلّصات البطن الاستداريّة، حتّى جسر موندالز وربّما أبعد من ذلك. توقّفا عند منتصف الجسر، وإذ استغرقا هنيهاتٍ في تأمّل الحرب الضروس الدائرة في الأسفل بين المياه العذبة والملح، وتذكّر دولاهاي، في خاطرة مفاجئة، أنّه لم يتعلّم السباحة يومًا، راودت فيرّي فكرةٌ لم تكن في الحسبان.

بإمكاني الآن أن أتخلّص منك، أن أتركك في قاع النهر، مرّة وإلى الأبد، قالَ بهدوء من دون أن يعني حقًّا ما يقول. أستطيع أن أغرقك مثلاً، من دون مشقّة. بلى، وقد يكون من الأجدر بي أن أفعل، بعد كلّ المتاعب التي سببتها لي. ولمّا سارع دولاهاي إلى القول إنّ مثل هذا العمل لن يجلب لمرتكبه سوى المتاعب، لَفَته فيرّي إلى كونه ميتًا في القيود الرسمية، ولن يُثير اختفاؤه مرّة ثانية أيّ نوع من الشبهات.

يحسبون أنّك ميت، لَفَته قائلاً، ولم يعد لك أيّ وجود قانوني، هذا ما كنت تسعى وراءه، أليس كذلك؟ إذًا، ما الذي أخشاه لو قتلتك؟ إنّ قتلَ ميتٍ ليس جريمة، قال على سبيل الافتراض دون أن يدري أنّه بذلك يستعيد حرفيًّا التعليل نفسه الذي حدا بدولاهاي إلى ارتكاب ما ارتكبه في حقّ الراقود. دعكَ من هذا الكلام، قال دولاهاي، لأنّك لن تفعل ذلك. لا، أقرّ فيرّي قائلاً، أحسب أنّي لن أفعل. فأنا، بأيّة حال، لا أدري كيف أفعل، ولم أعتد مثل هذه الأساليب. ولكنْ عليك أن تعترف بأنّكَ تخوزقت. أقرّ بذلك، قال دولاهاي، عليك أن تهذّب ألفاظك، ولكنّي أقرّ بذلك وأعترف.

كلّ هذا الكلام لم يجدِ نفعًا، لذا سَكَتا دقيقةً أو دقيقتين لنفادِ حججهما. كان فيرّي يفكّر في الأسباب التي دعته إلى استخدام تلك الألفاظ البذيئة. وأحيانًا كانت موجة قويّة تتكسّر بصخبٍ على دعامة الجسر، قاذفةً أهدابًا من زبدها حتّى حذائيهما. كانت مصابيح جسر ماريا كريستينا الشبيهة بأقراص الخبز المحلّى، تُرسِلُ ضياءها الخافت. وصُعُدًا، كانت مصابيح جسر زوريولا التي تشبه قمعًا متوّجًا بثلاث أو أربع كرات من المثلّجات، ترسلُ أنوارًا مبهرة.

إذًا، قال فيرّي بنبرة واثقة، بإمكاني أن أتّهمك بالسرقة أو الاحتيال أو استغلال الثقة، لا أدري بالضبط. لكنّ السرقة وحدها هي خرقٌ للقانون. وأعتقد أنّ الإيهام بالموت ليس قانونيًّا هو أيضًا، أليس كذلك؟ لا أدري، أجاب دولاهاي جازمًا، فأنا لم استشر أحدًا بهذا الشأن. إلى ذلك، قد لا تقتصر الأمور على ما ذكرتُ، قال فيرّي، وأعتقد أنّ في سجّل جرائمك مزيدًا من الجُنَح الأخرى التي لم تتكشّف بعد. إذ راودته ذكرى المصير المأسوي الذي حظيَ به الراقود، آثر دولاهاي أن يتغاضى عن الافتراض الأخير. حسنًا، قال، لقد أخفقت. حسنًا، أقرّ بأنّني أخفقت، إذ يحدث أن يُخفِق المرء أحيانًا. ولكن ماذا أفعل الآن من أجلك، هل فكّرتَ في الأمر؟ في آخر المطاف أنت المستفيد الوحيد، أردف قائلاً بشيء من الوقاحة، مرّة أخرى أنتَ المستفيد.

عندئذ اندفع فيري وأسنَدَ دولاهاي بقوّة إلى دربزين الجسر وراح يشتمه في البداية بصوتٍ غير مسموع، وقد أحكم قبضته على خِناقه. أيّها الداعر البائس، صاحَ قائلاً بصوتٍ مسموع، فاقدًا كلّ سيطرة على أعصابه برغم أنّه هو الذي لامَ نفسه، في

تلك الأمسية، على تلفّظه بذلك القدر من البذاءات. أيّها التافه المغفّل العِنّين ــ فيما الآخر، وقد تدلّى رأسه إلى الوراء فوق النهر المائج، ما عادت حُنجرته المطبقة، بعد محاولات احتجاج مستميتة، لتُصدِرَ إلاّ غمغمةً تقول لا، لا، أرجوك، لا.

لم يتّسع وقتنا، برغم العشرة بيننا منذ نحو العام، لوصف فيرّي جسديًّا. وبما أنّ هَذا المشهد المشوبِ ببعض التشويق لا يحتمل استطرادًا مطوّلاً، فلنوجز الأمرَ بعبارات قليلة: لنقل، على نحوٍ من التسرع، إنّه خمسيني أسمر، طويل القامة، أخضر العينين، وقد تستحيل رماديّة بحسب الطقس، ولنقل إنّه يتمتّع بشخصيّة لا بأس بها، وإنّ قواه، على الرّغم من العِلَلِ المتنوّعة التي ألمّت بقلبه، وعلى الرّغم من كونه متوسّط القوّة، قد تتضاعف إذا شعر بالغضب. والظاهر أنّ هذا ما نشهده الآن.

أنتَ يا حفنة القذارة الخرائيّة، كان يواصل شتائمه إذًا، ضاغطًا على خناق دولاهاي، المحتال الوضيع لاعق خصيتيّ. كانت سيّارات تعبر الجسر، ومركب صيدٍ يعبر تحته مطفأ الأنوار؛ أربعة مشاة غير منتبهين إلى شجارهما ظهروا فجأة على الرصيف المقابل، ولم يتوقّف أحد منهم، برغم الصراخ الذي ينذر بعواقب وخيمة. لا، غمغم دولاهاي بما يشبه الفواق، أرجوك، لا. اخرس، أيّها الوغد، سدّ فمك، نَهَرَهُ فيرّي قائلاً، سوف ترى جيّدًا بأنّني سأحطّم وجهك. ولمّا بدا الآخر مختلجًا على الرمق الأخير، شعر فيرّي بنبضٍ مجنون عند الصدغين، وراء زاوية الفكّ، كما شهد نبض أوردته، قبل بضعة شهور، خلال عمليّة قسطرة القلب. وعندئذ راح يسأل في سرّه، يا إلٰهيّ ما الذي أصابني اللّيلة وجعلني أنطق بهذا القدر من الشتائم؟

٣٤

نظرًا لغياب البديل الممكن، كانت الأيّام لتتقضي، بعد ذلك، بحسب مجراها المعتاد. بدايةً، يوم بأكمله على الطريق، إذ قرّر فيرّي أن يعود إلى باريس دونما استعجال. لذلك كان يتوقّف طويلاً لتناول طعام الغداء في نواحي أنغوليم، أو يلتفّ عبر طرقٍ فرعيّة لا لغرضٍ سياحيّ، بل رغبةً منه في استغلال الوقت الكافي لكي يراجع ما حدث وما يتوقّع حدوثه في الأيّام المقبلة. كان عليه أنّ يُغيّر طول موجات البثّ في راديو سيّارته كلّما قطع مئة كيلومتر لأنّها غير مجهّزة بنظام RDS. وما كان فيرّي ليسمع الراديو ، بأيّة حال، إلاّ خفيض الصوت كأنّه شريط المؤثّرات لفيلم الساعات العشرين الأخيرة الذي يعاود سماعه باستمرار.

لقد تدبّر أمره من دون مشقّة كبيرة مع دولاهاي. فبعد هنيهات من تصريف الغضب، هدأ فيرّي وقبل، في آخر المطاف، بالمساومة. أمّا دولاهاي، المرتبك، المشوّش الذهن، فقد ألفى نفسه خاسرًا على أكثر من صعيد. فبعد الآمال الكِبار التي

عقدها على بيع التحف في السوق السوداء، واثقًا من الربح الوفير الذي سيجنيه، كان قد أنفقَ مدّخراته كلّها، في غضون بضعة أشهر قضاها متنقّلاً بين الفنادق والنُزُل الراقية، على متطلّبات إقامته وملابسه الفاخرة: وما عاد يملك فلسًا واحدًا. تبدّدت آماله بوصول فيرّي الذي اقتاده، فور استعادته أنفاسه، إلى أحد بارات وسط المدينة ليقترح عليه اتّفاقًا. وهناك تداولا بهدوء، وتطرّقا إلى احتمالات المستقبل، وعاد فيرّي مجدّدًا إلى مخاطبة مساعده السابق بصيغة الجمع احترامًا.

في الوقت الحاضر، كان دولاهاي يصبو، مُرغمًا لا اختيارًا، إلى الاحتفاظ نهائيًا باسم باومغارتنر الذي لاقى مشقّة بالغة في الحصول عليه: وسيبذل المستطاع في سبيل ذلك. ذلك أنّ كلفة الاسم كانت باهظة جدًا، فتزوير أوراق الهويّة على نحوٍ مقبول يكلّف أموالاً طائلة، وبات التراجع عن ذلك مستحيلاً. مع ذلك، حاول أن يساوم: فمقابل تعويض معيّن قد يوافق على إرشاده إلى المكان الذي خُزّنت فيه التحف. ولكنّ فيرّي، على الرغمِ من تفاهةِ المبلغ المطلوب، تلذّذ بمساومته ولم يعرض عليه سوى ثلث المبلغ الذي طلبه، وهو مبلغ كافٍ بحسبه لكي يقضي دولاهاي بعض الوقت في بلدان أجنبيّة، ذات عملاتٍ متدنّية، يختارها بنفسه. ولمّا كان الآخر في موقفٍ لا يخوّله المساومة، أُبرِمَ الاتفاق على هذا الأساس. آخر الأمر افترقا من دون ضغينة ووصل فيرّي إلى باريس في مطلع الأمسية.

كان أوّل ما فعله غداة عودته، أنّه قصد شارونتون، منذ ساعات الصباح الأولى، بناءً على إرشادات مساعده السابق،

لاسترداد التحف ثمّ استئجار خزنة كبيرة في أحد المصارف، والإسراع، بعد تأمينها على النحو المطلوب، لإيداع التحف فيها. بعد فراغه من هذه المهمّة، وقد عاد أدراجه إلى مكتب جان فيليب ريمون للحصول منه على تقرير الخبير النهائي، ألفى نفسه، في مكتب السكرتيرة أمام صونيا. ما زالت على حالها هي وسجائرها البنسون وجوّالها الأريكسون، بحيث لم يستطع فيرّي ألاّ يقرن صورتها، تلقائيًّا، بالبايبي فون. بدا أنّها ترمقه بلامبالاة، ولكن فيما كان يتبعها في الممشى قاصِدَيْن مكتب ريمون، استدارت نحوه فجأة وشرعت تعاتبه، بكثير من الحَنَق، لأنّه لم يفكّر يومًا أن يتصل بها. ولمّا تغاضى فيرّي عن هذه الملاحظة، راحت تكيل له الشتائم همسًا، وعندما حاول فيرّي تلافيَ الأمر لائذًا بالمراحيض، لحقت به إلى هناك وألقت بنفسها في أحضانه وآهٍ، قالت، خذني الآن. وإذ جاهدَ في مقاومتها مردّدًا على مسامعها أنّهما في المكان والزمان غير المناسبين، جاء ردّ فعلها عنيفًا وحاولت أن تنهشه بأظافرها وأن تعضّه، ثمّ، طارحةً عنها كلّ تحفّظ، شرعت بفكّ أزراره راكعةً بُغيةَ ما تدري، ولا بدّ، جيِّدًا، فكفّ عن التظاهر بالسذاجة، لأنّك تعلم تمامًا ما أرمي إليه. ولكنّ فيرّي، لباعثٍ نجهله، قاومَ سعيها. وإذ تمكّن من تهدئتها قليلاً، استطاع أن يتملّص من محاولاتها الحثيثة برغم المشاعر المتضاربة التي انتابته آنذاك. ولحسنِ حظّه أنّه لدى عودته، بعد ذلك بقليل، إلى الصالة، بدا له أنّ الأمور قد شهدت تطوّرات إيجابيّة في غيابه. فالظاهر أنّ الحياة قد دبّت مجدَّدًا في الأعمال الراكدة منذ بعض الوقت، ولاقى فيرّي، طوال فترة بعد الظهر، صعوبةً

بالغة في التركيز على تصريف أعماله.

طبعًا، لم تكن صونيا هي الحلّ، ولكنّ فيرّي، وهو الرّجل الذي نعلم جيّدًا أنّه لا يقوى على العيش من دون نساء، حاول منذ صباح اليوم التالي لعودته أن يبعث الحياة في بعض علاقاته السابقة. كانت علاقات حبّ محتملة وغير مكتملة، أو علاقات عابرة على قدرٍ من التآلف الجسدي أو ملفّات قديمة مهملة، أو ملفّات ما زالت عالقة، أو صلاتٍ معلّقة على هذا القدر أو ذاك من الأهمّيّة. غير أنّ النجاح لم يُكتب لأيٍّ من محاولاته هذه. إذ اتّضح أنّ النساء اللواتي يُثرنَ فيه رغبةً ما لسن متوافرات، ولا يمكن الاتصال بهنّ، لأنّهن أقمن في أماكن أخرى أو انصرفن إلى أعمال أخرى. وحدهنّ اللواتي لا يُثرنَ فيه إلاّ أقلّ الاهتمام بَدَوْنَ متوافرات، وهو الذي لا يبدي إصرارًا على إحيائهنّ.

كانت هيلين هي الوحيدة المتبقّية، وإن كان فيرّي يبدي تردّدًا إزاء فكرة الاتصال بها مجدّدًا. فهو لم يرها منذ اليوم الذي وضعت فيه المكياج، والذي غادر على أثره إلى إسبانيا، ولا يزال، كما كان، لا يدري كيف التعامل معها، وما هي نظرته لها. بعيدة جدًّا وقريبة، مستسلمة وباردة، غامضة وواضحة، فهي لا تترك إلاّ القليل من الفُرَص لكي يتشبّث بها فيرّي سعيًا وراء ذروة ما. ومع ذلك قرّر أخيرًا أن يتصل بها، ولكن حتّى مع هيلين لم يحظَ بموعد للقائها قبل أسبوع من الزمن. بمضيّ هذا الأسبوع، وبعد أن استبعد من رأسه، لثلاث مرّات، فكرة إلغاء الموعد، جرت الأمور وفقَ المسار المعهود، أقصد أنّهما تعشّيا سويًّا ثمّ تطارحا الغرام، لم تكن مضاجعتهما مثالاً

رائعًا، لكنّهما فعلاها. ثمّ فعلاها مرّة ثانية. وبدا أنّ الأمور أفضل قليلاً ممّا كانت، ففعلاها ثالثةً، إلى أن بدت الأمور أشفى حالاً، خاصّة أنّهما شرعا، بين المضاجعة والمضاجعة، يتبادلان الأحاديث بطلاقة متزايدة، حتّى أنّهما ضحكا سويًّا: كان ذلك بمثابة تقدّم.. ربّما كان بمثابة تقدّم.

لنواصل التقدّم، الآن، فلنسرع. خلال الأسابيع التالية، لم تكتفِ هيلين بتمضية المزيد فالمزيد من الوقت في شارع أمستردام، بل راحت تتردّد على الصالة بمواعيد منتظمة. وسرعان ما أصبح لديها نسخة من مفاتيح الشقّة، ولا يلبث فيرّي أن يمتنع عن تجديد عقد إليزابت، وطبعًا هيلين هي التي تحلّ محلّها، وارثةً عنها أيضًا مفاتيح الصالة التي كانت سوزان قد أعادتها أمام قصر العدل.

تتعلّم هيلين أصول المهنة بسرعة. وتكتسب، بدراية، فنّ تدوير الزوايا، فيكلّفها فيرّي، بدوامٍ جزئيّ في البداية، بمعظم الصلاتِ مع الفنّانين. فقد أنيط بها مثلاً الإشراف على تطوّرات عمل سبونتيني، ورفع معنويات غوردِل أو تلطيف غرور مارتينوف. وكان أداؤها هذه المهمّة ضروريًّا لسير العمل لانصراف فيرّي إلى تدبير التحف المستعادة.

في وقتٍ قياسيّ طبعًا، فلا حاجة هنا إلى الشرح الطويل، تنتقل هيلين للإقامة في شارع أمستردام، ثمّ تتحوّل تدريجًا، نظرًا لتحسّن الأعمال، إلى العمل بدوامٍ كامل في الصالة. ويبدو أنّ الفنّانين، وخاصّة مارتينوف، يفضّلون التعامل معها وليس مع فيرّي: فهي أكثر هدوءًا وليونة في التعامل منه، هو، الذي يتلقّى

كلّ مساء، في شقّته في شارع أمستردام، تقريرًا مفصّلاً عن مجريات اليوم. على الرّغم من أنّ أحدًا منهما لم يأتِ على ذكر المسألة، فإنّ إقامتهما معًا تحوّلت بسرعة إلى حياة مشتركة بين زوجين. إذ نجدهما كلّ صباح سويًّا، هي أمام فنجان شايها وهو أمام فنجان قهوته، يتداولان في الأرقام والإعلانات، ومهَل التصنيع، والمبادلات مع الخارج، ويخلصان دائمًا إلى تنكيس إبهاميهما بشأن موازنة الفنّانين التشكيليين.

هذا ويفكّر فيرّي الآن في الانتقال. إذ أصبح هذا الأمر ممكنًا. لقد حقّقت التحف التي جُلِبَت من الناشيليك أرباحًا لا يُستهان بها، كما أنّ السوق تشهد تحسّنًا في هذه الآونة، وعاد التلفون إلى الرنين، وجامعو التحف يراقبون بعيون كاسرة، وتنبثق دفاتر شيكاتهم كسمك الشبّوط من جيوبهم. كما أن إلغاء أعمال الرسّامين التشكيليين لم يؤدِّ إلى أيّ نقص ينبغي تعويضه، فيما مارتينوف، على سبيل المثال، يحقّق انطلاقة جدّيّة في طريقه لأن يكون مصوّرًا رسميًّا: إذ يحظى بعقود لتجهيز ردهات المباني الوزاريّة في لندن ومداخل المصانع في سنغافورة، ولتصميم ستائر المسارح وأسقفها من أنحاء العالم بأسره، وباتت أعماله تُعرَض باستمرار في معارض عالميّة، وهو أمر حسَنٌ، لا بل حسن جدًّا. أمّا سبونتيني وبوكلي، فيقتربان، لدهشتهما هما قبل سواهما، من اكتساب جمهور خاصّ بهما، وحتّى غوردِل، الذي كفّ الجميع عن المراهنة عليه، استعاد عافيته وباع عددًا من أعماله. مع تدفّق هذه السيولة الرائعة، يرى فيرّي أنّهما يستطيعان، لا بل يتعيّن عليهما، لا بل سينتقلان بالتأكيد من شقّتهما. لقد بات قادرًا على الشراء الآن: سنجد

شقّة أوسع، في إحدى العمارات الحديثة البناء، طبقة أخيرة في الهواء الطلق نستكمل بناءها في الدائرة الثامنة، وتكون جاهزة خلال النصف الأوّل من شهر كانون الثاني.

ريثما تُنجَز كلّ التفاصيل المتعلّقة بالمسكن الجديد، راحا ينظّمان حفلات استقبال في شارع أمستردام. كانا ينظّمان حفلات الكوكتيل، وحفلات العشاء، ويدعوان إليها جامعي تحفٍ أمثال ريباراز الذي يحضر من دون زوجته، ونقّادًا وزملاء من مالكي صالات العرض، حتّى أنّهما دعيا سوبان إلى إحدى الأمسيات حيث حضر مصحوبًا بخطيبته. ولكي يعبّر له عن امتنانه لإسهامه في حلّ القضيّة، قدّم له فيرّي مطبوعةً حجريّة، من القياس الصغير، من أعمال مارتينوف الذي كانت هيلين قد أقنعته بأن تبتاعها منه بسعرٍ مخفّض. ولشدّة تأثّره، يعلن سوبان أوّلاً بأنّه لا يسعه القبول بها، لكنّه، في النهاية، يغادرُ الحفلَ وهو يحملها مغلّفةً تحت ذراعه. كان شهر تشرين الثاني قد حلّ منذ بعض الوقت، وكان الطقسُ جافًّا والسماء صافية زرقاء، والأمور على أحسن ما يرام. عندما لا يدعوان أحدًا يذهبان أحيانًا لتناول العشاء في مطعم، يعرّجان، بعد ذلك، على السيكلون أو السنترال أو السولاي لاحتساء كأسٍ، وهي بارات يصادفان فيها، في بعض الأحيان، أناسًا من الوسط نفسه، زملاء مالكي صالات عرض ونقّادًا تشكيليين كانوا مدعوّين إلى حفلتهما التي أقاماها قبل يومين.

خلال الأسابيع التالية، وحتّى آخر الشهر، يحدث أن يلتقي فيرّي، بمحض المصادفة، من قريبٍ ولكن غالبًا من بعيد، عددًا

من النساء اللواتي ربطته بهنّ علاقة فيما مضى. ذات يوم يلمح لورانس التي تنتظر، مثله، تحوّل إشارة السير إلى الأحمر، على الطرف المقابل من معبر المشاة ناحية المادلين، ولكنّ فيرّي الذي يذكر جيّدًا الخلاف الذي رافق انفصالهما، يفضّل ألاّ تلمحه، هي، وينتقل إلى مكانٍ آخر لكي يعبر الشارع. في يوم آخر، عند ساحة أوروبا، يجد نفسه فجأةً غارقًا في عَبَقِ Extatics Elixir، فيتنشّقُه مُرتابًا، ولكن عاجزًا عن التعرّف إلى المرأة التي تبذله وراءها. ليس مؤكدًا أنّها بيرانجير، فالظاهر أنّ عشّاق هذا العطر قد ازدادوا عددًا في الآونة الأخيرة. لذلك يُحجمُ عن اقتفاء هذا الأثر الشمّي الذي لم يستحسنه يومًا، بأيّة حال، لا بل يتجنّبه متواريًا في الاتجاه المعاكس.

ذات مساء، حتّى في بار «السنترال»، إذ عرّج بصحبة هيلين لاحتساء شرابٍ ما، يلتقي فيرّي ڤيكتوار التي لم يلمحها منذ مطلع العام. لم يطرأ على مظهرها أيّ تبدّل ظاهر، وإن بدا شعرها أطول وعيناها أكثر تحفّظًا، كأنّ بؤرتيهما غارتا قليلاً لكي يشمل البصر حقلاً أوسع من الرؤية. كما أنّها تبدو متعبة بعض الشيء. يتبادلون ثلاث عبارات تافهة، تبدو ڤيكتوار ساهيةً لكنّها تُطالع هيلين التي تبتعد ــ أعذراني للحظة واحدة ــ بابتسامة الرقيق الذي أُعتِق أو الفاتح المهزوم. لا تبدو على علم باختفاء دولاهاي. فيطلعها فيرّي على الصيغة الرسميّة لحادثة الاختفاء مصحوبةً بنظراتٍ مرتبكة، ثمّ يقدّم لها كأس نبيذ أبيض ويلحق بهيلين.

في هذه الفترة، ينصرف فيرّي، بمعونة هيلين، للإعداد

لانتقالهما إلى الشقّة الجديدة: حجرة نومهما المشتركة، وحجرة كلّ واحد منهما على حدة في حال قرّر أحدهما النوم بمفرده، لأنّ الاحتياط واجب، وحجرات المكاتب، وحجرات الضيوف، المطبخ والحمّامات الثلاثة، الشرفة والملحقات. يذهب فيرّي، مرارًا خلال الأسبوع الواحد، لتفقّد أشغال الورشة شبه المنتهية. يدوس على الإسمنت الطريّ ويتنشّق غبار الجصّ الذي يعلق في الحلق، يبدي رأيه بالطلاء وأعمال التشطيب، وألوان الستائر وترتيب الأثاث، ولا يصغي لوكيله العقاريّ الذي يتعثّر ويترنّح مرارًا بين الأكوام فاردًا خرائطه غير الدقيقة. تفضّل هيلين، في هذه الآونة ألاّ ترافق فيرّي خلال زياراته للورشة. تبقى في الصالة، وتعنى بالفنّانين، وخاصّة مارتينوف الذي ينبغي أن تراقبه عن كثب لأنّ النجاحَ أمرٌ بالغ الهشاشة ويتطلّب انتباهًا متواصلاً، إنّه عمل كلّ لحظة، بينما فيرّي الواقف على شرفة شقّته المستقبليّة، يشاهد الغيوم قادمةً.

تبدو هذه الغيوم واعدةً بسوء، ملبّدةً وعنيدة أشبه بجيش من الجنود المحترفين. الواقع أنّ الطقس تغيّر للتوّ، على نحوٍ مباغت، كأنّ الشتاء قد ملّ الانتظار، فأقبل بمزاجه العكرِ طاردًا الخريف برياح متوعّدة كيما يحلّ محلّه على عَجَل، منتقيًا أحد أيّام تشرين الثاني الأخيرة لكي يُعرّي، بصخبٍ وفي أقلّ من ساعة من الزمن، الأشجار من أوراقها المنكمشة كأنّها أصبحت تذكارات لما كانت عليه.

من الناحية المناخيّة، لا نغالي كثيرًا إذا توقّعنا الأسوأ.

٣٥

كان الشتاء قد حلَّ إذًا، ومعه حلّت نهاية العام، ومعها حلّت الأمسية التي، لأجلها، حرص الناس جميعاً على دعوة بعضهم بعضًا لقضاء السهرة في هذا المنزل أو ذاك. فيما مضى كان حلول موعد السهرة المذكورة يجعل فيرّي مشدود الأعصاب، ولكن ليس هذه المرّة، على الإطلاق. لا بل أعدّ العدّة لذلك، عازمًا على اصطحاب هيلين إلى دارة ريباراز حيث يُقام حفل استقبال ضخم: من المتوقّع أن يكون عدد المدعوّين كبيرًا جدًّا؛ فمع اثنتي عشرة فرقة موسيقيّة وأربع عشرة مائدة بوفيه وثلاثمئة شخصيّة معروفة من الأوساط كافّة، بالإضافة إلى وزيرين سيحضران بعد العشاء، لا بدّ أن يكون الحفل مسلّيًا.

قبيل نشرة الأخبار التلفزيونيّة، مساء الحادي والثلاثين، وبينما كان فيرّي يشرح لهيلين تفاصيل برنامج الحفل الموعود، قُرِعَ الباب فإذا بِجَابٍ، ومعه مساعدُ جابٍ، في جولتهما المعتادة من أجل حُلوان رأس السنة، حامِلَين عددًا من الروزنامات مزيّنة، بالضرورة، بصور كلابٍ في وضعية تربّص،

وقطط نائمة، وعصافير على الأغصان، وموانئ بحريّة، وقمم مكسوّة بالثلوج، أي بالاختصار، ما لا يتركُ مجالاً للاختيار. طبعًا، قال فيرّي بحماسة، أدْخُلا.

رحّبت هيلين بالانضمام إليه لاختيار الصورة التي يفضّلانها، وقرّ رأيهما على صورة باقتين، مطبوعةٍ من الجهتين، وسارعَ فيرّي، المبتهج، إلى منح الساعيين ثلاثة أمثال الإكراميّة المعتادة. وما كان من الساعيين المغتبطين إلاّ أن تمنّيا للزوجين عامًا سعيدًا زاخرًا بكلّ السعادة الممكنة، ثمّ سمعهما فيرّي عندما همّ بغلقِ الباب، يعلّقان على ما جرى فيما يهبطان السلّم، وبعد ذلك أعلنت هيلين أنّ لديها ما تقوله. بالتأكيد، قال فيرّي، ما الأمر؟ المسألة، قالت، تتعلّق بهذه الأمسية في دارة ريباراز، وإنّها، في النهاية تفضّل ألاّ تذهب إليها. ذلك أنّ مارتينوف ينظّم، هو أيضاً، سهرةً لعدد من أصدقائه في محترفه الجديد، الذي تمكّن من شرائه بفضل المبيعات التي حقّقها مؤخّرًا والذي تليق مساحته بمكانته الحاليّة، لذا هي تفضّل الذهاب إلى هذه السهرة. إذا كان الأمر لا يزعجك.

إطلاقًا، قال فيرّي، كما تشائين. طبعًا لن يخلو الأمر من بعض الحَرَج نظراً لصلاته المتينة بريباراز، لكنّه سيتدبّر ذريعةً، ولن يجد مشقّة كبيرة في الاعتذار منه. أقصد لا، قالت هيلين مشيحةً بوجهها، ليس هذا ما أردت قوله. فبعد تفكيرٍ طويلٍ، ربّما كان من الأفضل أن تذهب بمفردها. وإذ مطّ فيرّي شفتيه مُقطّبًا، قالت هيلين مُلتفتةً نحوه: اسمع، اسمعني جيّدًا. شرحت له أنّها فكّرت في الأمر مليًّا. هذه الشقّة الجديدة. وكلّ

هذا الأثاث. وفكرة أنّهما سيعيشان معًا وفوقهما كلّ هذه السماء. الحقيقة أنّها لا تدري. لم تكن واثقة جدًّا من أنّها مستعدّة لذلك، وكانت تحتاج إلى مهلة للتفكير، لذا يجب أن نناقش الأمر مجدّدًا. أنا لا أقصد أن ننهي كلّ هذا، وإنّما أحتاج إلى التفكير مجدّدًا في الأمر. ثمّ نناقش المسألة كلّها في غضون أيّام قليلة. حسنًا، قال فيرّي مُحدّقًا بطرف حذائه الجديد ــ جديد، إذ لم تنقضِ أسابيع قليلة على شرائه، وكذلك كلّ أحذيته ــ، حسنًا، أنا موافق. أنت رجل رائع قالت هيلين، سأذهب لتبديل ملابسي. ستحكي لي كيف ستكون السهرة عند ريباراز. أجل، قال فيرّي، لا أدري.

غادرت شارع أمستردام في ساعة مبكرة بعض الشيء لمثل هذا النوع من السهرات، قال في سرّه. وإذ بقي وحيدًا، ذارعًا غرفة الجلوس جيئةً وذهابًا لبعض الوقت، يُشعلُ التلفزيون لكي يطفئه بعد هنيهة، راح فيرّي، على نحوٍ مباغت، يصبّ اللّعنات على رأس فيلدمان لأنّه منعه من التدخين. ثمّ أجرى، كأنّه يفعل مُرغمًا، ثلاثة أو أربعة اتصالات هاتفيّة أسفرت جميعها، في يوم عيدٍ مماثل، عن ردود من المجيب الآلي. كان فقدَ رغبته في الذهاب إلى سهرة ريباراز الذي، بعد استلطافه هيلين منذ عملها في الصالة، لا بدّ أن يستهجنَ غيابها. ولأنّه لم يخطّط لمشروع بديلٍ خلال الأمسية، أصبح البحث عن حلّ بديلٍ متأخّرًا بعض الشيء. ثمّ أنّه سبق له الاعتذار عن عدم تلبية دعوات أخرى، ولا شكّ أنّ أيّ اتصال يجريه الآن لفرض نفسه في اللّحظة الأخيرة لن يكون إلاّ محرجًا: حتّى لو فعل، فهناك أيضًا، حيث يذهب، سيواجه أسئلةً لا رغبة له في الإجابة عنها.

أجرى مزيدًا من الاتصالات الهاتفيّة، لكنّها أفضت، جميعها، إلى النتيجة نفسها. وضع أسطوانة في الآلة وخفّض الصوت على القور، ثمّ غيّر الأسطوانة وقطع الصوت نهائيًا قبل أن يشعل التلفزيون مجدّدًا ويلبث واقفًا أمامه لوقتٍ ليس بالقصير، من دون أن يبدّل المحطّة أو أن يفهم ما يشاهده. لبث واقفًا أيضًا لدقائق أمام البرّاد المفتوح، في مثل حال الذهول السابقة ومن دون أن يمسّ شيئًا فيه. ثمّ بمضيّ ساعتين، تراه هابطًا شارع روما باتجاه محطّة المترو في سان لازار، ومنها ينطلق مباشرة نحو كورنتان سيلتون. مساء الحادي والثلاثين من شهر كانون الأوّل لا تكون عربات المترو مزدحمة بالناس. وليس من النادر أن تعثر على مقعد شاغر من تلك المقاعد التي تسهوي فيرّي، الذي يعي جيّدًا بأنّه ربّما يختار، في تلك اللّحظة، أسوأ الحلول الممكنة.

يعلم فيرّي أنّ سوزان، التي هجرها منذ ستة إلاّ يومين بالضبط، خبيرة في سهرات رأس السنة. كما يعلم أنّه يعرّض نفسه للأسوأ، وأنّ هذا الأسوأ قد يجد ما يبرّره، ويعلم جيّدًا أيضًا أنّ ردّ فعل سوزان قد يكون عنيفًا حين تراه، وأنّ المسألة كلّها غير مضمونة. لعلّها أشبه بالعمليّة الانتحاريّة، ولكنّ الظاهر أنّ الأمر سيّان عنده، كأنّ ما من خيار آخر، أعلم أنّ كلّ هذا محض غباء ولكنّني أفعل. ثمّ، من يدري، ربّما تكون سوزان قد تغيّرت هي أيضًا، وقد تكون أصبحت أكثر تمدّنًا منذ لقائهما الأوّل. ذلك أنّها لطالما تميّزت بذلك العنف الذي يرقى إلى العصر الحجريّ، حتّى أنّ فيرّي ليتساءل أحيانًا إذا كان تعرّف إليها أمام كهفٍ ما. كانت سوزان، حاملةً هِراوةً

بيدها وفأسًا من حجر الصوّان تحت زنّارها، ترتدي في ذلك اليوم تايورًا أشبه بأجنحة الزواحف المجنّحة تحت رداء مفصّل من جفون الدينوصور، ومعتمرةً ظفرَ سحليّة عملاقة قُدّ على مقاس رأسها. بعد ذلك لم تكن الأمور سهلة بينهما طوال خمس سنوات، إذ تخلّلها الكثير من العراك، ولكن قد تكون الأمور تحسّنت، سوف نرى في حينه.

المؤكّد أنّ البيت تغيّر قليلاً. كانت قبضة البوّابة، شأن صندوق البريد، قد طليت بالأحمر، ولم تعد البطاقة الملصقة عليه تحمل اسم فيرّي أو اسم سوزان قبل الزواج. كانت النوافذ كلّها مضاءة، لذا بدا أنّ سكّانًا جددًا في البيت يحتفلون بليلة رأس السنة. لبث فيرّي، مُحبطًا، قرب الباب لبضعِ دقائق، لا يدري ماذا يفعل ولا ماذا يودّ أن يفعل حتّى فُتِح بابُ المقصورة، وانطلقت منه موسيقى صاخبة.. وخرجت، في الوقت نفسه، فتاة مكثت عند المدخل، لا يبدو أنّها تريد أن تغادر، لكنّها راغبة على الأرجح في تنشّق الهواء الطلق.

بدت فتاة لطيفة، وحيّته مبتسمةً لمّا رأته. كانت تحمل بيدها كأسًا، في الخامسة والعشرين أو الثلاثين من عمرها، حسنة المظهر، وفيها شبهٌ من بيرانجير وإن كانت أقلّ جمالاً، وليس مستبعدًا على الإطلاق أن تكون ثملة بعض الشيء، وهذا أقلّ الأمور في سهراتٍ مماثلة. إذ بقي فيرّي واقفًا لصق البوّابة، خاطبته قائلةً: هل أنت أحد أصدقاء جورج؟ لكنّ فيرّي الذي شعر بإحراج شديد لم يُجب على الفور. تُرى هل سوزان موجودة؟ سأل أخيرًا. لا أدري، قالت الفتاة، لم أرَ سوزان

لكنّها قد تكون هنا، هناك جمع كبير من الناس، وأنا لا أعرفهم جميعًا. أنا شقيقة أحد شركاء جورج، لقد انتقل حديثًا إلى هذا المكان. لا بأس بالمنزل ككلّ، لكنّ الحرّ خانق في الداخل. أجل، قال فيرّي، يبدو جميلاً. هل ترغب في الدخول لتشرب كأساً؟ اقترحت الفتاة بلطفٍ بالغ.

وراءها، عبر الباب المشرع، لمح فيرّي كونسول المدخَلَ الذي أعيد طلاؤه، وبعض قطع الأثاث الأخرى، كثريًا مجهولة، وصور معلّقة أو مثبّتة على الجدار لا تناسب ذوقه أو ذوق سوزان. كنت لأرحّب بدعوتك، ولكنّني لا أريد أن أزعج أحدًا. أبدًا، على الإطلاق، قالت الفتاة مبتسمة، أدخل. أرجو المعذرة، قال فيرّي مقتربًا بحذر، لم أكن أتوقّع هذا. فالأمر معقّد بعض الشيء ويصعب شرحه. لا بأس، قالت الفتاة، أنا أيضًا وجدت نفسي هنا بمحض المصادفة. سوف ترى، هناك أشخاص ظرفاء. هيّا، تعال. حسنًا، قال فيرّي، ولكنّي لن أمكث إلاّ هنيهة، هنيهة بالفعل. أحتسي كأسًا واحدة ثمّ أذهب.